عبد العزيز الثعالبي

محاضرات في تاريخ المذاهب والأديان



تقديم ومراجعة حمادي الساحلي

دار الغرب الإسلامي

مُحَاضَرَاتٌ
في
تاريخ المذاهب والأديان

عبد العزيز الثعالبي

محاضرات في



تقديم ومراجعة حمادي الساحلي

دار الغرب الإسلامي

الطبعة الأولى
1985

دار الغرب الإسلامي
ص . ب : ١١٣/٥٧٨٧
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

لقد أُجْبِر الزعيم التونسي الخالد الذكر الشيخ عبد العزيز الثعالبي في سنة ١٩٢٣ على مغادرة تونس ، بإيعاز من السلطة الفرنسية التي كانت تحكم البلاد التونسيّة آنذاك ، ولم يُسْمَح له بالرجوع إلى وطنه إلّا في سنة ١٩٣٧.

فغادر تونس يوم ٢٦ يوليو ١٩٢٣ متوجّهًا إلى روما ، حيث استقبلته الأوساط السياسية بالتبجيل والاحترام ، وأجرت معه المجلّة الإيطالية «الشرق الحديث» Oriente Moderno حديثًا حول الوضع الذي كان سائدًا عهدئذٍ بالبلاد التونسيّة الرّازحة تحت نير الاستعمار الفرنسي.

ومن إيطاليا ارتحل إلى اليونان وتركيا ثم زار مصر والحجاز وقطر والبحرين والكويت وانتهى به المطاف إلى بغداد ، فاستقرّ بها من سنة ١٩٢٥ إلى سنة ١٩٣٠ [1].

وقد خصّته بغداد باستقبال حارّ وأقيمت على شرفه يوم ١٤ أغسطس ١٩٢٥ حفلة تكريم ، ألقى فيها الشاعر جميل صدقي الزهاوي قصيدة رائعة جاء في مطلعها :

وقفت نحيفـا بـالعزيز أرحّب ... فـأنشد للتكريم شعرًا فـأطرب

أقـوم على عجزي بمَا هو واجب ... وأذكر فيـه بعض ما الحقُّ يوجب

حفلنا جميعًا بـالرجاحة والحجى ... وبـالعلم ، إنّ العلم شيء محبّب

١) يراجع حول رحلة الشيخ عبد العزيز الثعالبي ، كتاب السيد أنور الجندي «عبد العزيز الثعالبي ، رائد الحرية والنهضة الإسلامية» ، بيروت ، ١٩٨٤.

وتحفـــل بغـــداد وتحفـــل دجلـــة ... وكلّ امرئ من ماء دجلة يشرب
أحيّيك يـــا عبـــد العزيز تحيّـــة ... لها الحبّ أمٌّ والوفـــاء لها أب
أحيّيك من ضيف لبغداد نافست ... به فهي عن إحساسها اليوم تعرب...

كما ألقى شاعر العراق الكبير معروف الرصافي قصيدة بعنوان «بين تونس وبغداد»، قال فيها بالخصوص:

أتونس إن في بغـــداد قومـــا ... ترفّ قلوبهم لك بـــالوداد
ويجمعهم وإيّـــاك انتساب ... إلى من خصّ منطقهم بضاد
ودين أوضحت للنـــاس قبلا ... نواصع آيـــه سبـــل الرشاد
فنحن على الحقيقة أهل قربى ... وإن قضت السياسة بـــالبعاد
ومـــا ضرّ البعـــاد إذا تـــدانت ... أواصر من لسان واعتقـــاد
وإنّ المسلمين على التـــآخي ... وإن أغرى الأجـــانب بـــالتعادي
أتونس إن يحدك ذو انتماء ... إلى عليـــا نزار أو إيـــاد
لنـــا «بثعـــالبيك» خير ملق ... على أشتـــاتنـــا حبـــل اتّحـــاد
وأكبر حـــامـــل بيـــد اعتزام ... لحبّ بلاده علم التفـــادي
وأسمى من سمـــا أدبـــا وعلمـــا ... وأفصح من تكلّم عن سداد[1]

هذا وقد سبق للشيخ عبد العزيز الثعالبي أن تعرّف خلال إقامته في باريس واستانبول على الملك فيصل بن الحسين، فمَا إن وصل إلى بغداد حتى سارع إلى المثول بين يدي الملك للسلام عليه وشكره على تفضّل الحكومة العراقية بدعوته إلى زيارة العراق. فاستقبله الملك فيصل بكلّ حفاوة وتبجيل واقترح عليه الاستقرار ببغداد والاشتغال بالتدريس في جامعة آل البيت التي أُحدثت في سنة ١٩٢٤.

وتنفيذًا لأمر الملك، عيّنت وزارة الأوقاف الشيخ عبد العزيز الثعالبي أستاذًا محاضرًا في الجامعة المذكورة التي كان يديرها آنذاك المرحوم الأستاذ فهمي المدرّس وكلّفته بتدريس الفلسفة الإسلامية وحكمة التشريع في الشعبة الدينيّة العالية.

---

١) لقد نُشِر النصّ الكامل للقصيدتين في دراسة الأستاذ عبد الرزاق الهلالي عن الشيخ عبد العزيز الثعالبي، مجلّة «المورد»، العدد الثالث (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م).

فباشر عمله في مطلع سنة ١٩٢٦ إلى أنْ ألغيت جامعة آل البيت في سنة ١٩٣٠.

ولقد أُعجِب الطلبة من أوّل وهلة بمَا كان يمتاز به الشيخ من حيوية ونشاط وإلمَام بالمواضيع وما كان يتمتع به من ذلاقة اللسان وحسن البيان وسرعة البديهة وقوّة الحجّة.

فلنستمع إلى أحد قدماء تلاميذه، الأستاذ رشيد العبيدي وهو يدلي بانطباعاته عن دروس أستاذه في الشعبة الدينية العالية:

«لقد كان المغفور له الشيخ عبد العزيز الثعالبي أستاذًا كبيرًا حقًّا. إذ كنّا نستمع إليه وهو يلقي محاضراته، وكلّنا آذان صاغية معجبين بمتانة لغته وسلامة لفظه وحسن تعبيره وسعة مادّته في موضوعه. لقد كان هذا الطراز من الأساتذة شيئًا جديدًا علينا نحن طلاّب جامعة آل البيت، إذ لم نر له من قبل مثيلاً، اللّهمّ المغفور له الأستاذ فهمي المدرّس، رئيس الجامعة»[1].

ونظرًا لما أحرزته من نجاح تلكم المحاضرات التي كانت ثمرة مجهود متواصل ودراسات وتحقيقات طويلة، فقد حرصت إدارة الجامعة على نشرها وطبعها، حتى تتمّ فائدتها ويعمّ نفعها كافة الطلاّب.

والجدير بالملاحظة أنّ الفصول المنشورة في أربعة أعداد من مجلة «الجامعة» بإمضاء الأستاذ عبد العزيز الثعالبي، هي مختصر لبعض المحاضرات التي ألقاها على المنتسبين إلى جامعة آل البيت، بإطناب ومزيد من الشرح والتعليق.

وقد صدرت الحلقة الأولى من تلك الفصول في الجزء الأول من المجلة (٣٠ شعبان ١٣٤٤هـ — ١٥ آذار/مارس ١٩٢٦م) تحت عنوان «محاضرات الفلسفة الإسلامية». وهي تبحث في تاريخ الأديان التي انتشرت في بلاد العرب قبل ظهور الإسلام.

وظهرت الحلقة الثانية في الجزء الثاني (٢ شوال ١٣٤٤هـ — ١٥ نيسان/ابريل ١٩٢٦م)، وهي تتعلق بالديانتين اليهودية والنصرانية.

---

١) المرجع السابق.

أما الحلقة الثالثة ، فقد نُشِرت في الجزء السادس (١ محرم ١٣٤٦هـ – ١ تموز/يوليو ١٩٢٧م) ، وهي تشتمل على بقية المحاضرات التي أُلقيت بعنوان الفلسفة الإسلامية والمحاضرات المتعلقة بحكمة التشريع .

وصدرت تتمّة محاضرات الفلسفة الإسلامية في الجزء السابع (٣ ربيع الأول ١٣٤٦هـ – ١ أيلول/سبتمبر ١٩٢٧م) من مجلة «الجامعة» التي توقّفت عن الظهور في سنة ١٩٢٨ .

وحرصًا على إبراز تراث الشيخ عبد العزيز الثعالبي ، سعى صاحب «دار الغرب الإسلامي» ، جازاه الله خيرًا ، إلى جمع تلك المحاضرات في كتاب واحد ، خدمةً للثقافة الإسلامية وتحيّةً منه لروح ذلك العلم البارز من أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث .

ولقد قمنا من جانبنا بمراجعة الفصول المذكورة وإصلاحها ممّا تسرّب إليها من أخطاء. ثم أعدنا ترتيبها بحسب تسلسل مواضيعها وقسّمناها إلى أربعة أبواب :

الباب الأول : أديان العرب قبل الإسلام

١ – حالة العرب قبل الإسلام

٢ – أديان وعقائد العرب قبل الإسلام

الباب الثاني : الأديان القديمة

١ – الدين عند قدماء المصريّين

٢ – المجوسيّة

٣ – الديانة اليونانية

٤ – الديانة الرومانية

الباب الثالث : الأديان السماوية

١ – الديانة اليهودية

٢ – الديانة النصرانية

الباب الرابع : دين الإسلام وحكمة التشريع

١ – ظهور الإسلام

٢ – الايمان

٣– أركان التصديق

٤ – المعاملات

واخترنا للكتاب هذا العنوان :

«محاضرات في تاريخ المذاهب والأديان»

* * *

ورجاؤنا أن يتواصل مجهود «دار الغرب الإسلامي» في سبيل إبراز ما تركه لنا علماؤنا ومفكّرونا من آثار جليلة والمساهمة في إحياء تراثنا العربي الإسلامي عبر الأزمنة والعصور.

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾.

حمّادي السّاحلي

تونس في ٢٠ شعبان ١٤٠٥

١٠ مايو ١٩٨٥

آثار الشيخ عبد العزيز الثعالبي المطبوعة

١ - «روح التحرّر في القرآن»
* الطبعة الأولى (بالفرنسية)، باريس، ١٩٠٥.
* الطبعة الثانية (بالعربية والفرنسية)، بيروت، ١٩٨٥.

٢ - «تونس الشهيدة»
* الطبعة الأولى (بالفرنسية)، باريس، ١٩٢٠.
* الطبعة الثانية (بالفرنسية)، بيروت، ١٩٨٥.
* الطبعة الأولى (بالعربية)، بيروت، ١٩٨٤.

٣ - «معجز محمّد صلّى الله عليه وسلّم»
* الطبعة الأولى، تونس ١٩٣٨.
* الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٨٤.

٤ - «مسألة المنبوذين في الهند»، بيروت ١٩٨٤.

٥ - «محاضرات في تاريخ المذاهب والأديان»، بيروت ١٩٨٥.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

دين الإسلام دين إصلاح وانقلاب ؛ جاء لهداية البشر قاطبة وشرّع لهم نظمًا عامة ، وأحكامًا شاملة في العقائد ، والعلم ، والسياسة ، والاجتماع .

ولما كانت هذه النظم والتعاليم نزلت في بلاد العرب ، في وضع عربي ، ملائمة للذوق العربي ، وتلقّاها العرب مباشرة عن الرسول (ﷺ) كان أثرها فيهم أدلّ ، وأوضح منه في غيرهم من الأمم التي اقتبسته منهم ، وأخذته بالمحاكاة والتقليد عنهم . لذلك يمكننا اعتبار الصبغة الإسلامية الأولى التي تطوّر بها العرب في صدر الإسلام هي المثل الأعلى الذي نتصوّر فيه حكمة هذا الدين وجلاله .

ولكي نميط اللثام عن الانقلابات العظيمة التي أحدثها الإسلام في الأمم ، ونطّلع على ما يكتنفه من بدائع الحقائق ، وغوامض الأسرار ينبغي أن نبحث عن أصل العرق العربي ، ونستقرئ أحوال البيئات التي تفرّعت منه ، وننقّب عمّا قام به ، أو ابتكره من الأعمال ، وما اقتبسه من غيره من الشرائع والأديان حتّى نعلم مبلغ قوّته ؛ وضعفه ، وتأثيره ، في سير المدنيّات القديمة ، وتطوّرها فيه ، وتدقيق ذلك في الأصقاع المختلفة التي تبسط فيها

هذا العرق ، وكذلك الأمراض المزمنة التي انتابت تلك العظمة ونزلت بها إلى منزل الحقارة من الأمم المغلوبة ، ثم أودت بها إلى التفسّخ والانحلال ، كما يصف ذلك كتّاب الإسلام ، ويصوّرونه في أقبح الصور ، وأبشع المناظر ، وهو ما لا يتّفق مع الواقع ، ولا تقرّه سنن الوجود ، لأن الأمم التي تنحطّ إلى هذه الوهدة لا تكون فيها قابلية ، ولا استعداد للنهوض ، ولا ملكات لتلقّي المبادئ والتعاليم.

البَابُ الأول

أديَانُ العَرَبْ قبْل الإسَلام

الفصل الأول

حالة العرب قبل الإسلام

العرب هم أصل العرق السامي السائد بآدابه ، وفلسفته على شطر كبير من العالم ، وتاريخهم يمتدّ إلى أعماق العصور ، وبعضهم يرفعه إلى ما قبل عهد التاريخ ، ويتخطّى به رقاب القرون ، وربّمَا عدّ مائة قرن ، ولكنّهم لا يذكرون شيئاً من أحوال هذا الماضي البعيد المملوء بالغموض ، غير حوادث تافهة بعضها موهوم ، والبعض الآخر مظنون ، والوهم والتظنّن لا يفيدان غير الإيهام ، والتحبيش ، وغاية ما وصل إلينا منه نتف ضئيلة مستخرجة من الشعر الجاهلي ، ومن أخبار اليهود وممّا كتبه معاصروهم من اليونان ، والرومان ، على ما فيها من قلّة وشذوذ.

ولكن تاريخهم آخذ بالوضوح من حين إلى آخر بمَا يكتشفه المنقّبون عن العاديات ، والآثار التي عثروا عليها في نينوى ، وبابل ، واور ، وبعلبك ، ومدائن صالح ، وسبأ ، وصنعاء ، ويريم ،.. الخ.

مواطن العرب

قد اتّفقت المصادر المختلفة على أن أرومة العرب نزلت من جهة «البحرين» ونبتت في «نجد» ثم انتشرت في أنحاء «الجزيرة». وكانت تتوالد وتتكاثر فتضيق عنهم الأفياء الفسيحة من بلادهم من فترة إلى أخرى، فتعجّ بهم الحاجة على رأس كل ألف سنة فيندفعون إلى الأقطار المجاورة. فكانوا ينصبّون على ضفاف «الفرات» و«دجلة» و«العاصي» و«برده» و«الأردن» و«النيل» و«شرقي افريقيا» ممّا يلي بحر «القلزم» وشمالها ممّا يلي شواطئ البحر «الرومي»، فامتدّت مواطنهم من قلب «أرمينيا» وأمشاج «فارس» إلى أحشاء «النوبة»، و«منبع النيل» ثم إلى «مصر» ومنها اجتازوا «نوميديا»[1] إلى البحر «الاطلانتيكي».

العناصر المتولّدة من العرب

استوطن العرب الأقطار السالفة فيمَا تقدّم من الأحقاب وتفرّعت منهم أمم كثيرة منها «السريان» و«الكلدان» و«الأشور» و«الكنعانيون» و«المعنيون» و«السبائيون» و«الحميريون» و«الهيروغليفيون» و«الرعاة» و«الإثيوبيون».. الخ. وأنشأوا مدنيّات ضخمة في عصور مختلفة وهي ما زالت إلى هذا العهد موضع درس وإعجاب الأمم.

ويكفي العرق السامي شرفًا وتقديرًا قيامه بالدعوة إلى الهداية الإلهية ونشر

١) شمال افريقيا.

روح الإيمان بالإله الواحد وعبادته ؛ وظهور الأنبياء والرسل الكرام من أصلابه ، ونزول الأديان والشرائع على قلوبهم وألسنتهم ، تلك فلسفته وأحكامه ، وهذه طرائقه وتعاليمه ، لم تزل نورًا متألّقًا يستضيء به النصف المتمدّن من البشر ، ويهتدي به النصف الآخر إلى التخلّص من ظلمات الشكّ إلى اليقين.

استيلاء الأجانب على العرب

غشي هذا العرق الكريم ما غشيه من الأمراض والعلل الاجتماعية التي انتابته من طريق العدوى فتسرّى إليه الوهن وأكله الضعف وامتدّ الداء إلى مثار العظمة من نفسه فهوى إلى حيث التوت عليه الأمور وأضاع الرأي والحزم فقبع للأعداء العديدين في مصارع الغلبة وفتح لهم ثغوره بيديه فأكبّوا عليه منها وما زالوا به يروضونه ويسلسون قياده حتى دان لهم بالطاعة والخضوع.

استولى الفرس على التخوم الشرقية من بلاد العرب وكذلك على جزرها الواقعة على الخليج ، وأصمد الأحباش جيوشهم من ناحية الجنوب ، فانتهبوا «العربية السعيدة» ، واستقام أمرهم فيها ، إلى أن أجلاهم عنها الفرس وضمّوها إلى ممتلكاتهم قبل مبعث الرسالة المحمدية بزمن قصير وتسلّط الرومانيون على الجانب الغربي فاكتسحوا «فلسطين» و«سورية» وكادوا يبلغون إلى قلب الجزيرة بعد أن انتزعوا شمال افريقيا من سلائل الكنعانيين واقتطعوا من أرض الفراعنة «الدلتا» وتمكّنوا من وضع أيديهم على مغالق الشرق وطرقه.

وصفوة القول : إن العرق العربي تآمر على نفسه ضدّ سيادته ، ضدّ

استقلاله ، فأضاعها بمشيئته واختياره واستمرّ تائهًا بضع قرون يمارس سيادات أجنبية مختلفة لا تقتصر على سلب ما تناوله إياها القوة بل انها تنفذ إلى قرارة النفس وتستخرج منها مشاعر القومية وحبّ الاستقلال وتضع مكانها ما تحمله من تقاليد ومعتقدات وهي أفيد آلات الحكم وأدوات التسلّط . فازدحمت بسبب ذلك أديان كثيرة في البلاد العربية .

وأيّ دين لم يتوثّب على العرب أو مكث بعيدًا عن الجزيرة؟

فقد استوطنها الصابئة واستقرّت فيها الوثنية وتطوحت إليها المجوسية وعاشت فيها اليهودية ولم تجانبها النصرانية ولا أضلّت الأديان الأخرى طريقها إليها . فكلّ دين استقام فيها وما أقامته غير السياسة والمطامع ولكلّ واحد منها نزعته وتأثيره وكيفما حاولت يد الجور والظلم إخفاءهما فانهما يترسمان في سير البلاد وكفى ما كانت تبديه من انقسام وتفريق ، فقد حكى لنا التاريخ أبو العِبَر من أنباء القوم ما فيه مزدجر وحكمة بالغة لو تغني النذر. حُكي أن كلّ فاتح همّ بوضع سيادته على بلاد العرب كان يقاتل العرب بالعرب وهم كانوا أدلاّءه على عورات بلادهم ، وحُكي أيضًا أن العرب كانوا إذا نزل بلادهم فاتحان انشطروا لها شطرين وقاتلوا في جنبيها بعضهم بعضًا ، وقد يذهب بهم التحمّس إلى منتهى الغاية ، فقد قاتل أهل العراق إخوانهم أهل الشام إشفاءً لغليل حماتهم من الفرس وكان أهل الشام ينكؤون جراح إخوانهم العراقيين لينال منهم الرومان مُستعبدوهم ما يبتغونه منهم .

وهكذا عاش العرب دهورًا يقاتلون ويستقتلون ضدّ مصلحة بلادهم بل لمصلحة عدوّهم ، وما كان ذلك ليقع بينهم لولا تأثير المنازع الدينية المختلفة التي ألهمهم إيّاها الحكم الأجنبي.

ما استفاد العرب من الأجانب

مهمَا غالينا في تصوير ما أحدثه الانقسام في الأمة العربية ، ومهمَا أردنا أن نبيّن ما أصابها من فتوق وخروق فلا نستطيع أن نجحد ما استفادته من الأحداث والعِبَر التي مرّت بها وهي رازحة تحت الحكم الأجنبي ، فقد استفادت كثيرًا من التجارب ، وأقلّ ما عرفناه من أخبار ما في ذلك أنّ عبر الحكم الأجنبي هي التي أيقظتها بعد قرون وأعادت إليها رشدها وكذلك أرجعت إليها الذهنية القومية وأحدثت فيها روحًا سامية حلّت منها مكان الخيال الديني القديم المريض بأدواء الأحقاد والانقسام والأنانية ، وكوّنت لها لغة ضخمة منطوية على مخابئ العقول وآثار القرون ومدنيّات الأمم ، جمعت بين الجزالة والرقّة ومتانة اللفظ وحسن الأسلوب .

ومن هذه العناصر تكوّنت الثقافة الجاهلية التي تقدّمت عهد الإسلام بزمن ليس بقصير.

أمّا الثقافة الجاهلية ، فهي تمتاز بالظرافة والذوق وحريّة الرأي وبُعد النظر والنقد النزيه .

ومن وراء ذلك : إذكاء العاطفة بالغرام وإفاضة الشعور بالجمال وإشعال القلوب بلهيب الحبّ ، ذلك الحبّ الشريف الذي يصل الإنسان بالحياة الكاملة ويجعل حظّه من الدنيا غبطة وسرورًا .

ومنشأ ذلك ، الثقافة التي حملتها الأديان إلى العرب ، وهي التي أعدّتهم لقبول الإسلام. ونحن إذا تعمّقنا في بحث الفلسفة الإسلامية نجد عناصرها ومقوّماتها متولّدة عن تطوّرٍ عام في الأديان والاعتقادات ، لذلك يجب على الباحث في روح الإسلام أن ينظر أوّلاً في الأديان والعقائد التي

تقدّمته وكان لها أثرًا في بلاد العرب لأنّ الروح الإسلامية هي عصارة الفلسفة المتكاملة من نقد وتمحيص فكرة الأديان.

أما بدون ذلك فيعسر جدًا تفهّم روح الإسلام الأزليّة.

الفصل الثاني

أديان وعقائد العرب قبل الإسلام

أديان العرب

يستطيع مؤرّخو الأديان إثبات الأديان التي دان بها العرب ولكن الذي يصعب بتّ الرأي فيه معرفة الدين الأوّل الذي دان به آباؤهم الأوّلون، وذلك بالنظر إلى تقادم العهد وانطماس معالم التاريخ وانقطاع أخبارهم ولا سيّمَا أخبار دور الجاهلية الأولى ولا سبيل للتعويل في هذا البحث الخطير الواسع على مجرّد الاستنتاج العقلي، وأنّى للعقل أن ينفذ إلى الأسرار المطمورة في أعماق الدهور، وهو تحت ضغط الإلف وتحكّم التقليد يتدافع بين ضعف التعليل وتشابه الأقيسة، ليس لديه من البرهان ما يستوضح به الحقائق غير الحيرة ومستندات مبتسرة لا يقيم لها العلم وزنًا؟ وسيبقى هذا السرّ غامضًا إلى أن تستنير آفاق العرب وتنفتح مغالق عقولهم للاستنباط والاستكشاف وينطلق المنقّبون بين أغوار الجزيرة وأنجادها يتخلّلون مدن وأطلال مدنياتهم القديمة ويوم يساورهم التوفيق ويحظون بنيل هذه الأمنية العزيزة، يومئذ يبدو لنا ماضي

العرب في أبهى صوره وأتمّ معانيه وينكشف الغموض عمّا أخرجوه إلى هذا العالم من فنون وصناعات وما كان لهم من التأثير في روح القوميات وما أحدثوه من النظم في مختلف الشرائع والآداب.

ونحن مهمًا تهيّبنا الغموض وتحاشينا التسرّع في إثبات هذه المعضلة أو نفيها ففي وسعنا أن نقول: «إن أقدم دين عرفه العرب بعد الطوطمية الأولى، إن صحّ أنهم عرفوها، هو دين عبادة الكواكب».

والسبب في عبادتها صحو وصفاء سماء بلادهم فإنها تسطع فيها الأنوار والنجوم، وتتألّق فيها الكواكب وينجلي سرّ العالم العلوي في العالم السفلي، وتأثيره يظهر في الإنبات والنموّ والنضوج من حرّ أو برد.

وأقرب دليل لدينا على قدم هذه العقيدة وجود الكعبة وهي أوّل هيكل عرف في بلاد العرب، شاده الأوّلون لعبادة «زحل» قبل أن يعرفوا عبادة الأصنام.

الصابئة

هي ديانة «عاذيموس» الأول. كانت في القديم من أعظم الأديان انتشارًا في العالم وكان منشأها في العراق وكعبتها: حران[1] وهي في الأصل

١) كانت مدينة عظيمة وهي قاعدة ديار مضر بينها وبين الرها مسيرة يوم للراكب وبين الرقة يومان وهي على طريق الموصل وحلب فتحت صلحًا في عهد عمر بن الخطاب عَلَى يد عبّاس بن غنم.

دين الكواكب السبعة والبروج الإثني عشر ، ولتلك الكواكب هياكل مخصوصة وهي المتعبّدات الكبار يصوّرون فيها تلك الكواكب ولهم زيادة على ذلك هيكل ثامن يسمّونه هيكل العلّة الأولى.

وهم خمس فرق : صابئة مشركة ، وصابئة حنفاء ، وصابئة فلاسفة ، وصابئة معتدلون ، وصابئة منكرون.

١. الصابئة المشركة

وهي أقدم فرق الصابئة ، يقولون : إن للعالم صانعا فاطرا حكيمًا مقدّسًا عن سمات الحدثان ، والبشر مفتقر إلى معرفته افتقارهم إلى طاعته وأوامره ومحتاج في ذلك إلى متوسّط يتقرب به إليه غير جسمَاني لأن الوسائط الجسمانية بشرية تنتابها الأعراض خاضعة لأحكام المادّة.

أما الوسائط الروحانيّة المقرّبة لديه فيجب أن تكون مقدّسة : جوهرًا ، وفعلاً ، وحالة. وتسمّى الوسائد أربابًا و«آلهة» و«وسائل» و«شفعاء» عند الله رب الأرباب وإله الآلهة.

تقديس الجوهر

خلوّه عن الحوادث الجسمانية وشوائب القوى المادية وتنزّهه عن الحركة المكانية والتغيّرات الزمانية مجبولاً على الطهارة مفطورًا على التقديس والتسبيح.

تقديس الفعل

تطهير النفس عن دنس الشهوات الطبيعية والاستمداد من الروحانيات بالدعوات والتضرعات والابتهالات وإيقام الصلاة وإيتاء الزكاة والصيام والقربان والذبائح والبخور وقراءة العزائم.

تقديس الحالة

تهذيب الأخلاق وصرفها عن التعلّق بالقوى الشهوانية والسبعية حتى يحصل الاتصال بين البشر وبين الروحانيات فتحدث فيهم قابلية واستعدادًا لتلقّي المدد الإلهي بلا واسطة.

الشعور بالروحانيات وعبادة السيارات السبع

لا يطرق النفوس الشعور بالروحانيات حتى تقصر توجّهاتها عليها وتتقرّب بأعيانها إليها وتتلقّي منها بذاوتها ولهذا عمد هذا الفريق من الصابئة واتّخذوا لها الهياكل والتماثيل وتقرّبوا إليها بأنواع القرب. فزع عبدة الكواكب إلى السيارات ، فتعرّفوا منازلها ومطالعها ومداراتها وتقسيم الأيام والليالي والساعات وتقدير الصّور والأشخاص والأقاليم والأمصار عليها ، فعملوا لها الخواتيم ، ووضعوا لها العزائم والدعوات وعيّنوا لعبادتها الأيّام والساعات. فتختموا بتلك الخواتيم وتزيّوا باللباس الخاصّ وأطلقوا البخور وترنّموا بالدعوات وجرى على منوالهم الدهماء.

ارتباط الروحانيات بالأجرام السماوية

يقولون إنّ لكلّ روحاني من الروحانيات العلوية جرمًا سماويًّا هو هيكله ، ونسبته إلى الروحانيّة المختصّة به نسبة أبداننا إلى أرواحنا ، فهو مدبّره والمتصرّف فيه وقالوا لا سبيل إلى الروحاني بعينه ، فأوجبوا التقرّب إلى هيكله بكل عبادة وقربان.

وقالوا عن الكواكب السبعة ؛ زحل ، والمشتري ، والمرّيخ ، والشمس ، والزهرة ، وعطارد ، والقمر ، هي قوة مدبّرة لهذا العالم تصدر أوامرها عن الملإ الأعلى ، فنصبوا لها الأصنام على صورتها وأقاموا لها الهياكل وعكفوا فيها على العبادة.

وقد استخرجوا من القرانات وسير الكواكب أحكامًا وخواصًا رتبوا عليها السحر والكهانة والتعزيم والتنجيم إلى آخر ما لديهم من ذلك ، ولم تزل له آثار باقية إلى هذا اليوم.

الفلسفة العربية في اتخاذ التماثيل

قالوا في فلسفة اتخاذ التماثيل : إذا كان ولا بدّ من متوسّط يتوسّل به ، وشفيع يرجع إليه ، والروحانيات وإن كانت هي الوسائل ، لكنّنا إذا لم نبصرها ، ولم نخاطبها ، لم يتحقّق التقرّب إليها إلّا بهياكلها ؛ وهي قد ترى في وقت ، ولا ترى في وقت ، لأن لها طلوعًا وأفولاً وظهورًا بالليل ، وخفاء بالنهار ، فليس يصفو لنا التقرّب بها والتوجّه إليها بل يجب أن ننصب لها تماثيل مشخّصة قائمة نصب أعيننا ، فنعكف عليها ونتوسّل بها إلى تلك الهياكل وهي تقرّبنا إلى الروحانيات والروحانيات توصّلنا إلى الله.

وكانوا يعتقدون في الأنواء اعتقاد المنجّمين في السيّارات ، فلا يتحرّكون ولا يسكنون ولا يقيمون إلا بنوء من الأنواء حتى أنهم ليقولون : مطرنا بنوء كذا وأصبنا بنوء كذا ، وأخفقنا بنوء كذا... الخ.

ومنهم من كان يعتقد بوجود الملائكة ، والجنّ ويقول عنها بنات الله.

تديّن العرب بالصابئة واتخاذها الهياكل

أثبت التاريخ أن أكثر العرب كانوا يدينون بالصابئة منذ القرون الأولى ، وقد اتّخذوا لها الهياكل وسمّوها البيوت وجعلوها معابد يقدّسونها ويدينون بها ، يدلّ على ذلك أنهم كانوا يسمّون أنفسهم عبيدًا لها كقولهم عبد شمس وعبد المشتري ونحو ذلك.

ولم تكن عبادتهم قاصرة على السيارات وحدها ، بل كانت شاملة لكثير من النجوم الثوابت وغيرها ، فقد كانت كل قبيلة مشهورة بعبادة نجم من

النجوم ، وكانوا يعتقدون أن الكواكب والنجوم والثوابت مأهولة بالسكّان ، وسكّانها خلائق متوسّطون في الرتبة بين الآلهة والناس.

فقد عبدت «جرهم» وبعض قبائل «لخم» زحل.

زحل: هو أكبر إلـه الحجاز؛ وهيكله مسدّس الشكل وكانت الكعبة (١) أوّل ما بني له من الهياكل في بلاد العرب قبل أن تصير معبدًا إلهيًا ، وكانت لها الرئاسة على بقية الهياكل.

الزهرة: عبد «الزهرة» سكّان بلاد اليمن واتّخذوا قصر غمدان هيكلاً لها ، بناه الضحّاك كما ذكره ياقوت على أربعة أوجه:

وجه أبيض ، ووجه أحمر ، ووجه أصفر ، ووجه أخضر ، وجعل داخله قصرًا مبنيًّا على سبعة سقوف وجعل مجلسًا في أعلاه من الرخام الملوّن. وكان سقفه رخامة واحدة ووضع على كلّ ركن من أركانه تمثال أسد كأعظم ما يكون.

وبقي هذا الهيكل قائمًا إلى خلافة عثمان ، فأمر بتخريبه لئلاّ يفتتن به العرب.

الشمس: وعبدت حمير قبل أن تتهوّد «الشمس» كما عبد آخرون من العرب؛ وهم يزعمون أنها ملك ، وهي أصل نور القمر.

ويقولون: إن كلّ الكواكب والموجودات السفلية منها ، لذلك استحقّت التعظيم ، والسجود؛ والدعاء؛ وأنواع العبادة ، وقد اتّخذوا لها هيكلاً مربّع الشكل وبداخله صنم بيده جوهر على لون النار ، ومن شرائعهم في

---

١) سمّيت بذلك لأنها كانت على شكل الكعب. وقبل التكعيب التربيع. وكل بناء مربّع كعبة. وقيل سمّيت بذلك لارتفاع بنائها. وكلّ بناء مرتفع فهو كعبة. ولا تعارض بين كونها كانت مسدّسة الشكل في الأصل ثم لما جدّدت في العصور الأولى جعلوها مربّعة الشكل.

العبادة أنهم كانوا يصلّون فيه ثلاث مرات في اليوم ويقصدها أصحاب العاهات فيصومون ويصلّون عندها ويدعون لها ويستشفون بها ، وإذا طلعت الشمس سجدوا لها وكذلك يفعلون إذا توسّطت الفلك وغربت.

القمر: اتّخذت كنانة القمر إلهًا لها وأقامت له صنمًا تعبده على صورة عجل بيده جوهرة ، وكانوا يعبدونه ويسجدون له أيامًا معدودة من كلّ شهر ويأتون إليه بالطعام والشراب والمفرّحات وكلّ ما يبعث على السرور ، فإذا أكلوا أخذوا يرقصون ويغنّون ويدقّون بين يديه بالمعازف.

الدبران: وعبدت ميسم ، أو ميتم «الدبران» وقالوا في سبب تسمية العيوق أنه عاق الدبران لما ساق الثريا مهرًا وهي نحو عشرين نجمًا فهو يتبعها أبدًا خاطبًا لها ولذلك سمّوا هذه النجوم «القلاص» وأقاموا لها هيكلاً.

الشعري العبور: وهي من نجوم الجوزاء وقالوا : إنّ أوّل من شرع في عبادتها «أبو كبشة»[1] و«حلزة» بن غالب جدّ «وهب» بن «عبد مناف» أبو «آمنة» أم الرسول (ﷺ) فدان بها بعض قبائل «لخم» و«خراعة» و«قريش» وكانوا يرسمونها في «السرطان» ويسمّى كلب الجبار وسمّيت العبور على ما حكاه رواة اللغة ضمن خرافات العرب أنها كانت و«الغميصاء» و«سهيلا» مجتمعة لذلك يقال للشعريين أختا سهيل فانحدر «سهيل» فصار يمانيًا وتبعة العبور فعبرت المجرّة وأقامت الغميصاء فبكت لفقد سهيل حتى غمصت[2].

والشعري العبور أشدّ ضياء من الغميصاء ، والغميصاء أشدّ ضياء من

---

١) يروى أن أبا كبشة أراد في القرن السادس للميلاد أن يحمل قريشًا على ترك عبادة الأوثان والأصنام ليعبدوا الشعري ، فلم يفلح.

٢) الغمص : النقص والضعف في العين.

نجوم الذراع المبسوطة وبينها وبين العبور المجرّة وهي تقطع السماء عرضًا دون بقية الكواكب.

المرزم: والمرزمان نجمان مع الشعريين. والرزم بمعنى الجمع، ورزم الشتاء رزمًا إذا برد، وبه سمّي نوء المرزم. وقيل إن أحد المرزمين يتبع الشعري العبور ويسمّونه «كفّ الكلب»، وقد عبدته بعض قبائل ربيعة واتّخذت له هيكلاً.

المشتري: وعبدت بعض «لخم» و«جذام» المشتري واتخذتا له هيكلاً.

سهيل: وهو كوكب يماني يرى بالعراق والحجاز وبقية بلاد العرب وفي خرافات العرب إن سهيلاً كان عشّارًا ظلومًا على طريق اليمن فمسخه الله كوكبًا.

عطارد: ويسمّى كوكب الكتاب، عبدته «وامد» و«أسد» واتخذتا له الهياكل.

هذا ما أردنا توضيحه من فلسفة وتقاليد وعقائد المشركين من صابئة العرب.

٢. الصابئة الحنفاء

وهؤلاء يرجعون في الدين إلى الاعتقاد بأن البشر محتاج في المعرفة والطاعة إلى متوسّط من جنس البشر تكون درجته في الطهارة والعصمة والتأييد والحكمة فوق الروحانيّات يماثلنا من حيث البشرية ويمتاز عنّا من حيث الروحانية، فيتلقّى الوحي بطرف الروحانية ويلقّنه الإنسان بطرف البشرية، وهذا هو الأصل التعلّمي في الأديان الإلهية التي تلقّاها البشر بواسطة الأنبياء والمرسلين ومدار مذهبهم التعصّب للبشر الجسمانيين والدعوة إلى العقائد الفطرية.

الطهارات العشر الفطرية

من تقاليد الحنفاء المداومة على الطهارات العشر الفطرية وهي : خمس في الرأس وخمس في الجسد. فأما التي في الرأس فالمضمضة والاستنشاق وقصّ الشارب والفرق والسواك ، وأما التي في الجسد : فالاستنجاء وتقليم الأظافر ونتف الإبط وحلق العانة والختان.

عبادات وشرائع الحنفاء

للحنفاء عبادات كثيرة منها سبع صلوات وهي صلاة الصبح والضحى والظهر والعصر والمغرب والعشاء والساعة السادسة من الليل. وتشتمل صلواتهم على النيّة والركوع والسجود ، ولا يجوز للمصلّي أن يخلطها بشيء من غير الصلاة. ويصلّون على الميت بلا ركوع ولا سجود ويصومون ثلاثين يومًا وان نقص الشهر الهلالي صاموا تسعًا وعشرين يومًا ويراعون في صومهم الفطر والهلال بحيث يكون الفطر وقد دخلت الشمس الحمل ويصومون من ربع الليل الأخير إلى غروب قرص الشمس ، ولهم أعياد عند نزول الكواكب الخمسة المتحيرة بيوت أشرافها وهي : زحل والمشتري والمرّيخ والزهرة وعطارد ويعظّمون بيت مكة ويفرضون الحجّ إليها.

ومن شرائعهم تحريم الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، ووطأ ذوات القربى من النساء ، وقطع يد السارق اليمنى.

سبب انقراض الحنفاء

يقولون : إن السبب في انقراض هذه الطائفة لواذ أصحابها إلى التمسّك ببعض العقائد الوثنية بسبّب التباس فهم الواسطة عليهم ، فرجعوا إلى عبادة الأوثان في صور شتّى غير الصور الأولى التي كانوا عليها.

٣. الصابئة الفلاسفة

هم طائفة كانوا لا يعتقدون بشريعة معينة ، ولا يلتزمون مذهبًا خاصًّا ، بل يؤمنون بروحانيّة الكواكب فقط ، ويأخذون محاسن ما دلّت عليه العقول سواء وافق الأديان أم لم يوافقها.

وهي تعرف الدين بأثره ؛ فإن أورث السلامة ، والرحمة ، والكفّ عن الأذى ، فهو الحقّ ، وإن أورث الشرّ والهلاك ، فهو الباطل.

٤. الصابئة المعتدلون

وهم الذين يسوّون بين الأديان ، ويقتبسون الفضائل ويلتزمون الحدود ، ويحرّمون المحرّمات ، ويؤمنون ببعض بشارات الأنبياء ، ويتشدّدون كثيرًا في الطهارات وهي طهارة البدن والثياب.

٥. الصابئة المنكرون

وهم الذين لا يدينون بشيء في هذا الكون وإنما يؤمنون بوجود الصانع الحكيم.

وثنيّة العرب

لا يبعد أن تكون وثنيّة العرب مشتقّة من الصابئة المشركة ، ما دام أصلها واحدًا ، وهو الاعتقاد بأن الروحانيّات آلهة ، والهياكل أرباب ، ومنها تولّدت فكرة تأليه الأشياء ، وعبادة الأصنام.

ولكن غير معلوم على التحقيق العهد الذي ظهرت فيه الوثنية في الحجاز ، وربّما كانت أقدم من الصابئة ، وحسبنا في ذلك الرجوع إلى النقل ، والاعتماد على ما يثبته المؤرخون ، وإن كان أكثره ضربًا من الفرض والتخمين ومن الصعب التعويل ، في تحقيق مباحث العلم والفلسفة التي ينبغي فيها النقد والتمحيص ، على النقول التي ليس لها مورد صحيح. لكننّا إذا رجعنا إلى القرائن وأخذنا بالنظائر والأشباه ممّا لدى الأمم الأخرى ورددنا كلّ شيء إلى القياس ، يمكننا أن نرجع أصنام العرب وآلهتهم إلى أصنام وآلهة قديمة كانت موجودة عند الأمم الوثنية المشهورة المجاورة لها كـ «المصرية» و«الفينيقية» و«الفارسية» و«الهندية» و«اليونانية» و«الرومانية» ، وهذا أقرب للواقع.

أما رأي مؤرّخي العرب فهو غير ممحّص ، لذلك لا يمكننا الاعتماد عليه ؛ وإنما نذكره كرأي يقال : فقد زعموا أن الوثنية انتشرت في بلاد العرب قبل المسيح (عليه السلام) بنحو ألفَي عام ، وعلّلوا وجودها بتعاليل كثيرة بعضها مقبول وأكثرها غير معقول.

تعليل وجود الوثنية في بلاد العرب

يمكن للباحث المستقرئ لتلك العلل أن يرجعها إلى بعضها ويحصرها في ثلاثة وجوه :

الوجه الأول: إن «ودا» و«سواعا» و«يغوث» و«يعوق» و«نسرا» كانوا في الأصل قومًا صالحين، ماتوا في شهر واحد، فجزع عليهم ذوو قرابتهم فقال رجل من بني (قابيل):

«يا قوم، هل لكم أن أعمل لكم خمسة أصنام على صورهم، غير أني لا أقدر أن أجعل فيها أرواحًا». قالوا: نعم، فنحت لهم خمسة أصنام على صورهم ونصبها لهم وقد عملت على عهد «يارد» بن «مهلايل» بن «قينان» بن «انوش» بن «شيث» بن «آدم».

فكان الرجل يأتي أخاه وعمّه وابن عمّه فيعظّمه ويسعى حوله ثم ذهب ذلك القرن الأول.

وجاء قرن آخر، فعظمّوهم أشدّ من تعظيم القرن الأوّل.

ثم جاء من بعدهم القرن الثالث فقالوا: ما عظّم أوّلونا هؤلاء إلا وهم يرجون شفاعتهم عند الله. فعبدوهم وعظّموا أمرهم. فبعث الله عليهم إدريس نبيًّا فدعاهم فكذّبوه فرفعه الله إليه مكانًا عليًّا.

ولم يزل أمرهم يشتدّ، حتى أدرك نوح فدعاهم إلى الله فعصوه وكذّبوه. فعلا الطوفان وطبق الأرض كلها. وكان بين آدم ونوح ٢٢٠٠ سنة فأهبط ماء الطوفان هذه الأصنام من جبل «نوذ» إلى الأرض. وجعل الماء يشتدّ جريه وعبابه من أرض إلى أرض حتى قذفها إلى أرض «جدة». ثم نضب الماء وبقيت على الشطّ، فهبّت الريح عليها حتى وارتها.

ثم ظهرت بعد ذلك فعظموا أمرها وعبدوها، ومن ذلك العهد شرعت بين العرب عبادة الأوثان.

الوجه الثاني: إنه بلغ من تعظيم العرب لمكّة[1] أنهم إذا أرادوا

---

١) اختلفت الروايات في أول من بناها، فمنهم من تعرف، وأثبت لها القدم وقال: بناها الإنسان الأول، وذكر قصة هبوط آدم من الجنة إلى سرنديب وتردده في أنحاء الأرض بين

الانصراف بعد الحجّ والاعتماد والطواف ، أخذ الرجل منهم حجرًا فنحته على صورة أصنام البيت فتحفى به في طريقه وجعله قبلة له يطوف حوله ويتمسّح به ويصلي له تشبيهًا له بتماثيل الكعبة. واستمرّوا على ذلك إلى أن أفضى بهم الأمر إلى أخذ الحجر الذي يستحسنونه ويضعونه في المكان الذي يريدون ثم يعبدونه. ومنهم من استبدله بالأصنام وبنى عليها الهياكل واتخذها مواطن للعبادة.

الوجه الثالث : إن عمرو بن ربيعة بن لحي بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدي أبو خزاعة وكانت أم عمرو بن لحي فهيرة بنت عمرو بن الحارث. ويقال قمعة بنت مضاض الجرهمي. وكان الحارث هو الذي يلي أمر الكعبة ، فلما بلغ عمرو بن لحي نازعه في الولاية وقاتل جرهما وبني اسماعيل فظفر بهم وأجلاهم عن الكعبة ونفاهم من بلاد مكّة وتولّى حجابة البيت بعدهم. ثم انه مرض مرضًا شديدًا فقيل له : ان بالبلقا من الشام حمة ان أتيتها برأت ، فأتاها فاستحمّ بها فبرأ. ووجد أهلها يعبدون الأصنام ، فقال : ما هذه؟ فقالوا

= فقدان زوجته ووجدان توبته حتى وافته حواء إلى جبل الرحمة من عرفات فتعارف بها وصار إلى مكة ودعا هناك وتضرّع أن يأذن له ببناء بيت يتخذه قبلة لصلاته ومحلاً لعبادته وطوافه فأنزل الله عليه مثال الكعبة في شكل سرادق من نور فوضعه مكان البيت.

وكان يتوجّه إليه ويطوف به. ولما حانت وفاته دعا بنيه وأوصاهم به من بعده فتولّى أمره أرشدهم وبناه من الحجر والطين على الشكل النوراني. وعند ظهور الخليل ورجوعه إلى مكة وملاقاته لابنه من هاجر اسماعيل أخذا يتعاونان على إعادة بنائها. ويذهب المحققون إلى أن أول من بناها قوم من العرب الأولين نزلوا من نجد إلى أرض الحجاز وأقاموا بها هيكلاً لعبادة «زحل».

وذكر المؤرّخون أنها كانت لقاحًا بفتح اللام لا تدين للملوك ولا يؤدي أهلها اتاوات لأحد. وما ملكها أحد قطّ ، يحجّ إليها ملوك العرب «حمير» و«كنده» و«غسّان» وغيرهم. وهم يدينون للحمّس من قريش وهم الذين يتصلّبون ويتشددون في دينهم.

نستسقي بها المطر ونستنصر بها على العدوّ ، فسألهم أن يعطوه منها ففعلوا فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة . وورد أن من جملة ما أعطوه إياه «هبل» وهو الذي دعا العرب إلى تعظيمه ولم يزل بهم يحبّب إليهم عبادة الأصنام حتى عبدوها .

والظاهر أنّ الوجه الأخير أقرب للمعقول من الوجهين الأولين وإن كان يدلّ على رسوخ الوثنية في بلاد العرب قبل وجود ابن لحي بعصور كثيرة ، إذ لا يعقل أن يستعير لهم آلهة من الأنباط دون أن تكون عبادتها شائعة من قبل عندهم .

أصنام العرب المشهورة

هبل

هو أكبر صنم عبده أهل مكة ، كان مصنوعًا من نحاس وقيل من عقيق أحمر ، على صورة رجل ضخم مكسور اليد اليمنى ، أدركته قريش كذلك ، فجعلوا له يدًا من ذهب . وكانوا يذبحون له ويستنجدونه في أسفارهم وحروبهم وسائر أعمالهم .

أما هذا الصنم فيلوح أنه في الأصل من آلهة «الفينيقيين» أو «الكنعانيين» ، ثم نقله عنهم العرب إلى مواطنهم ثم اقتبسه عنهم عمرو بن لحي ووضعه في جوف الكعبة ، ثم نقله خزيمة بن مدركة بن الياس ووضعه على الكعبة .

وأوضح دليل على أنّ «هبل» من آلهة «الفينيقيين» ؛ أن هذا اللفظ لا اشتقاق له من معناه في لغة العرب ، أي أنه غير مشتقّ من لفظ عربي فيه شيء من معناه. فهو دخيل كما يظهر. والأقرب كما ذهب إليه مؤرّخو الأديان أنه لفظ عبراني ، أصله «هبعل» وهو أكبر أصنام «الفينيقيين» أو «الكنعانيين» ومن جاورهم كـ «الموابيين» و«المديانيين». فقد كان للكنعانيين قديمًا آلهة كثيرة تعدّ بالعشرات كانوا يميّزون منها إلهين أحدهما ذكر والآخر أنثى ويسمّون الذكر «هبعل» والأنثى «عشتروت». معنى بعل عند الكلدانيين: السيّد ، والإله ، والربّ ، والهاء في العبرانية تقوم مقام (ال) في العربية ، فبإضافة هذه الأداة يقصدون الإله الأكبر. يؤيّد ذلك أن أساليب عبادة «هبل» عند العرب تشبه أساليب عبادة الموابيين «هبعل». فقد كان الموابيون ينصبون هذا الصنم على التلال المرتفعة ، أو سقوف البيوت ، ويذبحون له القرابين من الحيوان والآدميين ويحرقون له البخور ، ويستخيرونه في أعمالهم ويفضّلونه على بقية آلهتهم. وهكذا يفعل العرب بهبل وكذلك غيرهم من الأقوام الذين عبدوه مثل الفينيقيين والبابليين.

بعل في نظر الفينيقيين

كان الفينيقيون على دين الصابئة يعبدون النجوم وسائر الأجرام السماوية وكان «بعل» أكبر أصنامهم وهو «إله الشمس» و«عشتروت» آلهة الحسن. ويقولون: نجمتها السيّارة هي الزهرة ، أما ثالث الثلاثة عندهم فـ «تموز» وهو غلام جميل قالوا عنه قتل في الصيد عند نهر ابراهيم فبكوا عليه كثيرًا وسمّوا الشهر الذي قتل فيه باسمه ، ثم قالوا عنه تألّه بعد موته فأقاموا له تذكارًا سنويًّا في الشهر المذكور يبكون فيه على فراقه.

بعل في نظر البابليين

قال «بيرسوس» المؤرخ البابلي الذي كان كاهنًا لهيكل «بعل» في أيام «انتيوخوس» الثاني سنة (٢٦١) أو (٢٤٦) ق. م. في كتابه «تاريخ بابل» أو «تاريخ الكلدان» يصوّر حقيقة الإِلَه «بعل»: لما كانت الدنيا خالية خاوية وجدت فيها مخلوقات لها أجساد كبيرة ومختلفة عن الأجساد البشرية فأتى «بعل» إله النور والهواء وبدّل وجه الأرض وخلق الشمس والقمر والسيّارات الخمس وأمر الآلهة أن يجعلوا في الأرض سكّانًا فسكنها بعد المخلوقات المذكورين قوم برابرة إلى أن ظهر «اوانز» – يونس – وهو مخلوق أعلاه كجسد الإنسان وأسفله كجسد السمكة، ومن هذه الصورة أخذ الفلسطينيون إلههم «داجن». وكان خروجه من بحر الهند فأخذ يعلم سكان الأرض مبادئ النُظم والمعارف وبناء المدن والهياكل، واستمرّ ذلك سنة (٤٣٢) وفي هذه الأثناء ظهر ستة رجال نصفهم الأسفل كأسفل السمكة وعلّموا أهل الأرض العلوم التي تقررت عندهم في الكتب السبعة المقدّسة. ثم حكم الأرض من بعدهم ثلاثة آخرون، آخرهم الإله «بعل» وهو العاشر وهؤلاء هم الملوك الذين سبقوا عهد الطوفان وحكموا العالم المدّة المذكورة.

وقد حذّر «بعل» «كستورس» بأنه سيهلك كلّ العالم بالطوفان، ولذلك بنى فلكًا ودخله إلى أن انتهى الطوفان.

هذا هو بعل، وهذا هو نظر الأديان السامية فيه.

ود[1]: هو إله «كلب» نصب بدومة الجندل من وادي القرى نصبه

---

١) وصف مالك بن حارثة «ودا» فقال: كان تمثال رجل أعظم ما يكون من الرجال زير عليه حلتان مؤتزر بحلة مرتد بأخرى متقلد سيفًا متنكّب قوسًا بين يديه حربة فيها لواء وجعبة فيها نبال.

عوف بن عذرة بن زيد اللات وجعل ابنه عامرًا سادنًا له ولم يزل بنوه يتولّونه من بعده حتى جاء الإسلام فقوّضه.

وقد تسمّت به العرب فقالوا عبدود.

سواع : اسم لصنم أقيم في رهاط من أرض ينبع على صورة امرأة حسناء وضعه رجل من هذيل يقال له الحارث بن تميم وكان سدنته من بني لحيان ، عبده فريق من مضر.

والظاهر من اسمه أنه معبود هندي «سيوا» وهو أحد ثالوث الهنود الأقدس «براهما ، فيشنو ، سيوا».

يغوث : هو صنم عبدته قبائل مذحج وأهل جرش نصبه لهم أنعم بن عمرو المرادي وكان على صورة أسد.

يعوق : هو صنم على صورة فرس أقامه مالك بن مرشد بن جشم في قبيلة خيوان ، فعبدته همدان ومن والاها من اليمن قبل أن يدينوا باليهودية.

نسر : وهو صنم على صورة نسر اتّخذه معدي كرب من «ذي رعين» فأقامه بموضع من أهل سبا يقال له بلخع فعكفت حمير ومن والاّها على عبادته إلى أن هوّدهم ذو نواس.

ويظنّ بعض المؤرّخين أنه مقتبس من الشعار الروماني الذي يتخذه الرومان ، وقالوا إنه لم يكن في الأصل من آلهة العرب. وهذا غلط. والصحيح ما ذكرناه.

مناة : صنم «لهذيل وخزاعة» كانت قريش وجميع العرب تعظّمه وكان الحارث بن أبي شمر الغسّاني ملك غسّان أهدى إليه سيفين أحدهما يسمّى «مخذمًا» والآخر «رسوبا» وهما اللذان تغنّى بهما علقمة في شعره.

ويقول الباحثون في أصول اللغات السامية أن مناة صنم عبراني ، عبده

العبرانيون. ففي الإصحاح ٦٥ من سفر أشعيا عدد ١١ ذكر إلهين أحدهما «جاد» أو «جد» والآخر «مناة»، والغالب على ظنّهم أن اليهود نقلوه معهم حين الخروج من مصر. ولا يبعد أن يكونوا أخذوا عبادته عن المصريين، وهو أشبه ما يكون بأمون إله مصر العظيم، لكنّهم حرّفوه بسبب النقل.

اللات: اسم لصخرة مربّعة بالطائف كانت معظّمة عند قريش وجميع العرب وكانت تسمّى بها، فيقولون «زيد اللات» و«تيم اللات»، وموضعها بمكان منارة مسجد الطائف اليسرى اليوم؛ وكان سدنتها بنو عتاب بن مالك من ثقيف. ولمتأخري المؤرخين فيها رأيان الأول أن «اللات» مؤنث الله وهي اسم في الأصل لعشتروت المعبود الثاني «للأنباط»[١] واسم الأول «ذوشارة» وقد اتّخذوا لهذين الإلهين معابد فخمة منقورة في صخور بطرة وغيرها من مدائنهم. ثم اقتبسها عنهم العرب.

والثاني لفريق كبير من المؤرخين وهم يخالفون الرأي الأول وحجّتهم في ذلك ما ذكره «هيردوتس» الرحّالة اليوناني في القرن الخامس قبل الميلاد، فإنه قال في بحثه عن اللات: إن العرب كانوا يعبدون وثنًا اسمه «اليطة» وهو تمثال الزهرة؛ ويسمّيه الأشوريون «مليطة» ويظن «هيردوتس» أن الأشوريين نقلوه عن العرب. ولو عكس لأصاب، فان «لات» في اللغة الأشورية اسم للمرأة و«اللات» من الأصنام الأنثوية؛ وكانوا يصنعونها من حجر أسود.

---

١) يذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن الأنباط هم العمالقة الذين استولوا على مصر ويعرفون في تاريخها بملوك الرعاة.

أما دولة الأنباط فقد كانت مجهولة عند علماء العصور الأخيرة حتى اكتشفها البحّاثة الألماني «تيركان» في القرن الثامن عشر المسيحي. وكان اسكندر المكدوني حاول الوصول إلى عاصمتهم فأخفق بسبب وعورة الطريق واستولى عليها الرومان سنة ١٠٦ ب. م. وانتهبوا ما فيها من كنوز وأموال. وتقع مدينة بطرة بين خليج القصير والبحر الميت في منتصف الطريق، وقد كانت ملاحة البحر الأحمر للأنباط قبل الميلاد بعشرة قرون ودام استعمارهم لمصر نحو ٥٠٠ عام.

العزى : كانت أعظم الأصنام عند قريش وهي بواد من نخلة الشامية ، يقال له «حراض» ، بإزاء «الغمير» عن يمين «المصعد» إلى العراق من مكة. وذلك فوق ذات عرق إلى البستان بتسعة أميال اتخذها ظالم بن أسعد فبنى عليها بسا «يريد» بيتًا عبدتها «قريش وكنانه وغطفان». وكانوا يزورونها ويهدون لها ويتقرّبون عندها بالذبائح وكان سدنتها من بني شيبان بن جابر بن مرة.

ويذهب بعض المؤرّخين إلى أن «العزى» آلهة مصرية لما بينها وبين «إيزيس» من المشابهة اللفظية والمعنوية في أن كليهمَا امرأة ، ولعلّ العرب أخذوها من المصريين أثناء إقامتهم بمصر أيام الفراعنة.

أساف ونائلة : صنمان الأول على صورة رجل والثاني على صورة امرأة عبدتهما العرب ، ويذكرون في سبب عبادتهما أن أسافا بن يعلى الجرهمي تعشّق نائلة وهما من اليمن ، فأقبلا حاجّين ، ولما دخلا الكعبة وجدا غفلة من الناس فتغشاها فمسخا حجرين ووضعا عند الكعبة ليتّعظ بهما الناس ، فلما طال مكثهما وعبدت الأصنام عُبِدَا معهما. وكان أحدهما بلصق الكعبة ؛ والآخر في موضع «زمزم». فنقلت قريش الذي كان بلصق الكعبة إلى الآخر ، فكانوا ينحرون ويذبحون عندهما ؛ ويقال إنهما نقلا ووضعا فوق الصفا والمروة ، وقد عبدتهما قريش وخزاعة ومن حجّ البيت من العرب. وقد اقتبس عبادتهما عنهم اليونان وسموهما هرمس وافريديت وقالوا عنهما انهما مسخا حجرين.

المثلث الوثني عند العرب

يذهب بعض الباحثين إلى القول بأن اسافا ونائلة كانا وهبل مثلثا وثنيًا وكانت عبادة المثلثات الوثنية شائعة عند القدماء والغالب فيها أن تكون مؤلفة من رجل وامرأة وغلام. وأمثلة هذه المثلثات كثيرة عند قدماء المصريين والكلدانيين. فمن أمثلة مثلثات المصريين «أوزيريس» و«إيزيس» و«هورس». والذي يؤيد ذلك أن «أسافا» اسم عبراني ، مذكور في التوراة ومعناه الجامع ،

وربّمَا كان اسمًا لإله قديم عندهم. ونائلة اسم لإلهة أيضًا وجاء بها عمرو بن لحي مع «هبل» مثلثًا واحدًا لعبادتها تشبّها بالأمم الوثنية العظيمة.

عميانس: صنم بأرض خولان عبدته بطن من خولان يقال لهم الادوم يقسمون له من أنعامهم قسمًا بينه وبين الله عزّ وجل بزعمهم، فما دخل من حق الله في حق عميانس تركوه له وما دخل من حقّ عميانس في حقّ الله الذي سمّوه له ردّوه للصنم. ويسمّيه المصريون الإله عمون.

جديل: صنم كانت تعبده جديلة طيء فأخذته منهم بنو أسد فتبدلوا «اليعسوب» بعده.

الأقيصر: صنم في مشارف الشام كان «لقضاعة ولخم وجذام وعاملة وغطفان» فكانوا يحجّون ويحلّقون رؤوسهم عنده، فكان كلما حلّق رجل منهم رأسه ألقى مع كل شعرة قرة (قبضة) من دقيق فكانت «هوازن» تنتابهم في ذلك الابان. فإن أدركه قبل أن يلقى القرة مع الشعر قال: أعطنيه فإني من هوازن ضارع! فإن فاته أخذ ذلك الشعر بما فيه من القمل والدقيق فخبزه وأكله.

الطاغوت: قال الشعبي «الطاغوت» الشيطان وعن ابن عبّاس: الطاغوت «كعب بن الأشرف». وفي الحقيقة هو اسم محرّف عن «تيهوت» أو «طوت» وهو أحد آلهة المصريين المعروفين الذين نقلوا إلى بلاد العرب ثم تعرّب وقد عبدته قريش، وعن التاج الطاغوت وهو اللات والعزى والأصنام وكل ما عبد من دون الله. والشيطان والكاهن وكل رأس ضلال.

ويقال للصنم «طاغوت» وما يزين لهم أن يعبدوه من الأصنام هي «طاغية دوس، وخثعم» أي صنمهم ومعبودهم والطواغيت بيوت الأصنام.

تيم: وهو اسم صنم لقريش. ولا يستبعد أن يكون هو بعينه الإله «توم»

وهو من الآلهة المصريين المعروفين انتقلت عبادته من مصر إلى بلاد العرب.

سعد : هو وثن لـ «مالك» و«ملكان» ابني كنانة ، معروف بساحل جدّة وهو صخرة طويلة عبدته العرب. ونظن انه اسم للقرد الذي كان معبودًا في اليمن ومصر. ويسمّيه اليمانيون ربح وقدماء المصريين إينوبه واليونان أنوبيس.

ذو الشرى : صنم لبني الحرث بن يشكر بن مبشر من الأزد. وقد عبدته أيضًا الـ «أوس» والـ «خزرج». وكان في الأصل من آلهة الأنباط كما قدّمنا. وعنهم اقتبسه اليونان وسمّوه بخوس (إله الخمر).

باجر : صنم لـ «لازد» ومن جاورهم من «طيء» و«قضاعة».

ذو الكفين وآجر : صنمان لـ «دوس» ، ثم لبني «منهب» بن «دوس».

كثرة : وهو صنم قديم لـ «طسم» و«جديس».

الجهار : صنم لـ «هوازن».

أوال : صنم لـ «بكر» و«تغلب». وهو رمز للشمس. وقد اقتبسه اليونان عن العرب وحرفوه إلى هيلس. وبه سمّيت مدينة هيليبوليس (عين شمس).

عوض والمحرق : صنمان لـ «بكر بن وائل».

نهم : صنم لـ «مزينة».

عائم : صنم لازد (السراة).

سعيده : صنم لـ «عنزة». يجعلونه على صورة عنز.

عبدة مرحب : صنم لـ «حضرموت».

الضمارى : صنم لبني «سلحة» .

الفلس : صنم لـ «طيء» . ويسمّيه اليونان فلوس . وهومولوخ مالك إله النار عند الفينيقيين اقتبسه عنهم العرب .

الأصنام المشهورة

توجد أصنام كثيرة مبعثرة الأسماء بين موسوعات اللغة ، والأدب ، والتاريخ ؛ لكن لا يعرف من دان بها من العرب ، نذكر منها طائفة إتمامًا للفائدة وهي :

«العبعب» ، «الغبغب» ، «آزر» ، «جريش» ، «الشارق» ، «الكسعة» ، «مناف» ، «يليل» ، «المدان» ، «عوف» ، «الجوهر» ، «البعيم» ، «تهيم» ، «الضرن» ، «الجبهة» ، «صبحة» ، «رضاء» ، «ابرطيلات» ، «صخر» ، «صداء» ، «صمود» ، «دوار» ، «العائم» ، «الجبت» ، «البجه» .

أصنام الكعبة

وهناك أصنام أخرى بلغ عددها (٣٦٠) صنمًا ، حكى المؤرّخون أنها كانت لقريش في جوف الكعبة وذكروا من ضمنها صنمين قيل إنهما يمثّلان إبراهيم وإسماعيل[1] بأيديهما الأزلام قدامهما سبعة أقدح مكتوب في أولها «صريح» والآخر «ملصق» ، فإذا شكّوا في مولود أهدوا لهما هديّة ، ثم ضربوا

١) التحقيق أن القداح كانت أمام هبل كما يفعل ذلك البابليون والأشوريون . ولما نقل هبل إلى سطح الكعبة بقيت القداح بين يدي الأصنام الأخرى أمام مكان هبل .

بالقداح فإن خرج صريح ألحقوه وان خرج ملصق دفعوه ، وقدح على الميت وقدح على «النكاح» وقدح على «الأمر» ، وقدح على «النهي» ، وقدح على «المريض». فإذا اختصموا في أمر أو أرادوا سفرًا أو عملاً ، أتوه فاستقسموا بالقداح عنده. فما خرج عملوا به وانتهوا إليه.

طريقة اتخاذ العرب الأوثان

لم تكن الأصنام المتقدمة هي كلّ أصنام العرب بل هناك غيرها وهي كثيرة ، فقد كان لأهل كلّ دار من مكّة صنم يعبدونه. فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع في منزله أن يتمسّح به. وإذا قدم من سفره أوّل ما يصنع إذا دخل منزله مثل ذلك.

ومنهم من اتّخذ بيتًا لعبادة الأصنام ومنهم من اقتصر على اتّخاذ صنم ، ومن لم يقدر منهم على بناء البيت ولا اتخاذ الصنم نصب حجرًا أمام الحرم ممّا استحسن من حجارة الكعبة ثم طاف به كطوافه بالبيت. وهي التي يسمّونها بالأنصاب.

وكان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها فاتخذه ربًّا ، وجعل الباقي ثلاث أثافي لقدره وإذا ارتحل تركه فإذا نزل منزلا آخر فعل مثل ذلك ، فكانوا ينحرون ويذبحون عندها جميعًا.

وعن أبي رجاء العطاردي قال : كنا في الجاهلية نعبد الحجارة فإذا وجدنا حجرًا أحسن ممّا كان لدينا نستبدله به ، وإذا لم نجد حجرًا جمعنا حفنة من تراب ثم جئنا بغنم وحلبناها عليه وطفنا به. وكانوا يسمّون ذبايح الغنم التي يذبحون عند أصنامهم وأنصابهم العتائر (والعتيرة الذبيحة) والعتر الذبح الذي يذبحون فيه لها.

الكعبات

مهمَا كان من تشعّب الوثنية في العرب وتفنّن العرب فيها وفي مأخذها ، فقد كانوا مجمعين على تقديس الكعبة وتعظيمها ومنها كانوا يستمدّون السرّ والإلهام. وحاولت قبائل كثيرة أن تنافس الكعبة فبنت لها كعبات وأقامت لها السدنة والحجاب وطافوا فيها وأهدوا لها البدن فلم يفلحوا أبدًا.

ومن أشهرها :

بس : هيكل لغطفان. بناه ظالم بن أسعد لما رأى قريشًا يطوفون بالكعبة ويسعون بين الصفا والمروة ، فذرع البيت وأخذ حجرًا من الصفا وحجرًا من المروة. فرجع إلى قومه فبنى بيتًا على قدر البيت ؛ ووضع الحجرين فقال : هذان الصفا والمروة وأمران يجترأ به عن الحجّ. فبلغ ذلك زهير بن جناب الكلبي فقتل ظالمًا وهدم «الهيكل» الذي بناه.

سعيدة : اسم هيكل أقامته العرب في جبل أحد وكانت تحجّ إليه مثل الكعبة.

ذو الكعبات : بيت لربيعة كانوا يحجّون إليه ويطوفون حوله ويقيمون فيه الشعائر التي يقيمونها في الكعبة. وسمّته العرب : القصر ذو الشرفات من سنداد. وهي مكان في الظهر بين الكوفة والبصرة. وذهب ابن الكلبي إلى أن هذا البيت لم يكن بيت عبادة إنما كان منزلاً شريفًا. ثم أورد حكاية تدلّ على شدّة منافسة العرب لقريش في الكعبة ، قال : إن رجلاً من جهينة يقال له عبد الدار بن حديب قال لقومه : هلمّ نبني بيتًا بأرض الحوراء نضاهي به الكعبة ونعظّمه حتى نستميل به كثيرًا من العرب ، فلم يجيبوه إلى ما سأل. فعدل عنه مكرهًا.

ذو الخلصة : هيكل «تباله» على شكل مروة بيضاء نُقش عليها صورة تاج منحوت من حجارة برّاقة يقولون إنه كان من أصنام الجنّ. وهو على مسيرة سبع ليال من مكة من طريق اليمن ويسمّى الكعبة اليمانية وقد عبدته بنوليج من خزاعة وخثعم ودوس وبجيلة.

بيت الربة : وهو البيت الذي بنته ثقيف على وثن اللات في الطائف. قال في التاج كان لثقيف بيت يسمّونه الربة يضاهون به بيت الله ، فلما أسلموا هدمه المغيرة.

كعبة نجران : بيت أقامه عبد المسيح بن دارس بن عدي لبني الحرث بن كعب على صورة قبّة مصنوعة من جلد. كان العرب يحجّون إليه ويعظّمونه ويحملون إليه نذرهم. وزعم بعض المؤرّخين أنها لم تكن كعبة عبادة بل كانت غرفة لأولئك القوم وذهب إلى تأييد هذا الزعم ابن الكلبي فقال : إني لا أسمع بني الحارث تسمّوا بها في شعر ، والظاهر أنها أسّست للدعاية والتبشير بالنصرانية في نجران.

القليس : كنيسة بصنعاء بناها أبرهة الأشرم بالرخام وجيد الخشب المذهّب ليصرف بها العرب عن مكّة وكتب إلى ملك الحبشة : إني قد بنيت لك كنيسة لم يبنِ مثلها أحد قطّ. ولست تاركًا العرب حتّى أصرف حجّهم عن بيتهم الذي يحجّون إليه. فبلغ ذلك بعض نساة الشهور فبعث رجلين من قومه وأمرهما أن يخرجا حتى يحدثا فيها ففعلا فلما بلغه ذلك غضب وقال من اجترأ على هذا؟ فقيل : بعض أهل الكعبة فعزم على هدمها ، هذا في رواية ابن الكلبي. ويروي غيره أنه لما تمّ بناؤها قدم نفر من كنانة صنعاء فأوقدوا في

الليل نارًا بالقرب من القليس فأحرقتها فأقسم أبرهة الأشرم ليهدمنّ بها الكعبة. وبسبب ذلك كانت واقعة الفيل والرواية الثانية أقرب للصحّة.

* * *

هذا ما أمكننا جمعه وإثباته من المعلومات الصحيحة عن أديان وعقائد وآلهة وطقوس وتقاليد العرب في عصر الوثنية.

وقد كان العرب يلتمسون بين الأصنام والأوثان والحجارة عقائد تملأ نفوسهم يقينًا وقلوبهم إيمانًا يشعرانهم بجلال الخالق المعبود، فخانهم سوء الاختيار، لذلك كانوا في حيرة وشكّ من هذه العقائد التي انتحلوها فتوسّلوا إلى تحقيق هذه الأمنية الروحية والرغبات العالية باتخاذ أديان الأقوام المجاورة لهم والأمم التي حكمتهم، فانتحلوا أديان المصريين واليهود والمجوس واليونان والرومان والنصارى. ولاستيفاء البحث ينبغي لنا أن نستقرئ ما دخل من عقائد وتعاليم هذه الأديان إلى بلاد العرب وامتزج بأرواحهم وأفكارهم.

البَابُ الثّاني

الأديَانُ القديمَة

الفصل الأوّل

الدين عند قدماء المصريّين (1)

كان القدماء من المصريّين يبنون عقائدهم على توحيد الله. ولم يقيموا للإله الواحد تمثالاً وإنما عبدوه بالصمت الناتج من شدّة التوقير والاحترام. ولما تقادم العهد على هذه العقيدة مالوا إلى تشخيص صفات الله وأقاموا على زعمهم لكلّ واحدة منها تمثالاً ثم اتّخذوها فيمَا بعد آلهة وعبدوا كل واحدة منها عبادة إله مستقلّ. فقد زعموا: أن «بتاه» أو بتاح هو الإله الخالق و«عمون» هو العقل الإلهي المدبّر و«توم» هو روح الله و«خام» هو مصدر التوليد وأبو أبيه. والآلهة «اموت» الوالدة المولودة التي ولدت نفسها و«أزيريس» إله الخير و«إزيس» أو «إريس» امرأته و«تيفون» إله الشرّ. وهكذا صارت إليهم عبادة الأصنام والأجرام السماوية ولم يقتصروا عليها بل عبدوا أشخاصًا كثيرين من البشر وكذلك المخلوقات الأخرى كالنيل والحيوانات والدبابات ونحوها.

---

1) إن أوّل من اهتمّ من التونسيّين بالتاريخ القديم هو المرحوم البشير صفر. وقد تابع الشيخ عبد العزيز الثعالبي دروسه التي كان يلقيها في جمعية الخلدونية من سنة ١٨٩٧ إلى سنة ١٩٠٨، ثم جمعت بعد وفاته ونشرت في كتاب «مفتاح التاريخ» (تونس ١٩٢٨).

وكانوا يعتقدون: أن روح إله الخير المسمّى «أزيريس» توجد في عجل يسمّونه «إبيس» وقد جعلوه من أشهر معبوداتهم بعد أزيريس.

وزعموا أن «أزيريس» هو وينوبه بن «جوبيتير» تزوّج بامرأة تسمّى «ايوحين» فهاجرت به إلى مصر خوفًا عليه من «يونون» زوجة «جوبيتر». ومعنى أزيريس روح الدنيا، ومدبّر جميع الكائنات ويعنون به الشمس.

ثم حدث نزاع بين الآلهة. فزعموا: أن «تيفون» إله الشرّ قتل «أزيريس» إله الخير، ثم رجع أزيريس بعد موته وتغلّب على تيفون فنحتوا التماثيل لأزيريس وحفروا له قبورًا عديدة وضعوا فيها تمثاله مع امرأته.

وأما «إزيس» فهي القمر زوجة «ازيريس» وأما «هورس» فهو ولد أزيريس وإزيس.

وقد اختلف العلماء في أصل وضع «أونوبيس» فبعضهم يقول: هو رمز لعطارد. والبعض الآخر يقول: بل هو رمز لكوكب الشعري اليمانية. ويسمّيه المصريون «طوطاطيس» وهو «توت» إله الغاليين[1] قدماء الفرنساويين.

---

(١) Les Gaulois.

خرافات المصريّين

ومن خرافات المصريّين أن أونوبيس تحوّل إلى صورة كلب لإزيس ورافقها في أغلب أسفارها التي قضتها في البحث عن زوجها أزيريس بعد أن قتله تيفون إله الشرّ.

وأما «كانوب» فقد عبدوه وكانوا يمثّلونه في صورة إناء كبير عليه صورة امرأة وباز، وكان خدّامه أشدّ سحرًا وكهانة.

وأما إبيس فقد اضطربت فيه أقوال القدماء. فمنهم من زعم : أن المصريّين يرمزون به إلى شعاع الشمس، ومنهم من ذهب إلى أن السبب في عبادته على صورة ثور أنهم كانوا رأوا في مدينة «منفيس» ثورًا أسود في رأسه بعض النقط، فزعموا أنه إله بعثه إليهم أزيريس، فعبدوه. وهم يعتقدون أنه صورة من صور هذا الإله جاء يزورهم ويعتقدون أنه يكشف لهم عن المستقبل والغيب بحركاته : فقد جعلوا له قاعتين. فإذا دخل القاعة الغربية قالوا هذه السنة سنة خصب وإقبال وإذا دخل القاعة الشرقية قالوا بالعكس. ويعتقدون أن الأطفال الذين يسيرون أمامه في الاحتفالات العمومية يكتسبون روح النبوّة فيخبرون عن الأمور المستقبلة، وكان الذين يحبّون أن يسألوا عن أمر المستقبل يدخلون على العجل ويسألونه عمّا يرغبون فيه ثم يضعون أصابعهم في آذانهم إلى أن يخرجوا من مقامه. عند ذلك يخرجون أصابعهم فأوّل كلام يسمعونه ممّا يصادفونه يكون عندهم جوابًا على سؤالهم.

أما «افنيقا» فإن المصريين يعتقدونه خالق الدنيا وحده. فكانوا يصوّرونه على صورة شخص خارج من فيه بيضة والبيضة عندهم رمز للعالم.

ومن خرافات قدماء المصريين : زعمهم أن الآلهة هم أوّل من حكم

بلادهم ، وكان أوّلهم اسمه بركان حكمها تسعة آلاف سنة. ثم تلاه بقية الآلهة. وإن كوكب الشمس «أزيريس» وزوجته المسمّاة «إزيس» وأخاها «عطارد» المسمّى «هرمس» هم الآلهة الذين اخترعوا أصول الشرائع والعلوم والفنون. ويقولون: إن كل من اخترع جديدًا كان إلهًا حتّى من ألّف التصانيف المفيدة يكونون آلهة.

أما «هرمس» أي «ماركيوس» أي «عطارد» أخو «إزيس» فإنه كان علَمًا من أعلام المصريين ومنارًا لفلسفتهم. وقد دوّن لهم كتبًا مفيدة في الفلك والمساحة والقياس وقد كانت منزلتها من الكهنة منزلة الروح من فؤاد الجبان لشدّة حرصهم عليها وقد كادت تفقد لولا ظهور المعلم «سيفواس» و«ماركيوس» الملقّب بالمعلّم «ترستاجينو» فأعاد العلوم إلى النشاط الأوّل وروّج سوقها بين الناس فعادت تلك الكتب إلى الظهور والاشتهار.

تقديس الحيوانات

لم يقتصر المصريّون على عبادة وتقديس رموز الآلهة حتى دفعتهم أوهامهم إلى تقديس بعض الوحوش كالأسد والذئب والكلب والسنور والميمون والمعز والكبش ثم أفرطوا في هذا التقديس فكانوا إذا حصلت مجاعة أو أصابهم خوف أو ضيق أقدموا على ذبحها وأكلوها وشتموا الأصنام إن لم تنجحهم ، ومع ذلك فإنهم كانوا يعاقبون من يأكل حيوانًا مقدّسًا بالقتل.

ومن أعجب ما يحكى عن قدماء المصريين في هذا المعنى : أن «قبيز» ملك العجم لما قصد فتوح مصر أراد أن يحتلّ مدينة «بلوز» بغتة فوضع أمام جشيه صفًّا من الحيوانات المقدّسة عند المصريين فتهيّبوها وامتنعوا من الدفاع عن أنفسهم مخافة أن يصيبهم شيء من تلك الآلهة المعبودة. لم يقتصر المصريون على عبادة الحيوانات بل عبدوا الهوام وأدنى حشرات الأرض وكانوا يقربون في

أمكنة كثيرة ثورًا كاملاً لهذه الهوام الحقيرة.

وكان لهم آلهة أطبّاء يتقرّبون إليها بذبح الأحياء وقيل إنهم كانوا يأخذون لها هذه القرابين من الإسرائيليين ويحرقونها على مذبح عال ويذرون رمادهم في الهواء. ويعتقدون أنه تنزل مع كل ذرّة بركة ؛ ومن اعتقاداتهم ان الحيوانات المقدّسة تعرف البارّ من المذنب وترشد إلى السارق. وأن حفظ وصيّة الميت تكون سببًا في سعادتهم وقد نشأ عن ذلك اعتناؤهم بتصبير الأموات وتحنيطهم على وجه عجيب.

التثليث عند قدماء المصريين

ممّا لا ريب فيه أن المصريين كانوا يعبدون إلهًا مثلّث الأقانيم ، وقد وجد هذا المثلث في أقدم هياكلهم ، ويظنّ الباحثون أن الرمز الذي يصوّرونه به هو جناح طير ووكر أفعى. وأثبت العلاّمة «أدون» أن كهنة هيكل «مانفيس» بمصر كانوا يعبّرون عن الثالثون الأقدس في تعاليم الدين بقولهم : إن الأوّل خلق الثاني والثاني مع الأوّل خلق الثالث. وبذلك تم الثالوث المقدّس. وسأل «توليسو» ملك مصر «تنيشوكي» أن يخبره هل كان مثله أحد أعظم منه ، أو هل يكون بعده أعظم فأجاب الكاهن : نعم يوجد من أعظم وهو ابنه أوّلاً ثم الكلمة ومعها روح القدس. ولهؤلاء الثلاث طبيعة واحدة وهم واحد بالذات ، وعنهم صدرت القوة الأبدية. وممّا لا ريب فيه أن تسمية الأقنوم الثاني من الثالوث المقدّس هي في الأصل عقيدة مصرية قديمة.

لاهوت الكلمة وانبثاقها من الله

قال «بونيك» في كتابه المسمّى اعتقاد المصريين : أغرب عقيدة عمّ انتشارها في ديانة المصريين الوثنيين قولهم بلاهوت الكلمة وأن كلّ شيء صار

بواسطتها ، وإنها منبثقة من الله وإنها الله.

وقد عثر الباحثون في كتبهم الدينية المقدّسة على هذه الجملة التعليمية : إني أعلم بسرّ لاهوت الكلمة ، وهي كلمة ربّ كل شيء وهو الصانع لها فكلمة الأقنوم الأوّل بعد الإله ، وهو غير مخلوق وهو الحاكم المطلق على كافة المخلوقات. أما رمز الإيمان عند المصريّين وكلمته الجامعة فهو: الإله الواحد مثلّث الأسماء والأقانيم عامل الأشياء كلّها.

عقيدة الفداء والقتل والصلب

أما عقيدة الفداء والقتل والصلب عند المصريين فإنها قديمة جدًّا ، فقد أثبت السير «ديل نكسن» أن تألّم وموت أزيريس هما السرّ العظيم في تكوين ديانة المصريين وبعض آثار هذه العقيدة ظاهر في ديانة الأمم الأخرى.

فقد كان قدماء المصريين ينعتون «أزيريس» بالصالح الإلهي وجالب الفكرة الصالحة وذكروا أشياء كثيرة عن كيفية ظهوره على الأرض وموته وقيامه من بين الأموات. ويعدّونه أعظم مثال لتقديم الضحية ، ضحّى بنفسه وقدّم الذبح لينال الناس الحياة. وجاء في كتاب عقيدة المصريين لـ «بونيك» أن المصريين يعدّون «أزيريس» أحد مخلّصي الناس وأنه بسبب سعيه في عمل الصلاح وبمقاومته للخطايا يلاقي اضطهادًا. وجاء في كتاب الخرافات لـ «أموري» أن المصريّين يحترمون «أزيريس» ويعدّونه أعظم مثال لتقديم النفس ذبيحة لينال النّاس الحياة. وقد عثر المنقّبون على الآثار بإحدى الهياكل الخربة في الاسكندرية على صليب فوقه صورة الإله المخلّص المصري «سيرابيس». وكان «هدريان» يقول عنه في سنة مائة وثمان وثلاثين إنه كان إلهًا.

التقمّص والتناسخ عند المصريّين

لا بدّ لأقارب الميت من تعيين يوم ليذهبوا بالجثة المحنّطة إلى منزلها في اليوم الأخير. وأن أزيريس المقيم في أكانة (وهي السماء الموجودة خلف مغيب الشمس) لا بدّ أن يدين الميت بمساعدة ابنه وغيره قبل إدخاله في السعادة الأبدية وفنائه في علّة العلل وهي الإله الأول مصدر كلّ حي ومرجع كل صالح من الأحياء. فإن وجد سيئاته أكثر من حسناته طرده وأعاده إلى العالم الذي خرج منه بعد أن صرف حياة شريرة. ثم يسلّمه إلى من يرجع به إلى عالم الحيوانات غير الناطقة ليكفّر عن سيئاته بواسطة التقمّص والتنقّل من حيوان إلى حيوان ، وهكذا يستمرّ إلى أن يصل إلى أعلى درجة من المخلوقات وهي درجة الإنسان ، ويتطهّر من آثامه بحيث يصير أهلاً لأن يفنى في الله.

وقد استمرّت هذه الديانة متّبعة في مصر وانتقلت منها إلى بلاد العرب ودامت إلى أواسط القرن الخامس من الميلاد فتركها المصريّون واعتنقوا الديانة المسيحية.

الفصل الثاني

المجوسيّة

المجوسيّة : هي أقدم أديان الخليقة ، عمادها القول بعبادة الإله المثلّث الأقانيم. وهم : أورمزاد ، وميترات ، وأهرمن ، فالأوّل الخلاق ، الثاني ابن الإله ، والمخلّص ، والأوسط ، والثالث المهلك. وقالوا الأولان أزليان وهما بمعنى النور ، والثالث محدث وهو الظلمة.

واختلف علماء المجوس في المادّة التي حدثت منها الظلمة. فبعضهم قال : حادثة من النور. وذهب آخرون إلى إنكار ذلك. وقالوا : النور خير لا يحدث شرًّا ولو كان جزئيًا فكيف يحدث أصل الشرّ. وذهب فريق ثالث إلى القول بأنه حدث عن شيء. وذهب فريق رابع إلى أنه حدث لا عن شيء ، وقال آخرون انه كان مع الله شيء رديء ؛ أمّا فكرة وإمّا عفونة فخلق من الشيطان. وكانت الدنيا قبل وجوده سالمة من الشرور والآفات والفتن وأهلها في خير محض ونعيم خالص ، فلمّا وجد وجدت معه الفتن والآفات والشرور ولا خلاف بين أصحاب هذه المذاهب في أن واضع تعاليم هذا الدين هو «زروان الكبير».

رأي متكلّمي المجوس في الموضوع

ذهب المتكلّمون في عقائد الديانة المجوسية إلى القول بأن المادة التي خلق منها «الشيطان» أو «المهلك» هو: شكّ «أورمزاد». فإن من شكّه حدث «أهرمن». وقالوا في ذلك : إن «أورمزاد» مكث (٩٩٩٩) ليكون له ابن فلم يفلح ، ثم حدّث نفسه وقال : لعلّ هذا العالم ليس بجيّد ، فحصل من ذلك له همّ ، فخلق منه «أهرمن» وحدث من ذلك العلم «ميترات» فكانا جميعًا في بطن واحد وكان «ميترات» أقرب من محلّ الخروج فاحتال «أهرمن» فشقّ بطن أمه فخرج قبل أخيه. ولما مثل بين يدي «أورمزاد» رأى ما فيه من الخبث والشرّ والفساد أبغضه ولعنه وطرده فذهب واستولى على الدنيا.

أما «ميترات» فبقي زمنًا لا يد له على «أهرمن» حتى أبصره قوم ووجدوا فيه من الخير والشهامة والأخلاق المرضية والصلاح ما يجعله إلهًا فألّهوه وعبدوه وصاروا يدعونه «الكلمة» و«الفادي» و«المخلّص» وجعلوه وسيطًا بين الله والناس وقالوا عنه : المخلص الفادي الذي خلّص الناس وفداهم.

المذاهب المجوسية المشهورة

لم تبق الديانة المجوسية منحصرة في التعاليم الأولية التي وضعها لها «زروان الكبير» بل تفرّعت عنها آراء ومذاهب كثيرة أشهرها : (الزرادشتية ، الثانويّة ، المركونيّة ، التناسخيّة ، المزدكيّة) ، وهناك مذاهب أخرى متفرّعة عنها. ضربنا عن ذكرها صفحًا لأنها لم تعرف في بلاد العرب.

ويذهب المؤرّخون في تعليل تسمية أتباع هذا الدين بالمجوس إلى حكاية القصة التالية :

إن زامرداس أخطأ في سنة ٥٦٠ ق. م. إلى «كورش» ملك فارس فعاقبه بصلم أذنيه . ثم بعد وفاة «كورش» تولّى زامرداس السلطنة مدة ثمانية أشهر عندما كان ولي العهد «احتشيويروش» ابن «كورش» غائبًا في مصر ، والسبب في ذلك أنه كان لـ «كورش» ابن ثان يقال له «زامرداس» قتل سرًّا وكان يشبه سميّه في الصورة فغشّ الشعب وملك باسمه على أنه هو ، ولما ظهر للناس كذبه قتلوه وقتلوا كثيرين من أنصاره . وكان ذلك سببًا في وقوع إهانة عظيمة على المذهب وأطلقوا على أصحابه اسم المجوس إشارة إلى عيب «زامرداس» وهو فقد أذنيه .

ولكن نظرًا لكثرة معارف الكهنة من هذا المذهب تحوّلت هذه الكلمة عن معناها الحقيقي وصارت مرادفة لكلمة «فلاسفة وعلماء» ثم صارت مع توالي الزمن علمًا بالغلبة على أصحاب هذا الدين ولم يعد أحد يعرفهم بغيره .

١. الزراديشتية

هم أصحاب «زرادشت»[١] ابن «ابيورشت» الحكيم الذي توفي سنة ٤٨٧ ق. م. وهو الذي تولّى ضبط وإصلاح تعاليم الديانة المجوسية . ويلقّبه الزرادشتيون بـ «المرسل الإلهي» ويقولون عنه أرسل لـ «يخلّص الناس» من الطرق الشريرة وينعتونه بـ «الحيّ المبارك» وبـ «المولود البكر» وبـ «الواحد الأيدي» .

---

١) زارادشت : ويسمّيه الإفرنج «زوروواستر» (ZOROASTRE).

وقالوا عنه لما ولد ظهر نور أضاء الغرفة التي ولد فيها ، وإنه ضحك على أمه ، حين ولادته ويعرفونه بالنور الشعشعاني البارز من شجرة المعرفة الذي علق على شجره.

ومبنى عقائد هذا المذهب : عبادة الله والكفر بالشيطان ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، واجتناب الخبائث كلها الظاهرة والباطنة ، واعتبار النور والظلمة أصلين متضادّين وهما «أورمزاد» أو «يزدان» و«أهرمن» ، وقد ذهب جمهور «الزرادشتيين» إلى أنهما متماثلان في الأزليّة والقوّة ، فالمصلّون مثلاً يطلبون الخير من «أورمزاد». ويطلبون الشرّ للأعداء من «أهرمن» وكانوا لشدّة بغضهم إياه يضعون اسمه مقلوبًا «نمرها» ويقولون إن الموجودات كلّها بدأت منهما ، ومن امتزاجهما حصلت التراكيب. ومن التراكيب وجدت الصور المختلفة. والباري تعالى خالق النور والظلمة ومبدعهما ، وهو واحد لا شريك له ولا ضدّ ولا ندّ.

كتاب زرادشت وتعاليمه

ألف الحكيم «زرادشت» كتابه المسمّى «ويستا» في اللغة البستانية القديمة ضمن فيه الإلهامات الربّانية ، والكلمات الروحانية والمباحث الفلسفية ، والشرائع ، والنواميس الدينية ، والنصوص والرموز والمحكم والمتشابه ، والقوانين المدنية ، وعلوم الهيئة والطبيعيات ، والرياضيات والتاريخ ، والقصص.

وقد قسّم العالم في كتابه إلى قسمين : روحاني ، وجسماني ، والخلائق إلى عالمين ، أوّلي وأخروي ، وقسّم الأوّلي إلى قسمين : «تقدير» و«فعل». ويقول إن كل واحد منهما مقدّر على الثاني وجعل موارد التكليف المتعلّقة بالفعل على ثلاثة أمور وهي «الاعتقاد» و«القول» و«الفعل» واعتبروا التقصير فيها خروجًا عن الدين.

الإله وأفعال العباد واليوم الآخر

لزرادشت : عقائد أصولية في هذه المسائل الثلاث أجملها في الكلمة الآتية : الإله الأزلي واحد خلق ملكين : ملك النور ، وملك الظلام ، وكل الشرور الموجودة في العالم صادرة عن طبيعة المخلوقات اللازمة لها كالظلّ اللازم للأجسام وهي لا تنقطع ولا تزول حتى ينتهي العالم ، وتقوم الأموات ويدان كل مخلوق بما كسبت يداه ويذهب ملك الظلمة وأتباعه إلى مكان ظلمة وعذاب أبديّ ويمضي ملك النور وأتباعه إلى مكان نور وسعادة حيث لا ينالهم شرّ إلى الأبد.

متعبدات المجوس قبل ظهور زرادشت

لم يكن للمجوس قبل ظهور «زرادشت» هياكل ولا متعبدات خاصّة بل كانوا يسجدون للشمس والنار على التلال أو بين الأشجار ، وتحت السماء ، ويزعمون في سجودهم للشمس أنها مسكن الله. وأما للنار فلمشابهتها للشمس في الحرارة والنور.

واتخذ «زرادشت» الهياكل وأمر ببنائها وتشييدها وعلّل ذلك بعدم الامتناع من العبادة والتعلّل بمزاج الفلك باختلاف الفصول.

واتخذ المشرق قبلة له في صلواته وجعل الصلاة في ثلاثة أوقات : وقت الشروق ، ووقت الزوال ووقت الغروب.

وجدّد للشعب بيوت النيران التي أخمدها «منوشهر» من قبل.

صعود زرادشت إلى السماء وإتيانه بالنار المقدسة

يعتقد «الزرادشتيون» أن «زرادشت» صعد إلى سماء الباري في سحابة لامعة وسمع صوته. ولما عاد من السماء حمل معه قبسًا من النار الموجودة هناك وهي النار المقدّسة التي لا يزال «الزرادشتيون» يحافظون عليها وهي ما زالت

مشتعلة في مذابحهم لا تنطفئ أبدًا. وقد حتّم «زرادشت» وجودها أمامهم عند السجود للشمس حين شروقها. ويعني «الزرادشتيون» بحفظها ليلاً نهارًا بكلّ حرص، ولا يجيزون للكهنة أن ينفخوها بأفواههم فإن فعل ذلك أحد وجب قتله وحجّروا على الكهنة الاقتراب من المذبح بدون وضع برقع على وجوههم لئلا يفسدوا النار بأنفاسهم. ومنع إشعالها بمروحة. وأوجبوا أن يكون وقودها الحطب النظيف المقشور وإن هي انطفأت يفرض إيقادها من نار هيكل آخر مقدّس لا من النار الاعتيادية.

وللأفراح «الزرادشتية» عيدان : وهما النوروز : ومعناه اليوم الجديد وهو يكون في الاعتدال الربيعي والمهرجان : ومعناه الخريف وهو يكون في الاعتدال الخريفي.

حياة «زرادشت»

ترجم علماء الفرس القدماء لـ «زرادشت» وأجمعوا على احترامه وتقديره. فقد قالوا : زرادشت : هو سليل بيت ملوك «منوشهروان» ، جاء للناس بكتاب ادّعى أنه أوحي به إليه من عند الله. وقام يدعو الملك «كيستاسف» وكان يومئذ بـ «بلخ» الى الإيمان برسالته فقبلها وأخذ منه الكتاب ووضعه في هيكل عظيم في مدينة «اصطخر» وكانت عاصمة الملك ووكل «الهرامزة» بالمحافظة عليه وحجّر على العامة تلقّي تعاليمه مباشرة لأنها ممّا لا تحتمله عقولهم. وقد نشره باللغة البستانية علماء الدين «مويذومويذان» وسموا شرحهم «الزند» وهو يدخل في (٢١) مجلّدًا وقيل أكثر من ذلك.

ثم تلاهم علماء آخرون ووضعوا شروحًا وافية أسموها «وستا» كانت كلها محفوظة في مكتبة «اصطخر».

إحراق اسكندر المقدوني مكتبة اصطخر العلمية الثمينة

كانت مدينة «اصطخر»[1] من أهم المراكز العلمية في فارس القديمة وقد اجتمعت في مكتبتها أنفس ما دبّجته أقلام الكاتبين وقد كانت من أهمّ موارد الفنون التي يحجّ الطلاب إليها من كل صوب إلى أن تغلّب عليها «إسكندر المقدوني» أيام «داريوس» الثالث سنة ٣٣١ ق . م . ودخل عاصمة فارس مكلّلاً بالفوز والظفر فأمر جنوده بإحراق المدينة وما فيها من الخزائن فاحترقت برمّتها ولم يستطع أحد أن ينقذ منها شيئًا فأضاع بسبب هذه الغطرسة أعظم كنوز فارس ومواهبها العلمية والأدبية والفنية وهي جريمة لا يتسامح فيها التاريخ مع الإسكندر.

التنقيب عن الوستا وشرح تعاليمه

لما حكم الساسانيون بلاد فارس وأدركوا شدّة حاجتهم إلى التعاليم الدينية التي منها تتكوّن روحية الشعب أخذوا ينقّبون على كتاب الـ «وستا» وشرحه القديم «الزند» فنقّبوا عنها في أنحاء البلاد حتى عثروا على جزء واحد وبعض الجزء من «وستا» . وعلى إثر ذلك عقدوا مجمعًا علميًّا عهدوا إليه شرح ما عثروا عليه . فوضعوا لذلك كتابًا ضافيًا في اللغة البستانية وهو المسمّى «بارنشد» . ولما فرغ العلماء من عملهم رأى ملوك فارس أن لغة الشرح غامضة يصعب فهمها على العامّة . فعهدوا إلى العلماء وضع شرح واف في اللغة «البهلويّة» التي كانت شائعة إذ ذاك فوضعوا كتاب «دساتير» وهو الباقي إلى هذا العهد وعليه عمدة المتأخرين من «الزرادشتيين» في الدين .

---

١) مدينة اصطخر: يسمّيها الإفرنج «فرسيبوليس» (Persépolis).

ويقول الواقفون على كتاب الـ «وستا» إن مضامينه مطابقة تمام المطابقة في المعنى والتأويل والتفسير لما ورد في نصوص الكتب الإلهية المقدّسة : التوراة والإنجيل والفرقان.

انتحال العرب لهذا الدين

مرّت المجوسية وما تفرّع عنها من المذاهب من فارس إلى بلاد العرب بتأثير الاحتكاك والاختلاط بين الفرس الغالبين والعرب المغلوبين على أمرهم. فقد استولت فارس على بلاد الحيرة وما جاورها ووضعوا حكّامها اللخميين من آل نصر تحت حمايتهم. واستمرّت هذه الحماية مدة ٣٦٤ سنة أي من سنة ٢٦٨ ب. م. إلى سنة ٦٣٢ حيث زالت نهائيًا على يد فاتح العراق خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه.

ظهرت المجوسيّة أوّلاً في الحيرة ثم انتقلت منها إلى غيرها لكنها لم ترسخ إلا في بني تميم. أما طريقة العرب في ممارسة طقوسها فقد كانت مشاكلة لبداوتهم، فإنهم كانوا يحفرون الأخاديد ويوقدون فيها النيران ويطوفون بها، ثم يحلقون حولها خاشعين عاكفين.

انقراض الزرادشتية

انقرضت الزرادشتية بظهور الإسلام. وزال كيانها السياسي من العالم لأنها لم تستطع الثبات على مقارعة الإسلام وردّ حججه القاطعة وبراهينه الساطعة فتلاشت أمامه ليس في بلاد العرب فحسب بل وفي فارس أيضًا، بحيث لم يبق من يدين بها اليوم سوى طائفة قليل عددها موزّعة بين فارس والهند. أما التي في فارس فإنها تقيم في ناحية «يزد» جنوب «خراسان». لهم هيكل هناك على رأس جبل يحفظون فيه النار المقدّسة وهم لا يزيدون عن أربع مائة عائلة. أما التي في الهند فقد ارتحلت من فارس قبل ألف سنة وهي من

أرقى وأعلم طوائف الهند وأكثرها مسابقة ومُزاحمة على موارد الحياة في مواطن كثيرة من الهند وأكثر الأشغال المهمّة بأيديهم وهم أغنى العناصر الهندية على الإطلاق. وهم ما زالوا يحافظون بشدّة على عبادة النار وخاصة الشمس، وقد رأينا هياكلهم وعرفنا البعض من كهّانهم وزرنا مقابرهم.

دفن الموتى عند الزرادشتيين

يبني الزرادشتيون مقابرهم على ترتيب موافق لاعتقادهم، فإنهم يضعون أجسام الموتى على سطح برج عال مدوّر وهذا السطح مبلّط وفي وسطه بئر عميقة. وعندما يموت أحد يضعون رمّته على لوح من الحجر عريانة مكشوفة للشمس والألواح الحجرية موضوعة على ثلاثة صفوف. الصف الخارجي منها للرجال والمتوسط للنساء والداخلي للأولاد.

وتبقى تلك الرمم تحت حرارة الشمس، وهطل الأمطار إلى أن تأكلها الجوارح من الطير ولا يبقى إلا العظام فيطرحونها حينئذ في تلك البئر. وفي عقائدهم أن نور الشمس وحرارتها يطهّران هذه الأجسام من دنس الخطيئة فتدخل النعيم مطهرة مقدسة.

٢. الثانوية أو المثنوية

وهي مذهب الاثنين الأزليين المتفرعة من المجوسية.

يقول أصحابه بوجود إلهين أصليين قديمين مدبّرين. يقتسمان الخير والشرّ والصلاح والفساد يسمّون أحدهما «يزدان» (النور) والثاني «أهرمن» (الظلمة).

وعقائدهم دائرة على محورين. الأول سبب امتزاج النور بالظلمة مع تباينهما وهي المبدأ والثاني أسباب خلاص النور من الظلمة وهي المعاد.

٣. الفرقونية

وهي فرقة قائلة بالأصلين الذين قالت بهما المثنوية وزادت عليهما القول بأن الشرّ خرج على أبيه وانه كان في السماء فاحتال حتى حرقها. ونزل إلى الأرض بجنوده فانهزم النور بملائكته واتّبعه الشيطان إلى الربّ فحاصره في جنّته وحاربه ثلاث آلاف سنة لا يصل فيها إليه ولما عجز عنه الربّ وقع الصلح بينهما على يد «الندمات» أي الملائكة.

أما صفة هذا الصلح ، فهو: أن يكون الشيطان وجنوده في قرار الضوء مدة تسعة آلاف سنة منها الثلاثة آلاف سنة التي قضاها في الحرب ثم يعود إلى موضعه الأول.

ورأى الربّ أنّ الصلاح في احتمال المكروه من الشيطان وجنوده ألا ينقص الشرّ قبل انقضاء مدّة الصلح فالناس في البلايا والفتوق والخزي والمحن الى انقضاء المدة ثم يعودون إلى النعيم الأول وينقطعون عن الشرّ.

٤. التناسخية

هم فرع من المجوسية ينكرون الشرائع والنبوّات ولا يرون التحكيم العقلي ويقولون إن الأرواح العلوية هي التي تفيض الفضائل والمكارم على هذا العالم.

منشأ القول بتناسخ الأوراح

يذهب التناسخية في عقائدهم إلى القول بتناسخ الأرواح ، والاعتقاد بانتقالها على التعاقب من شخص إلى شخص آخر وإن كلّ ما يلقاه المخلوق من الراحة والتّعب والنصب والسكون فترّتب على ما أسلفه من قبل وهو في بدن آخر جزاء على ذلك. وهو أبدًا بين أمرين إمّا في فعل ، وإمّا في جزاء عن فعل.

الجزاء عن الأعمال

يقول التناسخية إن ما يكون في الإنسان لا يخرج عن أحد أمرين إمّا عمل ينتظر الجزاء عليه، وإما مكافأة على عمل قدّمه. والجنّة والنار هما حالتان موجودتان في نفس الإنسان فإذا تغلّبت أحداهما على الأخرى كان جزاءً وفاقًا له. وأعلى عليّين في مراتب النفس، هي: الفناء في الألوهية «النيرفانه» وأسفل السافلين هو: النزول إلى طبقات الشياطين ودرك الحية.

شيوع عقائد التناسخية بين القدماء

أما الاعتقاد بالتناسخ فقد كان شائعًا بين القدماء، وهو مذهب الجمهور من الوثنيّين. غرف من ديانات المصريين القدماء والهنود، والصينيين والغربيين والعرب.

أما قدماء المصريّين فقد كانوا يعتقدون أن الروح بعد مغادرتها للجسد تسافر ثلاثة آلاف سنة قبل أن تصل إلى مقرّها الأخير ثم اقتبسته عنهم بقية الأمم الوثنية الأخرى.

وأما التناسخ فهو شعار الديانة الهندوسية المعروفة لهذا العهد ومن لم يعتقد بذلك لا يكون عندهم مؤمنًا حقًّا.

التناسخ عند الهندوس

يثبت البراهمة من الهندوس الإيمان بالتناسخ بقولهم:

إن النفس إذا لم تكن عاقلة لم تحط بالمطلوب إحاطة كلية دفعة واحدة بلا زمان واحتاجت إلى تتبّع الجزئيات واستقراء الممكنات. وهي وإن كانت متناهية فلعددها المتناهي كثرة والإتيان على الكثرة مضطرّ إلى إرادة ذات فسحة ولهذا لا يحصل العلم للنفس إلا بمشاهدة الأشخاص والأنواع وما يتناولها من الأفعال والأحوال حتى يحصل لها في كل واحد تجربة وتستفيد بها جديد

معرفة ، ولكن الأفعال مختلفة بسبب القوى وليس العالم بمعطّل عن التدبير. فالأرواح الباقية تتردّد لذلك في الأبدان البالية بحسب افتنان الأفعال إلى الخير والشر والمكروه فتبالغ في التباعد عنه ويصير التردّد من الأرذل إلى الأفضل دون عكسه لأنه يحتمل كليهما. ويقتضي اختلاف المراتب فيهما الاختلاف الأفاعيل بتباين الأمزجة ومقادير الازدواجات في الكمية والكيفية إلى أن يحصل من كلا (النفس والمادة) كمال العرض.

أما من جهة السفل ، ففناء ما عند المادة من الصور إلا الإعادة المرغوب عنها.

وأما من جهة العلوّ فذهاب شوق النفس لعلمها ما لم تعلم واستيقان شرف ذاتها وقوامها لا بغيرها واستغناؤها لا عن المادة بعد إحاطتها بخساستها وعدم البقاء في صورها والمحصول في محسوسها والخبر في ملاذها فتعرض عنها وينحلّ الرباط وينفصم الاتصال وتقع الفرقة والانفصال والعود إلى المعدن فائزة في سعادة العلم ويتّحد العاقل ، والمعقول ، والعقل ، ويصيروا شيئًا واحدًا.

وقال «باسديو» أحد أئمة البراهمة إذا تجردت النفس عن المادة كانت عالمة فإذا تلبّست بها كانت بقذورتها جاهلة وظنت أنها الفاعلة وأن أعمال الدنيا معدّة لأجلها فتمسّكت بها وانطبعت المحسوسات فيها ، فإذا فارقت البدن كانت آثار المحسوسات فيها باقية فلم تنفصل عنها بالتمام وحنت إليها. وقبولها التعابير المتضادة في تلك الأحوال يلزمها لوازم القوى.

وقال أيضًا أفضل الناس هو العالم الكامل لأنه يحبّ الله ويحبّه ولم يتكرّر عليه الموت والولادة وهو في مدد عمره مواظب على طلب الكمال حتى ناله. وجاء في كتاب «بانجن» أن مثال النفس فيما بين علائق الجهل التي هي دواعي الرباط كالأرز ضمن القشر فإنه ما دام معه كان معدًا للنبات

والاستحصاد متردداً بين التولّد والإيلاد فإذا أزيل القشر عنه انقطعت تلك الحوادث عنه وصار له البقاء على حاله.

وأما المكافأة فوجودها في أجناس الموجودات التي يتردّد النفس فيها بمقدار العمر في الطول والقصر وبصورة النعمة في الضيق والسعة. سأل سائل كيف يكون حال الروح إذا حصلت بين الأجور والآثام ثم اشتبكت بجنس المواليد للأنعام والانتقام.

فأجيب بأنها تتردّد بحسب ما قدّمت واجترحت فيما بين راحة وشدّة وتصرّف بين ألم ولذّة.

وسأل أيضاً: إذا اكتسب الإنسان ما يوجب المكافأة في قالب غير قالب الاكتساب فقد بعد العهد فيما بين الجهادين ونسي الأمر.

فأجيب بأن العمل ملازم للروح لأنه كسبها والجسد آلة لها ولا نسيان في الأشياء النفسية فإنها خارجة عن الزمان الذي يقتضي القرب والبعد في المدّة. والعمل بملازمة الروح يحيل خلقها وطباعها إلى مثل الحال التي تنتقل إليها. فالنفس بصفاتها عالمة ذلك متذكّرة له غير ناسية وانما تغطي نورها بكدورة البدن إذا اجتمعت معه على مثال الإنسان المتذكّر شيئاً عرفه ثم نسيه بجنون أصابه أو علّة اعترته أو سكر ران على قلبه، أما ترى الصبيان والأحداث يرتاحون للدعاء لهم بطول البقاء ويحزنون بالدعاء عليهم بعاجل الفناء، وماذا عليهم لولا أنهم ذاقوا حلاوة الحياة وعرفوا مرارة الوفاة في مواضي الأدوار التي تناسخوا فيها لوجود المكافأة.

٥. المزدكية

وهي مذهب الفيلسوف «مزدك» الذي ظهر في فارس على عهد الملك «كيقباذ» «فيروز» والد الملك «أنو شروان» فتبعه الملك وألزم الناس باتّباعه وجعله مذهباً للدولة وحاول أن يحمل رعاياه من العرب عليه. فقد كتب

بذلك إلى «المنذر» بن «ماء السماء» يدعوه هو وقومه إلى اعتناق هذا المذهب ولما امتنع ونقل خبره إلى «كيقباذ» عزله عن «الحيرة» وولّى مكانه «الحارث» بن «عمرو» بن «حجو الكندي» ، جدّ «امرئ القيس» وكان حاكمًا على «بكر» بن «وائل» فأجاب دعوته وحمل من لنظره من العرب على «المزدكية» وبسبب ذلك انتشرت في البلاد العربية انتشارًا محسوسًا مع أنها لم تستقم طويلاً ، فإنه بمجرد مهلك «كيقباذ» تولّى مكانه «كسرى» ، وكان شديد الكراهية لهذا المذهب وأهله ، ويرى في انتشاره خطبًا على الدولة ، فأصدر أمرًا بقتل «مزدك» وكلّ من كان مساعدًا له ، وعزل الحارث عن «الحيرة» وأعاد «المنذر» في قصّة يطول شرحها.

عقائد المزدكية

أما عقائد «المزدكية» فإنها ذهبت في الكونين (النور ، والظلمة) ، أو (الخير ، والشر) مذهب «المثنوية» إلا أن «مزدك» كان يقول : إن النور يفعل بالقصد والاختيار ، والظلمة تفعل على الخبط والخلط ، والصدفة والاتفاق وعنده النور عالم حسّاس ، والظلام جاهل أعمى.

ومن مبادئه العملية منع الخلاف بين الناس والقتال والمباغضة.

فلسفة مزدك

يبني «مزدك» فلسفته على عدم الرغبة في الأموال ، والنساء ويرى أن المفاسد كلّها معلولة عن هاتين العلّتين ولاجتثاثهما من أصولها ، أباح الفروج وأحلّ الأموال ، وجعل الناس فيها شركاء اشتراكهم في الهواء والماء ؛ ويقول عنه بعض المؤرخين انه سوّغ قتل النفس لدفع الشرّ إذا كان الشرّ لا يدفع إلا بالقتل.

معبود مزدك

وصف «مزدك» معبوده فقال : هو جالس على كرسيه في العالم الأعلى على هيئة جلوس الملك «كيخسرو» في العالم الأدنى وذكر أن بين يديه أربع قوى : التمييز ، والفهم والحفظ والسرور وهي التي يدير بها العالم بواسطة سبعة من الوزراء يشتغلون مع اثني عشر ذاتًا روحانيًا ، وقد نقل عنه القول بأن كلّ من اجتمعت لديه هذه القوى الأربع ، والسبعة الوزراء ، والإثنا عشر روحانيًا ارتفع عنه التكليف وصار ربّانيًا في العالم الأدنى .

٦. الدهريّة

من الاعتقادات التي فشت بين العرب تعاليم الدهريّة وللعرب في تقريرها مذهبان :

الأول : يسلّم بأن الله هو خالق الأفلاك وموجد الحركة فيها ، لكنّه يقول : لما تحرّكت أعظم حركة لم يقدر على ضبطها وإمساكها فدارت عليه وأحرقته واستمرّت سائرة إلى اللانهاية .

الثاني : القول بأن الأشياء لا بداية لها أصلاً ، وهي تصدر من القوّة إلى الفعل بطبيعة موجودة فيها ، فإذا ظهر ما كان بالقوّة إلى الفعل صدرت الأشياء مركّبات ، وبسائط من ذاتها لا من شيء آخر.

وهم يقولون : إن العالم ما زال ولم يزل لا يتغيّر ولا ينقص ولا يتجدّد ولا ينعدم .

ومن قواعدهم الأساسية أن القوّة الفاعلة لا يمكنها أن تفعل فعلاً يبطل ويضمحلّ ، إلا وهي تبطل معه وتضمحلّ ، ويقولون أيضًا يفنى كلّ موجود سوى المادة والماديّات ولا يخصّون الوجود بوصف غير ما يدرك بالحواسّ الخمس وينفون ما عداه .

ويقولون في تعليل الاختلاف في صورة المادّة وخواصّها ، والتنوّع الواقع في آثارها أنه ناشئ من طبيعتها . ويقولون ، كم في غضون الطبيعة من عجائب وأسرار.

أما الروحانيون : فإنهم ينكرون على الماديّين هذا القول ويقولون عنهم : هم قوم أنكروا الخالق والبعث والإعادة وقالوا بالطبع المحيي والدهر المهلك. وقصّروا الوجود والعدم والحياة والموت على التركيب والتحليل وجعلوهما ظاهرتين من جملة الظواهر الطبيعية ويقولون إن كل فعل هو متركّز في الطبيعة.

ولا يخفى أن أكثر الطبيعيين كانوا من قريش. وأغلب مؤرّخي الديانة الإسلامية لا يفرّقون بينهم وبين «المزدكية» فيخلطون بين أخبارهما لذلك كان أكثر ما يعزى إليهم غير صحيح.

الفصل الثالث

الديانة اليونانيّة

كانت البلاد اليونانية منذ فتحت أبوابها لقبول الغرباء مولعة بسماع الأقاصيص والخرافات إلى أن استقرّت في نفوسهم ونظموا منها على توالي القرون عقائدهم الدينية وكانت مزيجًا من عقائد البابليين والفرس والمصريين وغيرهم. وقد ادّعوا أنها من أوضاع الألوهية. وأغلب عقائدهم وضعت لإكبار أصحاب العقول، وتأليه الرؤساء. وهو يقسّمون الرؤساء إلى درجتين: آلهة الدرجة الأولى وآلهة الدرجة الثانية.

آلهة الدرجة الأولى

آلهة الدرجة الأولى كثيرة وأقدمها «الفلك» وأولاده «ساتورن» المسمّى «كيوان» وهو «زحل» بعينه والدهر و «تيتان» استولدهم من أمّهم «ويستا» أي «الأرض». وتزوّج «ساتورن» المذكور «سبيله» وهي «الأرض الزراعية»، ويسمّونها «الجدّة» لأنها ولدت أغلب الآلهة ولا سيّمَا «الهة الدرجة الأولى» التي

منها «ويستا» الصغرى وهي إلهة النار، و«سيريسة» وهي «السنبلة» إلهة المحصولات التي أحدثت زراعة القمح و«الترم» وهو إله «الفلوات» ويسمّونه «الحدّ الحاجز».

وكان «تيتان» بن «الفلك الأكبر» الذي مرّ ذكره وهو الأحقّ بوراثة المملكة عن أبيه لكنّه تخلّى عنها إلى أخيه «ساتورن».

الأعوان الجبابرة

كان لـ «ساتورن» ابن يقال له «جوبيتير»، وهو «المشتري» تقوّى على أولاد عمّه تيتان فقتلهم جميعًا خوفًا من دعوى الميراث ومنازعاتهم إياه في الملك فولدت له الأرض الأعوان الجبابرة[1] وهم : رجال طوال شداد فوق العادة فوضعوا الجبال بعضها فوق بعض ليصعدوا إلى السماء ويطردوا منها جوبيتير المذكور فضربهم بصواعقه فوقعوا على وجوههم فوق الجبال. غير انهم لما كانوا كثيري العدد، ولا قدرة لـ «جوبيتير» على مقاومتهم التزم أن يستعين عليهم بغيره من الآلهة الذين لما نظروا إلى هؤلاء الأعوان انهزموا وتشتّتوا في أرض مصر وتشكّلوا بأشكال الحيوانات المختلفة. فكان ذلك سببًا في منشأ عبادة المصريين للحيوانات كما تقدّم في الكلام على الديانة المصرية.

طرد جوبيتير لأبيه وصنع النوع البشري

ثم ان «جوبيتير» طرد أباه «ساتورن» من السماء وقسّم العالم بينه وبين إخوته فأخذ هو لنفسه العالم العلوي السماء وأعطى سلطنة المياه لأخيه «نبتون»

---

١) أو الأبطال.

وسلطنة الجزر السفلى المعبّر عنها بالنيران لأخيه «ابلوطون» ، ثم شرع بعد ذلك في صنع النوع البشري.

أولاد جوبيتير

ولد لـ «جوبيتير» أولاد كثيرون منهم «هيبي» ولدت له من أخته «يونون» إلهة النكاح والولادة أما «هيبي» فهي إلهة الصبا والجمال. وولد له منها ولد ثاني يقال له «مارس» (المرّيخ) وهو القاهر إله الحرب والأسلحة. وولدت له أيضًا «بركان» وهو قبيح المنظر فطرده أبوه من السماء فوقع على الأرض وانكسرت رجله فجعله رئيس الحدّادين الموكلين بعمل الصواعق. ورزق «جوبيتير» بأولاد آخرين من غير «يونون» منهم : «بلاس» ولده من رأسه وأراد أن يجعله إله الحرب والآداب. ثم ولد له أيضًا «منيرفا» إله الحكمة فجعله حاكمًا ومديرًا للعلوم. ومن أولاده أيضًا «أبولون» ولد له من معشوقته «لاطون» ، ولما غضب عليه جعله إلهًا للرعاة وحين زال غضبه أعاده إلى السماء وجعله موكلاً بتقسيم الأنوار العلوية على العالم وهو الذي اخترع «الموسيقى» وعلّمها لإخوته «الموزات»[١] بنات «جوبيتير» من زوجته «مونيموزينه» الإلهة الحافظة وولد له منها أيضًا «ديانه» إلهة الصيّادين.

ومن ولده أيضًا «باخوس». ولد له من «سميله» بنت قدموس ، ملك طيوه التي احترقت بصواعق جوبيتير لما اقترحت عليه وحلّفته بنهر في الجنة يقال له «السيتيكس» أن يأتي إليها على صورته الأصلية وكان الجنين وقتئذ في بطنها فأخذه جوبيتير ووضعه في فخذه إلى أن جاء أوان وضعه. وباخوس هذا هو الذي علّم اليونان زراعة العنب.

---

١) Les Muses : هي آلهة الفنّ حسب الأساطير اليونانية. وهنّ تسع شقيقات يحمين الغناء والشعر والفنون والعلوم.

أما أولاد أبولون ابن جوبيتير الذي مضى ذكره فهم «اسكولاب» إله الطبّ و«الهليادات» اللواتي تغيرن ومسخن بصورة شجر البان و«الأورو» الفجر التي تغيّرت عند كبرها وهرمها وتحوّلت إلى صورة عنكبوت.

ومن الآلهة أيضًا «ماركور» وهو عطارد ترجمان «جوبيتير» ويسمّى أيضا «هرمس» وهو إله التجارة ومن جملة وظائفه قيادة أرواح المذنبين إلى النار وإخراجهم منها بعد استيفاء العقاب.

ومن الآلهة «فينوس» الزهرة. إلهة التناسل والتوالد التي نشأت منها المواليد الثلاث وهي متولّدة من زبد البحر.

أما الآلهة اللاتي تسمّين بالزهرة فكثيرة وقد ذكر المؤرخون بأن أقدم واحدة منها هي بنت الفلك وإلهة النار. وهناك زهرة ثالثة ورابعة وخامسة وهي آلهة المودّة الصادقة. وهناك سادسة تعرف بهذا الاسم أيضًا تعاشر البشر وهي إلهة المحبّة الشهوانيّة ويدعونها إلهة العشق ومن جلسائها «بيسو» و«سواده» إلهة الفصاحة وتدعى أيضًا إلهة الفسق. وسابعة وهي أخراهن تسمّى «ابوستروفيا» ومعناه صرف القلوب عن صدق المحبّة.

أما المواليد الثلاث فهي «قويدون» و«ابرياب» إله الأرض و«همنه» إله الأفراح والأعراس. ولهذه الآلهة بنات يسمين «شارتيات»، اللطائف وهن «اغلبا» و«تاليا» و«انفروزينا».

آلهة البحار

ولد لـ «نبتون» إله البحار الذي مرّ بنا ذكره «أوقيانوس» أبو الأنهر الذي ولد منه عرائس البحر «الحور» وهن إلهات الأنهر والعيون وبعضهن تألّهن على الجبال والغابات والكلإ.

وكان «نبتون» قد ألّه جماعة من البحر أيضًا هم «أغلوقوس» و «انيو»

وابنها «مليسرت». ثم دعي «اينو» «لونوثا» و«مليسرت» «بلمون». وكان من عاداتهم تغيير أسماء الذين يتألّهون عندهم كما غيّروا اسم «رومولوس» مؤسس روميا بعد أن تألّه إلى «كرينوس» و«سميله» إلى «ثيونا» ومن زمرة هذه الآلهة الإلهة «ايولة» التي كانت سرايتها في الجزر الايونية قرب صقلية معدّة لحبس الرياح.

أما الغيلان البحرية فمنها «سيلا» و«كالغده» اللذين كانا مقيمين في بوغاز صغير يفصل صقلية من إيطاليا، كانت تقيم فيه الغيلان السيرتية التي تستميل بحسن غنائها كلّ من مرّ عليها من المسافرين حتى يقعوا طربًا على كثبان الرمل والصخور. وكان نصفها الأعلى بصورة النساء والأسفل سمكة.

مملكة النيران السفلية وأوديتها

أما مملكة النيران السفلية فإلهها «أفلاطون» زوج «بروزينة» بنت السنبلة وكانت أنهر النيران ثلاثة هي «خرون» و«كوسينه» و«فلجتون» وبها أيضًا بحيرة «استاكس». ويتولّى حجابة هذه النيران كلب له ثلاثة رؤوس يسمّى «قاربيره» أو «تاربيره» وخازنها يسمّى «قارون» وقد وكل بها ثلاثة زبانية وهي «الكيتو» و«ميثرير» و«تيسفون». وكان تحت حكم «بلوطون» «البركات» اللواتي لكلّ واحدة منهن كبة غزل، إمّا من صوف أبيض أو صوف أسود، فيغزلن منه خيوطًا بمقدار أعمار الناس فمتى انقطع خيط الإنسان انقطع أجله. وعند ذلك يأخذ «عطارد» أرواح الموتى التي أتى بها «قارون» إلى الشاطئ. فيوصلها إلى قضاة النيران فيحاسبونها ويبعثون أهل الجنة إلى الجنة وتسمّى «اليزه»[1] وأهل النار إلى النار وتسمّى «طرطوس» وهناك يتعذّبون: إما

---

١) جنّة الصالحين (Elysée).

بالرباط مع الحيّات والأفاعي وإما بقطع أكبادهم ونضج جلودهم وكلّما نضجت عادت كما كانت. أو يصبّ الماء في دنّ مخروق حتى يمتلئ أو يحمل صخرة عظيمة ويصعد بها إلى جبل عال صعب المرتقى وكلّمَا قارب أن يصل بها تقع إلى أسفل ليعود إلى حملها مرّة أخرى ، وهكذا إلى أن تنقضي مدّة العذاب. فتنتقل الروح إلى جسم آخر وتشرب من نهر «ليثا» لتنس ما حصل لها.

إله الثروة والغنى

زعم شعراء اليونان أن إله الثروة والغنى يسمّى «بلوطس» وهو ابن السنبلة وأباه «يزبون» كان وزيرًا لـ «أبلوطون» وكان في صغره سالكًا مسلك العدل والإنصاف فسلبه «جوبيتير» بصره. لذلك انقسمت الثروة بين أهل الخير وأهل الشرّ على حدّ سواء ، بعد أن كانت لأهل الخير فقط. وقالوا إن «بلوطس» كان أعمى له نشاط في الذهاب إلى الأشرار. وكان يتوانى ويتعارج في الذهاب إلى الأخيار.

آلهة الأرض

لم يجعل اليونان آلهة للسماء والماء والنيران فحسب بل جعلوا آلهة للأرض أيضًا ومنهم «يان» ابن «ماركور» وكان نصفه الأعلى على صورة إنسان والأسفل على صورة حيوان و «باليسه» التي كان يستغيث بها الرعاة. و «فونه» بن «بيقوس» إله «اللاطينيين» وهؤلاء هم من جملة آلهة الفلوات وهناك «برمونة» إلهة الثمار و «أكلوره» إلهة الأزهار ، وكانوا يتخيّلون أن لكلّ عين جارية إلهًا. ولكلّ نهر إلهًا ولكلّ بيت وكلّ إنسان إلهًا ولكل طريق وكلّ

حارة بل لكلّ عطفة وكلّ موضع إلهًا. ويسمّون هذه الآلهة «لاريه». وأما إله كلّ رجل الخاص به فيسمّونه جنيًا أو عقلاً أو قريحة ويعتقدون أن موته وحياته تابعان لموت وحياة صاحبه. ويزعمون لكلّ رجل اثنان موكلان به أحدهما اسمه مُبارك أبيض اللون. والآخر اسمه مشؤوم أسود اللون. فمن غلبت منهما قوّته على صاحبه كان الموكلان به على منوال المتغلب فإنّ كان الأبيض أقوى نشأ عنه لصاحبه الخيرات وإن كان الأسود نشأت له أنواع الشرور. وكان الثعابين منذورة لهذه العقول.

أما عقول النساء فتسمّى «برنوتات».

وزعموا أن الدهر إلهة أنثى وهي الحظّ والنصيب والقسمة ويقولون إن الأفعال البشرية كلّها في قبضتها وهي عمياء متقلبة متلوّنة لا تثبت على شيء صحيح. وعندهم الليل إلهة أنثى والنوم إله ذكر ومن هذين الإلهين ولد «مومس» إله الألعاب واللذات والضحك والمزح.

وكذلك جعلوا الخصال الحميدة إلهة (كالأمانة) و(العدل) والتقوى، والصدق، والإتقان، والعافية، والحرية، والسكون، وقد عبدوها وبنوا لها الهياكل الفاخرة العظيمة. كما ألّهوا الشهوات الرديئة كالحسد، والكذب، والتدليس، والغيبة، والشقاق، والغضب؛ وما شاكل ذلك وشيّدوا لها الهياكل.

هذه آلهة الدرجة الأولى.

آلهة الدرجة الثانية

أما آلهة الدرجة الثانية ويسمّونها أنصاف الآلهة وهم فحول الرجال الذين يعتقدون أنهم تولّدوا بين أصلين الباقي والفاني أي بين الآلهة والبشر. فمنهم «برشاش» ابن «جوبيتير» المولود من «اينا» بنت «اكرزيوس» ملك «ارغوس» و«هرقل» أشهر فحول القدماء ولد لـ«جوبيتير» أيضًا من «الكمينه» زوجة «انفيتريليون» ملك «طيوا» ابن «ايجه» ملك الاثينويين الذي كان معاصرًا لـ«هرقل» وهو من أقربائه وأحبّ الناس إليه. و«كستور» و«لولوكس» المعروفين عند الفلكيين بالجوزاء أو التوأمين ، و«يازون» ابن «ايزونه» ملك «تساليا» وقدموس بن «اجنور» ملك «الصوريين» و«أوديب» بن «اليوس» ملك «طيوا» .

الأعياد والملاعب اليونانية

لليونان أعياد مشهورة كانوا يقيمونها في أدوار معينة معلومة إكرامًا للبعض من آلهتهم على اختلاف مراتبها. منها عيد الأسرار «الايليوسينية» التي وضعها «ابركتيوس» ملك «اوتيكا» إكرامًا للإلهة «سيريسا» التي تقدّم ذكرها. وكان هذا العيد يقام مرّة واحدة بعد كل خمس سنين في مدينة «ايلوسين» في شهري آب وأيلول. وكان لا يؤذن لأحد بالدخول إلى هيكل الإلهة إلا بعد أن يقدم لها صلوات وذبائح عديدة ويطهّر جسمه ويلتزم بحفظ الأسرار التي يريد أن يستلمها.

ومنها الملاعب الأولمبية التي كانت تقام مرّة واحدة في كل أربع سنوات في مدينة «أولمب» من إقليم «المورة» إكرامًا لـ«جوبتير» ، وبها كان يؤرخ اليونان ، وكان مبدؤها سنة ٧٧٦ ق.م.

ومنها أيضًا الملاعب البيشكية إكرامًا لـ «ايولون» على قتله ثعبانًا عظيمًا.

ومنها الملاعب «النيمية» التي كانت تقام في مدينة «نيميا» من إقليم المورة مرة في كل سنتين إكرامًا لـ «هرقل» أحد أنصاف الآلهة المتقدّمين لقتله أسدًا في غيضة قرب المدينة المذكورة.

ومنها الملاعب البرزخية التي كانت تقام في برزخ (كورنثوس) مرّة واحدة في كل أربع سنين إكرامًا لـ «نبتون» إله البحار.

وكانوا يجرون في هذه الملاعب كل نوع من المغالبة والمصارعة والمسابقة والفائز فيها يكلّلونه بأكاليل من أغصان الزيتون الأخضر ويكرمونه إكرامًا عجيبًا لا مزيد عليه.

وكان كلّ من أراد أن يشترك في هذه الألعاب يستعدّ لذلك بالامتناع عن الأطعمة الغليظة والمسكرات، وكلّما من شأنه أن يضعف الجسم حتى يقوى على المسابقة والمباراة.

الطقوس والعبادات عند عامة اليونانيين

كان اليونان يقيمون لكل معبود من معبوداتهم كهنة خصوصيين يخدمونهم في الاحتفالات والطقوس المختصّة بها على طرق شتى. فإن كهنة هيكل «ويستا» ويسمّونهم «غيليين» نسبة إلى «غلوس» وهو نهر «فريجينا» كانوا إذا شربوا منه عربدوا وتقارعوا بالسلاح وتمايلوا برؤوسهم وتناطحوا كالغنم وكانوا يقرضون شعورهم من أمام، ويلبس الرجال ملابس النساء.

وفي عيد «سبيله» يحتفل الكهنة مع الغوغاء وتختلط فيه الأصوات ببعضها أصوات المغنين والمعازف والطبول وغير ذلك من الآلات فيكون لها وقع عجيب.

أما في روما فإن النساء هنّ اللائي يباشرن القيام بهذه الاحتفالات بمحلّ منفرد من الهيكل يسمّى «اوبيرتوم» يعني المحلّ الخفي ولا يرخّص دخوله لرجل.

أما كهنة المرّيخ «مارس» المعروفون بـ «السليانيين» فكانوا يعدون ويجرون ويثبون في شوارع روما عدّة أيام ويحملون أتراسًا مقوّرة.

وكان لهيكل «باخوس»[1] نساء يسمونهن البخوسيّات يحملن في أيديهن أتراسًا وفي بعض المواسم المسمّاة «ارجيه» يشتدّ هياجهن فيهمن في الجبال لا سيّمَا في جبال الروميلي لابسات جلود النمورة وغيرها من الحيوانات البرية وفي أيديهن المصابيح. وكان الشعب يتقرب إلى هذه المعبودات في هياكلها بتقديم الذبائح وبعضهم بإضرام النار في المواقد الخاصة بها بلا انقطاع. ويجعلون سدنتها من العذارى وإذا انطفت مصابيحها ولو بالصدفة عوقبن أشدّ العقاب. وكانوا يجدّدونها في كل سنة في شهر «مارت» (آذار) وكانت ذبائحهم لهذه الأوثان غالبًا من الحيوانات المعاكسة لوظيفة ذلك المعبود كالخنازير التي دأبها قلع سيقان المزارع وإفساد البزور فكانوا يذبحونها لـ «سريسه» إلهة الحاصلات الأرضية ويقربون إلى «ديانا» قرابين من الآدميين لا سيّمَا من الذين تنكسر سفنهم بناحية بحر بنطش ويتقرّبون إلى «باخوس» وهو أوّل من عصر النبيذ بذبح التيوس لأن من دأبها إتلاف كروم العنب. وينذرون له بنات القساوسة لاعتقادهم أن له خاصية إبطال أبخرة النبيذ. ويتقرّبون إلى إلهة الطرق بذبح الكلاب الداجنة. أما وظيفة الكهنة فإنهم يستخرجون لهم الفال من مجرّد النظر إلى امعاء الحيوانات التي يقرّبونها إلى

---

١) باخوس هو إله الخمر.

المعبودات في أوقات الحروب وغير أوقات الحروب.

هذه خلاصة طقوس وعبادات عامة الشعب اليوناني.

أما مذاهبهم الفلسفيّة: فقد كانوا يبحثون فيمَا وراء الطبيعة منذ ٧٠٠ سنة ق.م. وهي مدوّنة في تعاليم أكابر علمائهم أمثال «تاليس» (المليطي) و«انكسفورس» الذي تولّى رئاسة مدرسته بعد موت «انكس ميس» و«سقراط» خليفة «انكسفورس» و«أرستيب» رئيس مدرسة برقة[1] وتلميذه «تيودور»، و«أفلاطون» الإلهي واضع الأكادمية القديمة رئيس فرقة الاشراقيين و«أرسطو» رئيس الفرقة الثانية من تلامذة أفلاطون الذي نسمّيه بالمعلّم الأولى و«فيثاغورس» المعروف بالإيطالي. و«بيرهون» رئيس الفرقة المشككة التي لا تجزم بوجود شيء في الكون.

عقائد اليونانيّين

عقيدة التّثليث عند اليونان

أما عقيدة التثليث عند اليونانيين فهي من وضع الفلاسفة المشهورين «فيثاغورس» و«هرقل» و«ابلاتو» أخذوها عن «ارميوس» وهم من الصفاتية القائلين بأن الله مثلّث الأقانيم وأدخلوا في عباداتهم وطقوسهم رموز وإشارات التثليث. فإذا شرعَ كهنتهم بتقديم الذبائح مثلاً إلى الآلهة يرشّون المذبح بماء

١) في الأصل «الفرقة القيروانية»، والصحيح ما أثبتناه. أما «أرستيب» ARISTIPPE فهو فيلسوف يوناني تلميذ سقراط، عاش في القرن الخامس قبل المسيح.

مقدّس ثلاث مرّات إشارة إلى الثالوث ويرشّون المصلّى حول المذبح كذلك بالماء ثلاث مرّات ويأخذون البخور إلى المبخرة بثلاثة أصابع .

ويقولون في ذلك بأن قدماء الحكماء يصرّحون أنّ كل الأشياء المقدّسة يجب أن تكون مثّلثة جريًا على عقائد الأمم القديمة التي تقدمتهم مثل المصريين والكلدان والفرس وغيرهم .

وكان اعتناؤهم تامًّا بهذا العدد في إجراء كافّة أحوالهم الدينية .

عقيدة الفداء والخلاص عند اليونانيين

كتب «اسبوس» في أثينا سنة ٥٠ ق.م. رواية صلب «كراسيوس» وهي أقدم شعر يوناني خالد نقل إلى عصرنا الحاضر ، تتضمّن تحقيق الصلب وتمجيده . ويقول علماء تاريخ الآداب اليونانية انها مأخوذة عن رواية قديمة جدًا ليس لها مثيل لإيقاع التأثير في إحساس الناظرين . ولم يسبق هذا الشاعر أحد إلى وصف آلام الصلب التي قاساها واحتملها ذلك الإله . والناظر إلى هذه الرواية لا يتمالك نفسه من التأثر العظيم من المشاهد المفجعة التي يراها خلال الرواية فكيف يكون تأثيرها في نفوس الذين يعتقدون ألوهيّة «كراسيوس» بطل هذه الرواية . وهم يقولون عنه هو «خليلهم وضالتهم ومخلّصهم» وخصامهم الذي جلب عليهم الآثام والآلام هو الذي جعله يحتمل الأحزان التي قاساها من أجل خلاصهم . فبسبب ذنوبهم جرح ويداعي طغيانهم سحق ومن أجل نجاتهم تحمّل القصاص . ويضربه وجلده شفوا . فقد اضطهد وتألم وامتهن ولم يتململ وظهر صبره العظيم حينمَا كانت كهنة آلة «اشر» تسمّر يديه ورجليه بجبل «فوناسو» فهو ليس له شبيه أو مثيل إلا الكمال الذي بدا منه وهو معلّق ويداه ممدودتان على شكل صليب خدمةً للناس وحبًّا بهم . وهذه الخدمة جلبت عليه هذا الصلب المخيف. وبينمَا كان يقاسي عذاب وعناء تلك

المكيدة. اعترف صديقه «اوسينوس» الصيّاد أنه لم يقدر على إقناعه لمصالحة الإله المشتري وترك خلاص الناس. ثم فارقه «اوسينوس» الصيّاد وفرّ هاربًا ولم يبقَ أحد معه يعاين سكرات موته إلا جماعة من المرّتلين الأحباب المخلصين الذين ناحوا عليه واستطاعوا أن يزيلوا من قلبه حب الشرّ.

سبب ظهور باخوس بن المشتري من العذراء سميله

قدمنا في بحث آلهة الدرجة الأولى ان الإله «باخوس» أو (بكوس) هو بن زوبير من العذراء سميله والآن ستكلّم عن سبب ظهوره.

حكى العلاّمة «ادوان» في كلامه عن عقائد اليونانيين أن «باخوس» بن المشتري من العذراء سميله هو الابن الوحيد، المخلّص، الذبيح، حامل الخطايا، الفادي. ثم قال: لما كثر الشرّ في الأرض وانتشر الفساد طلب «بندورا» يتوسّل إلى المشتري سيّد الآلهة كي يأتي ويخلّص الناس من الآثام والخطايا فاستجاب له المشتري فأرسل ابنه «باخوس» ليخلّص المذنبين في العالم. وتعهّد الفادي بتحرير الأرض من الأوزار حتى يعبده الناس ويرّتلوا التسابيح تمجيدًا لاسمه. وإتمامًا لهذا العمل حلّ الإله المشتري في سميله العذراء البديعة فحملت منه ودعيت والدة الإله وقال «باخوس» الفادي للأمم أنا مرشدكم وحاميكم وفاديكم. ولم يكن «باخوس» وحده المخلّص الفادي عند اليونانيين بل هناك كثيرون كانوا كذلك أيضًا. فقد كان «هرقل» بن «زينيس» يدعى أيضًا المخلّص. وقد وجدت نقود منقوش عليها اسمه «هيركلوس المخلّص» وكانوا أيضًا يدعونه الابن الوحيد، والكلمة وانه لما خرج من الدنيا اتّحد مع الإله. فكوّن كلّ شيء وهو أبو الزمان. ولما أدركته الوفاة قال للمرأة الأمينة «يول» التي تبعته إلى آخر مكان وطأته قدمه لا تبكين قد انتهى عملي وحان وقت الراحة وسأراك في الأرض النيّرة. ولما فاضت روح هذا الإله

المخلّص حدث على وجه الأرض ظلام حالك. وأقبل «روس» ربّ الأرباب وحمل ابنه وأخذه إليه. وفتحت قاعات «أوليمبوس» لملاقاة بطل النور الذي استراح من أتعابه الشاقّة. وهو هناك الآن مكتسي بالحلّة البيضاء وعلى رأسه الإكليل.

وكان «اسكولابيوس» يدعونه أيضًا المخلّص. ويدعى الهيكل المشاد تذكارًا لاسمه «هيكل المخلّص» ويدعون أيضًا «أبولون» مخلصًا.

وفي إيراد هذه الأسماء بصفاتها ونعوتها المثبتة في تاريخ عقائد اليونانيين ما يكفي للدلالة على أن تلك الألقاب الطنّانة إن هي إلا صفات ونعوت يكيلها الشعراء للأفراد الذين يعانون معالجة أحوال المجتمع وتقويمه[1].

---

١) إن كل ما تعرّض له المؤلف في هذا الفصل من أساطير وخرافات داخل ضمن ما هو معروف في التاريخ باسم «الميثولوجيا الاغريقية».

الفصل الرابع

الديانة الرومانية

لا يكاد الباحث في عقائد اليونان والرومان يجد فرقًا كبيرًا بين الأمتين. فاليونان هم الأساتذة الأوّلون للرومان وعنهم أخذوا كلّ شيء من العقائد والطقوس والآداب وروحهم هي بلا شكّ مقتبسة من الروح اليونانية.

عقائد الرومان

عبادة الأرواح

بنى الرومانيون عقائدهم على عبادة الأرواح ، فهم يعتقدون أن لكلّ نوع من الفضائل والرذائل والقوى الجسمية العقلية إلهًا بل لكلّ شيء مادي ومعنوي من العالم المنظور وغير المنظور إله . ولكلّ واد وجبل ونهر إله . ولم يفتهم شيء ممّا وضعه اليونان من أنواع تعبّداتهم إلا واقتبسوه عنهم ولم يزيدوا عليهم إلا بتأليه علمائهم وأبطالهم . وربّمَا توسّعوا في هذه الزيادة إلى حدّ الإفراط

فكانوا كلّما احتلّوا بلدًا اقتبسوا آلهته وعقائده وضمّوها إلى آلهتهم وعقائدهم وذلك لما بينهما من المشاكلة في التقاليد والروحيات.

التثليث عند الرومان

وإذا علمنا أن أصل الأديان الوثنيّة واحد ندرك بالبداهة أن عقيدة الرومانيين يجب أن تكون قائمة على أساس التثليث ، الله ، الكلمة ، الروح.

الإله الأكبر عند الرومان

إن أكبر الآلهة عند الرومان هو «جوبيتير» إله اليونان فهو المعبود الأكبر لروما وباسمه كانت تشيّد الهياكل الفخمة وكلّها جميلة البناء ، كثيرة الزخرف مزينة بأظرف المنحوتات ومملوءة من التقديمات التي كان يقدّمها وينذرها للآلهة المؤمنون المخلصون.

الهياكل الرومانية

بلغ عدد المشهور منها أكثر من أربعماية هيكلاً. كلّها برسم آلهة الدرجة الأولى ، أما هياكل آلهة الطبقة الثانية فإنها لا تكاد تحصى كثرةً وإن كانت أقلّ زخرفًا وجمَالاً من الأولى ويسمّونها البيوت المقدّسة. وهناك معابد أصغر منها مقامة داخل البيوت. فلكلّ عائلة معبد خاصّ تقيم فيه عبادتها.

وظائف الكهنة

كانت خدمة الهياكل موكولة إلى الكهنة وهم الذين يقدّمون إليها الذبائح من الثيران والغنم والحيوانات وكانت لوظائف الكهنة أهميّة سياسية عظيمة. وهم يُنتَخبون من أعيان الأهالي.

أصحاب التنجيم والمبصّرون

توجد طبقة ثانية دون طبقة الكهنة وهم أصحاب التنجيم ، والمبصّرون ، وظيفتهم تفسير الأحلام والإلهامات والمناظر الغريبة ويتنبأون عن المستقبل يستخرجون ذلك من حركة الأفلاك والقرانات وامعاء الحيوانات وعظامها ويزجرون الطير.

وكان المنجّمون في روما يعبّرون عن إرادة الآلهة للشعب من ناحية إشهار الحرب . ولا يمكن لأحد أن يتجاسر على مناقضتهم . ولم يكن أحد من عامة الشعب يبدأ في عمل مهمّ قبل استشارة المنجّمين ومعرفة الطالع في ذلك . لذلك كانت وظيفة المنجّمين عند الرومانيين ذات أهمية عظيمة لا تقلّ عن وظيفة الكهنة وقد كان الكثيرين من أعضاء المجلس العالي أمثال «قاطول» و«شيشيرون» وهم من أشهر فلاسفة الرومان يزاحمون أقرانهم للحصول على هذه الوظائف ، مع أنهم كانوا كما يقول المؤرخون عنهم لا يعتقدون بصحّتها ولكنهم يرونها من المسائل التي تمكّنهم من التسلّط على إرادة الشعب .

أجرة العبور بأرواح الموتى من نهر الموت

كان الرومان يعتقدون أن هناك شخصًا يسمّى «شارون» أو «قارون» موكلاً بأرواح الموتى يحملها ويعبر بها نهر الموت . ولا يفعل ذلك ما لم يتناول أجرًا معينًا . فكانوا يضعون في فم الميت قطعة من النقود يعطيها إلى الموكل المذكور. وإذا ساروا به يحملون أمام نعشه تمثاله وتماثيل أسلافه وعند نهاية الاحتفال بالجنازة وتشييعها إلى مرقدها الأخير ، يرشّ الكهنة جميع الحاضرين بالماء ويصرفونهم .

حرق الموتى

من تقاليد الرومان أنهم كانوا يحرقون موتاهم مثل اليونان وقد تمكّنت منهم هذه العادة في أيام المشيخة الأخيرة ثم سرت منهم بطريق التقليد إلى بقية المستعمرات الرومانية. ولم تنقطع هذه العادة إلا بعد شيوع النصرانية فعدلوا عن الحرق إلى الدفن.

أما طريقة حرق الأموات فإنهم يطرحونهم فوق حطب جزل مرتّب على صورة مذبح ثم يلتفّون حوله بخشوع ووقار يسمعون النغمات الموسيقية المحزنة. ثم يتقدّم أحد الأقارب يحمل شعلة فيضرم بها ذلك الحطب. ثم يلقي الحاضرون ما يحملونه للميت من الأطايب في ذلك اللهب. وبعد احتراق الجثّة يطفؤون النار بالخمر ثم يجمعون الرماد ويجعلونه في آنية نفيسة يلقونها في مدفن العائلة. وإذا كان الميت من العساكر فإنهم يضعون معه لامة حربه، والغنائم التي سلبها من الأعداء في الموقد.

اتخاذ النفوس البشرية قرابين للأموات

يعتقد الرومانيون بتأثير الروح العسكرية فيهم، أن أرواح الأموات تسرّ بسفك الدماء، فكانوا يتقرّبون بالنفوس البشريّة إلى موتاهم، وخاصّة العبيد، والأسرى الذين كانوا يسوقونهم كالأغنام، ويذبحونهم على قبور أسيادهم. بل إن الأصدقاء كانوا يقدّمون أنفسهم قرباناً لأصدقائهم حبّاً بهم، كما يفعل ذلك اليابانيون اليوم. ولما ارتقت عواطفهم نبذوا هذه العادة وعوضوها بذبح ما كان يميل إليه الميت في حياته من الحيوانات. واستمرّت هذه العادة الجديدة إلى أوائل القرن الرابع ثم انقرضت.

اعتقاد الرومان بتأثير عظمائهم في المظاهر الكونية

حكى العالم «كينون افرار» في كتابه تاريخ «جينون» أن الرومان واليونان يعتقدون أنه عند ولادة أحدِ العظماء وموته تظهر حوادث سماوية تنبئ عن ذلك. وقد قالوا إن الشمس أظلمت عند موت «رومولوس» مؤسّس روما، ستّ ساعات، وذكر الشعراء «تيبولوس» و«لوسيان» والمؤرخون «بليني» و«ابيان» و«اديون» و«سيوس» و«جوليوس» أنه لما قتل المخلّص «اسكولابيوس» أظلمت الشمس واختبأت الطيور في أوكارها، والأشجار طأطأت رؤوسها حزنًا وقلوب الناس اغتمّت لأن شافي أمراضهم وأوجاعهم فارق الدنيا. وقالوا أيضًا لما دنت ساعة «ديوس» وعزم على مفارقة الدنيا، عالم الأوجاع والأحزان قال لـ «نتيكيون»: «استودعك السلام، لا تبكِ يا ولدي فإنني ذاهب إلى بيتي» وأفرح بحمل أحزاني وهمّي. ولما أسلم الروح جرت علامات هائلة في الأرض فقد اهتزّت وربت، وأبرقت السماء وأرعدت.

إله الرومانيين المنبثق من الشمس

كان للرومان إله آخر يدعى «كرينيوس» يقولون إن نفسه انبثقت من الشمس وعاد إليها. ولد من حلول إله الجند في عذراء، دمها ملكي فاضطهده «اليوس» الجبّار وتربّى عند الرعاة ولما مات قطع إربًا إربًا وحين صعد إلى السماء أظلمت الشمس.

الصليب عند الرومان

كان يوجد على راية جيوش «بورس» صورة إنسان مصلوب وقال «هيكن» إن تلك الصورة تمثّل إما «ستروفات» أو «سلفاهانا» ، فإنهما يظهر ان للرائي في صورة إنسان كان يحمله الرومان على رؤوس أعلامهم. وهي تشابه رمز الحمامة التي كان يضعها الأشوريّون على رؤوس أعلامهم ، ولا بدّ أن تكون تلك الصورة الرمزية لابن الله المصلوب.

البَابُ الثّالث

الأديَان السمَاويّة

الفصل الأوّل

الديانة اليهودية

اليهودية : هي مجموعة مختصرة من آداب وتاريخ الأقوام والروح السامية نبعت في «أور» عاصمة الكلدان ثم انتقلت إلى أرض كنعان وانتشرت في نهر الأردن ، وجبال صهيون ، وارتحلت إلى ديار النيل ، ثم توطّنت بلاد الجليل وتسرّبت طوائف منها إلى الحجاز ثم نقل قسم منها إلى بابل ، وبعد زمن رجع إلى صهيون.

وهكذا عاشت هذه الحلقة الصغيرة من الأمة السامية في الممَالك المختلفة بين صدور وورود تمازج شقيقاتها تقتبس عنها وتأخذ منها فكانت صورة حيّة ممثّلة لهم جميعًا ، تجد في ملامحها وعقائدها صور الكلدان والكنعان وبابل والفراعنة والعرب وغيرهم من عناصر الأقوام السامية ولما كان البحث في موضوع أين ومتى نشأت اليهودية؟ من خصائص علم وتاريخ الأديان فليس من شأننا أن نتعمّق فيه إلا بالمقدار الذي يتناسب مع هذا الموضوع ، وغايتنا البحث في موضوع كيف اتّصلت اليهودية بالعرب ، والتأثير الذي أحدثته فيهم حتى نعلم بالمقارنة الآراء والتعاليم التي حملتها إليهم والتقاليد والعقائد التي نشرتها بينهم ونتفحّص ما حدث بينهما من ردّ الفعل.

اليهود أو بنو إسرائيل

هي حلقة صغيرة في سلسلة الأمة السامية الكبيرة ، وهي : أقرب قرابة إلى العرب وقد عاشوا في أكنافهم قروناً عديدة في البلاد التي كانت لهم فيها السيادة .

اليهود في الحجاز

ليس لوجود اليهود في الحجاز ، تاريخ مضبوط بالتحقيق وغاية ما علم من ذلك انهم التجأوا مراراً في عصور مختلفة إلى الحجاز وأوّل مرّة كانت قبل الميلاد بنحو (١٥٠٠) . فقد ذكروا أن جالية منهم انفصلت في صحاري سيناء عن التيه والتجأت إلى الحجاز فتوطّنته . وقال عنها أبو الفرج ، هي التي تفرّعت عنها قريضة ، والنضير وقينقاع ، وغيرهم .

والثانية ، وقد أثبتها المحقّق «المقريزي» قال : إن اليهود نزلوا يثرب على عهد «صموئيل» وذلك حوالي سنة (١١٠٠) ق . م .

والثالثة كانت على زمن «نابوختناصر» ملك بابل بعد أن غزاهم في «أورشليم» سنة (٦٠٦) فدوّخ أرضهم وسبى ذراريهم وهدم المدينة المقدّسة وخرّب الهيكل ففرّ منهم خلق كثير إلى يثرب ، استوطنوها ومارسوا فيها عقائدهم وطقوسهم ، كما كانوا يفعلون في أورشليم ثم تكرّرت هذه النكبة على اليهود مرّتين في عهد الرومان ، الأولى في عهد الملك «انتخيوس» سنة ١٦١ ق . م . وقد أفحش فيهم بالفتك والنهب ونصب في الهيكل تمثال المشتري إله الرومان ، وأبطل القربان والذبائح [1] ثلاث سنين فهاجر كثير من اليهود إلى بلاد العرب عن طريق يثرب .

---

١) القربان أعمّ يصدّق على ما يؤكل ويقدّم إلى الهياكل ، أما الذبائح فهي خاصة بالضحايا .

والثانية نكبة القرن الأول للميلاد سنة نيف وسبعين على عهد «تيتوس» التي وقع فيها تخريب أورشليم وهاجر فيها عدد كبير من اليهود إلى بلاد العرب.

وقد تضافرت الروايات على أن أسعد بن كرب الحميري هو الذي تكفّل بحمايتهم وفسح المجال لإقامتهم في اليمن ومن ذلك العهد أخذوا ينشرون أفكارهم وتعاليمهم بين العرب بحيث لم يأتِ القرن الثاني للميلاد حتى استأنس العرب باليهود وصارت ديانتهم معروفة شائعة في يثرب واليمن.

هذه هي الهجرات التي انتقل منها اليهود إلى بلاد الحجاز واليمن في مدّة تقرب من نحو ١٦٠٠ سنة. وكانوا في كلّ مرة يحملون معهم تقاليد وعادات جديدة غير التي حملها من تقدّمهم منهم. ولسنا نريد هنا أن نثبت لهم إلا ما نشروه من الآداب والتعاليم في أرض هذا المهجر وتناقله عنهم بنو أعمامهم من العرب وهو بعد ما هضموه صار عنصرًا من عناصر تفكيرهم وتأديبهم. وبالتالي كان من جملة الدعائم التي قامت عليها الفلسفة الإسلامية سواء كان من طريق مباشر أو غير مباشر أي بواسطة الاقتباس والنقد والانعكاس.

اليهودية فكرة قومية

لا شكّ في أن اليهودية دين قومي خاصّ ببني اسرائيل لا يبتغي توسيع الحدود ولا التسلّط على الأقوام ولا نشر الهداية الإلهية، بل كانت أسمى غاية لها: إسعاد بني إسرائيل شعب الله المختار وتنظيم وحدتهم وحماية مصالحهم. وقد كان لوجودهم في يثرب واليمن تأثير مهمّ في سير الحركة الاجتماعية ولكن بسبب وجودهم في أرض المهجر أحسّوا من أنفسهم بالعجز والضعف عن ردّ غارات القبائل التي من دأبها شنّ الغارات، فحاولوا ردّها بالوسائل الأدبية ومنها تذكيرهم بالروح السامية ومناشدتهم بأواصر الرحم والقرابة التي توجد بين عناصرهم جميعًا. ففي عهد الوثنية مثلاً كانوا يدعونهم إلى تقديس عبادة الآلهة

«منات» و«طيغوت» ولما ظهرت الرسالة الموسوية صاروا يذكرونهم بآيات الله وينذرونهم بعقابه وما زالوا يعملون على توطيد مركزهم حتى توفّقوا إلى تهويد بعض الملوك من الاذواء فتوطّد به مركزهم في بلاد العرب فكان لهم به شأن وأيّ شأن في يثرب واليمن.

التعاليم والعقائد اليهودية في بلاد العرب

علمنا من المباحث التي قدّمناها أن اليهود هم الذين نقلوا إلى بلاد العرب شرائع وعقائد وآلهة الكلدانيين والمصريين والكنعانيين وأنهم عكفوا على ذلك زمنًا طويلاً حتى دعاهم داعي الله إلى اعتناق الديانة الموسوية فاعتنقوها ونبذوا العقائد الوثنية القديمة وذلك كالاعتقاد في تعدّد الآلهة وصاروا يؤمنون بإله واحد لكنّه على صورة البشر.

وأساس هذه الديانة الاعتقاد بأن موسى بن عمران هو رسول الله إلى بني اسرائيل أرسله لإنقاذهم من ظلم الفراعنة في مصر وذلك بعد أن توطّنوها مدة (٤٠٠) سنة وكان ظهوره قبل ثلاثة آلاف وأربعمائة وأربعة عشر سنة.

ويرون أن لتوطّنهم سببًا غير الذي قصّته علينا الآثار وهو: بيع أولاد يعقوب أخاهم الصغير يوسف والنزول به إلى مصر ثم قالوا انه اتّصل بعد ذلك بفرعون بواسطة تفسير أحلامه وتوليته على جميع أعمال مصر، ونزول أبيه يعقوب وأولاده إخوة يوسف عليه وإقامتهم مدّة أربعة قرون.

ومن الثابت الذي لا غبار عليه أن اليهود قاسوا أثناء وجودهم في مصر من المصريّين ما لا يوصف من الظلم والاضطهاد حتى اضطرّوهم في النهاية إلى

طرح أطفالهم في النهر بأمر من فرعون خوفًا من كثرتهم وثورتهم عليه وانضمامهم لكلّ عدوّ يحارب المصريين ، وأن موسى كان من جملة الأطفال الذين طرحوا في النهر ، وان أمه جعلته في سقط مطلي بالزفت فالتقطته ابنة فرعون فأخذته وربّته وتبنّته ، وسمّته «موسى» ومعناه المنشول من الماء.

وبعد أن كبر قتل رجلاً من المصريّين انتصارًا لرجل من قومه العبرانيين فبلغ الخبر فرعون وأراد أن يقتله ، ففرّ إلى أرض مدين وتزوّج هناك ابنة الكاهن «شعيب» وبقي معه إلى أن بدت له النار المقدّسة في وسط عليقه. فلما تقدّم إليها كلمه الله وأمره أن يذهب إلى فرعون ويخرج بني اسرائيل من أرض مصر ليتملّكوا الأرض التي وعد الله بها إبراهيم أن يجعلها ملكًا لنسله فأطاع الدعوة بعد أن أعدّ الله له من الآيات والعجائب ما يوجب التصديق برسالته من قِبَل الله.

ومن ثمّ نزل بعياله إلى مصر وذهب مع أخيه هارون وطلب من فرعون إخراج الاسرائيليين ليعبدوا الله إلههم في البرية. فسأل فرعون موسى ؛ ومن هو إلهكم ، فقال : إله «ابراهيم» و«إسحق» و«يعقوب» فقال : وما هي علامة صدقك فأظهر له عصاه ، وهي تفعل معجزات غريبة مخالفة للعادة. فوقعت بينه وبين السحرة والكهنة حوادث عجيبة فكانوا كلّمَا فتحوا عليه بابًا من سحرهم تلقفته عنه العصا بعد أن تصير ثعبانًا ، وتبطل أعمالهم.

فأبى فرعون أن يصدّقه مع كلّ ما أظهره ، وآل الأمر إلى أن ضرب الله المصريين عشر ضربات تهديدًا لفرعون وقومه. ومع ذلك لم ينصاعوا إلا عند نزول الضربة الأخيرة ، وهي قتل كلّ أبكار المصريين من الناس والبهائم حتى ينقطع النسل فأمر بخروجهم. وبسبب ذلك وضع الله سنّة عمل الفصح على بني إسرائيل فداءً عن أبكارهم كيلا تشملهم الضربة مع المصريين. ولما وصل بنو إسرائيل في خروجهم إلى البحر الأحمر ندم فرعون على إطلاقهم وساق

خلفهم جيشه ومركباته ، فأمر الله موسى أن يضرب البحر بعصاه فانشقّ لهم البحر وعبر بنو إسرائيل على اليابسة . وأراد فرعون أن يعبر خلفهم فردّ الله عليهم الماء فغرق هو وجيشه .

وبعد خمسة وأربعين من خروجهم وصلوا إلى جبل «سينا» وهناك أنزل الله عليه الألواح الحجرية : وفيها **الوصايا العشر الإلهية** :

الأولى : إن الربّ إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية لا يمكن أن يكون لك آلهة أخرى أمامي .

الثانية : لا تصنع لك تمثالاً منحوتًا ولا صورة ما ، ممّا في السماء من فوق وما في الأرض من تحت وما في الماء من تحت الأرض . ولا تسجد لهن ولا تعبدهن لأني أنا الربّ إلهك إله غيور افتقد ذنوب الآباء في الابناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضي وأصنع إحسانًا إلى ألوف من محبّي وحافظي وصاياي .

الثالثة : لا تنطق باسم الربّ إلهك باطلاً لأن الربّ لا يبرئ من نطق باسمه باطلاً .

الرابعة : اذكر يوم السبت لتقدّسه ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك وأما اليوم السابع ففيه سبت للربّ إلهك لا تصنع عملاً ما . أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمّتك وبهيمتك ونزيلك الذي داخل أبوابك ، لأن في ستة أيام صنع الربّ السماء والأرض والبحر وكلّ ما فيها واستراح في اليوم السابع ، لذلك بارك الربّ يوم السبت وقدّسه .

الخامسة : أكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك على الأرض التي يعطيك الربّ إلهك .

السادسة : لا تقتل .

السابعة : لا تزن .

الثامنة : لا تسرق.

التاسعة : لا تشهد على قريبك شهادة زور.

العاشرة : لا تشتهِ بنت قريبك لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئًا ممّا لقريبك.

ثم نزلت عليه بعدها الشرائع السياسية ، ثم الطقسية لكي يمارسها بنو إسرائيل. ولم يدعهم الله أن يدخلوا أرض كنعان لعصيانهم أوامره في قتال سكّان البلاد ، بل أبقاهم أربعين سنة تائهين في البريّة تحت قيادة موسى. وكان يطعمهم فيها المنّ والسلوى ، ويجري الماء لشربهم من صخرة. وأما أثوابهم وأحذيتهم فلم تهرأ وبقيت على ما هي إلى أن امتلكوا البلاد. وبعد تمام الأربعين سنة مات موسى.

الشرائع السياسية

المحاكمة :

من شروط المحاكمة ، عدم المحاباة مع المسكين؛ أو احترام وجه الكبير أو تحريف الدعوة ، أو قبول الخبر الكاذب ، أو الإصغاء إلى شاهد واحد بل على فم شاهدين أو ثلاثة يصير إثبات المدّعي. والنهي عن أخذ الرشوة ، والجور في القضاء ، ووجوب اليمين على المنكر ، والقسامة على أهل قرب مدينة إلى محلّ قتيل يوجد في الحقل ولا يعرف قاتله.

حقوق العبد

لا يسلّم عبد آبق إلى مولاه ، بل يبقى عند من التجأ إليه وما طابت نفسه ، والعبد يبقى عبدًا في خدمة سيّده من بني اسرائيل ستّ سنين ويخرج في السابعة حرًّا مجّانًا ، فإن كان متزوّجًا تخرج امرأته معه ولا تخرج إذا كان سيّده أعطاه إياها ولو ولدت له أولادًا فلا يخرج إلا هو وحده ، وأما المرأة وأولادها فيبقون في قبضة السيّد ، وإذا أراد العبد أن لا يفارق امرأته وأولاده ، وأراد أن يبقى عبدًا فيأخذه مولاه ويقرّبه إلى الباب أو إلى القائمة ويثقب أذنه بالمثقب ومن ثمّ يبقى في خدمته إلى الأبد.

وإذا باع رجل ابنة أمة فلا تخرج كما يخرج العبيد بل إذا قبحت في عين سيّدها الذي خطبها لنفسه يدعها تفكّ نفسها وليس له سلطان أن يبيعها لقوم أجانب لغدره بها وإن خطبها لابنه فبحسب حقّ البنات يفعل لها وإن اتخذ لنفسه أخرى فلا ينقص طعامها وكسوتها ومعاشرتها وإن لم يفعل لها هذه الثلاث تخرج مجّانًا بلا ثمن.

وأما الأسير من الغرباء فيكون لهم عبدًا يتوارثونه إلى الأبد.

أحكام الأنكحة

لا يجوز لأحد أن يكشف عورة أبيه ولا عورة أمه ولا امرأة أبيه ولا ابنة ابنه ولا ابنة بنته ولا أخته من أبيه ولا عمته ولا خالته ولا امرأة عمّه ولا كنّته ولا امرأة أخيه ولا امرأة وابنتها ولا ابنة ابنها ولا ابنة بنتها ولا تؤخذ المرأة للضرّ في حياة أختها ولا تقرب المرأة في أيام طمثها ولا يخرج المتزوج الجديد إلى الجندية بل يبقى حرًّا سنة واحدة ويسر امرأته التي أخذها وإذا تزوّج الرجل امرأة ولم تجد نعمة في عينه أو وجد فيها عيبًا فيكتب لها كتاب طلاق ويطلّقها

ثم إذا تزوّجت رجلاً آخر وطلّقها ومات فلا يجوز لزوجها الأول أن يرجعها وإذا مات رجل من غير ولد يأخذ أخوه امرأته والبكر الذي تلده له يقوم باسم أخيه الميت.

العقوبات

١. القتل

من ضرب إنسانًا فمات ، ومن غدر برجل فقتله عمدًا فإنه يقتل ولو التجأ إلى مذبح الله ليحتمي به من الموت. ومن شتم الله ومن ضرب أباه وأمه وشتمهما أو تمرّد عليهما وعصاهما ، ومن سرق إنسانًا وباعه أو أبقاه في يده وصاحب الثور النطاح إذا كان أشهد عليه من قبل ولم يضبطه ثم نطح إنسانًا وقتله فإنّ صاحب الثور يقتل والثور يرجم ومن يعمل عملاً في السبت والسحرة ، ومن كان به جنان أو تابعة فانه يرجم بالحجارة حتى يموت ، ومن ضاجع بهيمة من الرجال والنساء يقتل مع البهيمة أيضًا ومن أعطى من زرعه للأوثان والزاني بامرأة قريبه والمزني بها والزاني بامرأة أبيه ، أو كنّته ومضاجع الذكور والزاني بعذراء مخطوبة داخل المدينة والتي زفّ بها ؛ وأما إذا وقع ذلك في الحقول فيقتل الرجل فقط وأما الفتاة فلا. والفتاة إذا تزوجت وادّعى زوجها بأنه لم يجد لها عذرة ووجد الأمر صحيحًا جميعًا يقتلون.

أما من اتخذ امرأة وأمها فيحرقون جميعًا بالنار ، وأما من قتل نفسًا بغير قصد واستطاع أن يصل إلى مدينة من مدن الملجأ الستة التي أمر الله بإقامتها ثلاثًا منها في عبر الأردن وثلاثًا في أرض كنعان لمثل هذا الفعل قبل أن يلحقه وليّ الدم ويقتله في الطريق فإنه يبقى في المدينة التي يصل إليها إلى موت الكاهن العظيم ومن ثم يرجع إلى ملكه ولا حرج عليه. أما إذا خرج منها قبل ذلك

وقتله وليّ الدم فيكون دمه هدرًا ، ولا يقتل الآباء عن الأولاد ولا الأولاد عن الآباء بل كل إنسان يموت بخطيئته.

٢. القصاص بعين الذنب

يقاصص بعين الذنب ، أعني العين بالعين والسن بالسن واليد باليد والرجل بالرجل والكي بالكي والجرح بالجرح والرضّ بالرضّ.

أما إذا ضرب إنسان عبده أو أمته بعصا ومات المضروب فينتقم منه ولكن إن بقي المضروب بعدها حيًّا يومين أو ثلاث فلا ينتقم منه لأنه ماله ، وأما إذا أتلف عين عبده أو أمته أو أسقط لأحدهما سنًّا فيلزمه عتقه.

٣. الدّية

وهي تشمل الضارب إذا عطّل إنسانًا بضربه إياه عن عمله فيلزم أن يعوّض عطلته وينفق على شفائه والذي يصدم في أثناء خصام مع آخر امرأة حبلى ويسقط جنينها بدون أذية فيلزمه أن يقرر المقدار الذي يطلبه منه زوج المرأة. وأما إذا حصل أذى فترفع المسألة إلى حكم القصاص بالمثل أعني النفس بالنفس والعين بالعين الخ...

وكذلك صاحب الثور النطاح إذا أراد أهل المقتول أن يضعوا عليه ديّة عن نفسه.

٤. الجلد

الجلد من أحكام التعازير التي يقرّرها القاضي والمذنب المستوجب لهذه العقوبة يطرح بين يدي القاضي ويجلد على قدر ذنبه ولا يجوز أن يزيد الجلد عن الأربعين جلدة.

٥. السرقة

إذا سرق إنسان ثورًا أو شاةً وذبح ما سرقه أو باعه فيلزم أن يعوّض عن الثور بخمسة ثيران وعن الشاة من الغنم بأربعة وإن ضرب السارق ومات وهو ينقب فليس له دم ولكن إن أشرقت عليه الشمس فله دم لأنه يعوض وإن لم يكن ما يعوّض به فيباع بسرقته وإن وجدت السرقة بيده وكانت ثورًا أو حمارًا أم شاةً بالحياة فيلزمه العوض باثنين.

٦. الزنا

من راود عذراء لم تخطب وضاجعها يلزم أن يمهرها لنفسه زوجة فيعطي أباها خمسين من الفضة وتكون زوجة له لا يقدر أن يطلّقها كلّ أيام حياته وإن أبى أبوها أن يعطيه إياها يزن له فضة كمهر العذارى. وأما من فعل ذلك مع مخطوبة ولم تفد فداء ولا أعطيت حريتها فليؤدبه فقط ولا يقتله. وإذا أخذ رجل أخته ابنة أبيه او ابنة أمه أو أضجع مع امرأة طامث يقطعون جميعًا من شعبهم ، كذلك من كشف عورة أخت أمه أو أخت أبيه أو امرأة عمّه أو امرأة أخيه فإنهم جميعًا يحملون ذنوبهم ويموتون عقيمين.

وإذا اتّهم رجل امرأته يأتي إلى الكاهن فيوقفها الكاهن أمام الربّ ويأخذ ماء مقدّسًا في إناء خزف ويضع فيه من الغبار الذي في أرض المسكن ثم يحلف المرأة بأنها لم تزغ ويكتب اللعنات التي يهدّدها بها في كتاب ويمحوها في الماء المرّ ويسقي المرأة ماء اللعنة المرّ فإن كانت قد تنجّست وخانت فيرم بطنها وتسقط فخذها وإلّا فلا.

٧. عقوبات عمومية

إذا أمسكت امرأة عورة رجل تقطع يدها وإذا نطح ثور رجلاً أو امرأة فمات المنطوح يرجم الثور ولا يؤكل لحمه ، وإن نطح عبدًا أو أمة يعطى

صاحبه ثلاثين ساقلاً من الفضة ، والثور يرجم وإن وقع ثور أو حمار في بئر أو حفرة لم يغطّها صاحبها فصاحب البئر أو الحفرة يعوّض على صاحب الحيوان دراهم والميت يكون له ، وإن نطح الثور ثورًا فمات المنطوح يباع الثور الحيّ ويقسم ثمنه بين صاحب الثور الحي والثور الميت ويقتسمان كذلك الميت أيضًا وإذا كان الثور معروفًا بأنه نطاح من قبل ولم يضبطه صاحبه فيعوّض عن الثور الميت بثور حيّ ويكون له الميت.

ومن يسرّح مواشيه لترعى حقل غيره فيلزمه العوض من أجود حقله وأجود كرمه وكذا من أوقد وقيدًا أصابت ناره شوكًا فأحرقت أكداسًا وزرعًا أو حقلاً. وأما من أودع عنده فضة أو أمتعة للحفظ وسرق ذلك من عنده فإذا وجد السارق فعليه العوض باثنين وإلا فعلى الأمين اليمين بأنه لم يمدّ يده إلى ملك صاحبه. وهكذا في كلّ دعوة جنائية ، من جهة حيوانات أو مفقود ما يقال : إن قدم دعوة ما إلى الله فالذي يحكم عليه بالذنب يعوّض صاحبه باثنين. وكذا من أودع عنده حيوان أو غيره فمات أو انكسر أو نهب وصاحبه لم يكن موجودًا لا يلزمه إلا اليمين فقط وليس عليه عوض. وأمّا إذا سرق من عنده فيلزم العوض وإن افترس فعليه أن يحضر شهادة لا يعوض ومن استعار من صاحبه شيئًا فانكسر أو مات وصاحبه ليس هو معه فعليه العوض ، وأما إن كان صاحبه معه فلا يلزمه ذلك وإن كان مستأجرًا يأتي بأجرته.

الأوامر والنواهي والآداب

١. الأوامر

أما الأوامر فهي تتعلّق بردّ كل مفقود يجده الإنسان لأصحابه ومساعدة المبغض أيضًا في حمل حماره ، إذا كان واقعًا تحت حمله ، والقيام أمام الأشيب واحترام الشيخ وإباحة الأكل من الكروم التي يدخلها الإنسان بقدر شبعه ، بحيث لا يحمل معه شيئًا إلى الخارج ، وكذلك أيضًا من الزرع فله أن يقطف السنبل بيده ويفركه ويأكله ولكن لا يرفع عليه منجلاً.

٢. النواهي والآداب

وهي تتعلّق بمنع الاضطهاد عن الغريب ومضايقته والإساءة إلى الأرملة واليتيم وأخذ الربا ممن يقترض فضة وهو من آل إسرائيل بخلاف الأجنبي فإن أخذ ذلك جائز منه ، وإبقاء ثوب مرهون من صاحبه إلى ما بعد غروب الشمس ، ولعن رئيس الشعب وموافقة المنافق ، والموافقة على عمل الشرّ ، وتعويج كلام الأبرار والجور في المكاييل والموازين ، وأن لا يكون في كيس الرجل أوزان مختلفة كبيرة وصغيرة لوزن النقود ، وطلب الانتقام ، والحقد ، وإبقاء أجرة الأجير أهليًا كان أو غريبًا إلى الغد ؛ بل تعطى قبل غروب الشمس ، وشتم الأصم ووضع معثرة أمام الأعمى ، واستعمال العرافة والعيافة والفال والسحر والرقاء ، وسؤال الجان ، والتوابع واستشارة الموتى ، ولبس الرجل ثوب المرأة ، والمرأة متاع الرجل ، وأخذ الطيور الحاضنة مع فراخها ، وترك سطح البيت بلا حائط يصونه لئلا يسقط أحد منه ، وزرع الحقل الواحد

صنفين ولبس ثوب مختلط صوفًا وكتّانًا وإبقاء جثّة المقتول بجناية إلى الغد إذا كان معلّقًا على خشبة لأن المعلّق ملعون من الله ، ودخول ابن زنا أو عموني أو موابي في جماعة الربّ إلى الجيل العاشر ، وإدخال أجرة ذاتية أو ثمن كلب إلى بيت الربّ عن نذر ورجوع الرجل إلى حقله ليأخذ حزمة الحصيد التي يكون نسيها فيه بل يتركها لتكون للغريب واليتيم والأرملة وكذلك مراجعة أغصان الزيتون بعد خبطها وتكميم الثور في الدراس.

الشرائع الطقسية

وهي تتضمّن مبادئ الديانة الإسرائيلية وتعاليمها وهي تتألف من ثلاثة أصول : (الأول) ، تكريس هارون أخي موسى وبنيه لخدمة الكهنوت وما يتعلّق بالشرائع والقوانين لتقديس اللاويين وتعيّن ما ينبغي إعطاؤه لهم من الأملاك والعشور والنذور وغلات البيادر وقطر المعاصر وأوائل القطاف وبواكر الأثمار وأبكار الأنعام وسائر الحيوانات. أما أبكار البنين فيؤخذ عنهم مقدار معلوم من الفضّة فداء ، لأن الله اتخذ سبط لاوي ليخدمه بدلاً عنه ؛ (الثاني) ، الشرائع والنظامات المختصة بالذبائح والقرابين وهي تفسر بتدقيق الذبائح المتنوعة التي ينبغي أن تكون من الحيوانات والطيور المعينة لطهارتها ونقاوتها وكيفيّة تقديمها لأجل المحرقة والسلامة والخطيئة والإثم مع الإبانة عن أنواع الخطايا التي تقدّم لأجلها والنهي عن تقديم البنين أو البنات محرقات ثم تفصيل أحكام النجاسات والتطهيرات المختلفة والملابس والمواكيل ومنها النهي عن طبخ لحم الجدي بلبن أمه ؛ (الثالث) ، السنن المتعلقة بالأعياد

وهي مشتملة على ثلاثة يعدونها بالسنة وهي عيد الفصح (الفطر) وعيد الحصاد وعيد الجمع (المضال) في آخر السنة وكل يوم سابع من الأسبوع يكون سبتًا لله لا يعمل فيه أدنى عمل وتكون أيضًا سنة سابعة سبتًا لا تزرع فيها الأرض ولا يقطف الكرم بل تترك الأرض عطلاً وغلات الكروم تكون مأكلاً لفقراء الشعب ووحوش البرية وهكذا كل سبعة أسابيع من السنين تكون السنة التي بعدها أي السنة الخمسين يوبيلاً وهي سنة مقدّسة لا يكون فيها زرع ولا حصاد وينادي فيها بالعتق في الأرض لجميع سكّانها فيرجع كلّ إلى ملكه وإلى عشيرته إذ لا يبقى فيها دين ولا رقيق. ولذلك ينبغي أن يكون بيع أملاكهم من بعضهم بيع استغلال من يوم البيع إلى سنة اليوبيل. وهكذا يشتريه المشتري إذ فيها يلزم أن يرجع إلى بائعه الذي هو مالكه الأصلي ولا يستثنى من ذلك إلّا بعض البيوت التي تكون داخل المدن ذات الأسوار إذا لم تفك قبل أن تكمل سنة واحدة منذ زمان بيعها.

القسم التاريخي من التوراة

وهو مقسوم إلى قسمين قسم كتبه موسى وقسم كتبه أنبياء وعلماء وأحبار اليهود ، أمّا ما كتبه موسى فيخبر عن خلق العالم ويظهر من أقواله أنه وجد قبل (٥٩٢٧) وان الله أبدع كل الموجودات التي أوجدها في ستة أيام ، ففي اليوم الأوّل خلق النور وفي الثاني الجلد أي السماء وفي الثالث جمع المياه التي غمرت سطح الأرض إلى أمكنة معيّنة وأظهر اليابس وسمّى مجموع المياه بحارًا واليابس أرضًا وأنبت فيها الأعشاب والأشجار وكلّ أنواع النباتات وفي الرابع خلق

الكواكب وفي الخامس خلق الحيتان البحرية وطيور الماء وفي السادس خلق الوحوش وكل أنواع الحيوانات والدبابات وخلق فيه الإنسان أيضًا وسلّطه على جميع تلك المخلوقات البرّية والبحرية.

الإنسان الأوّل

وأوّل إنسان خلقه الله هو آدم خلقه وأسكنه في جنّته التي أوجدها في شرق عدن وأنبت فيها كلّ شجر شهي للنظر وجيّد الثمار وأنشأ في وسط تلك الجنة شجرة الحياة وشجرة معرفة الخير والشر وأوصى آدم بالأكل من جميع الشجر ما عدا الشجرة الأخيرة وهدّده بأنه في اليوم الذي يأكل منها يموت. وذكر عن خلق حواء أن آدم اعتراه سبات النوم فاستلّ الله ضلعًا من أضلاعه وملأ مكانها لحمًا وبنى على تلك الضلع حواء وأعطاها إلى آدم امرأة بعد أن أحضر إليه كل الحيوانات البرّية وطيور السماء ليرى ماذا يدعوها فكان كلّما دعي به آدم ذات نفس حيّة اسمًا لهاثم تكلم بعد ذلك عن سبب خروجهما من الجنة فذكر أن حيّة من هذه الحيوانات أغرت حوّاء على الأكل من شجرة معرفة الخير والشر فأكلت وأطعمت زوجها آدم فكان ذلك سببًا لطردهما من الجنة وإسكانهما على سطح الأرض قصاصًا لها، وقال الله لآدم بالتعب يأكل منها كل أيام حياته فيأكل خبزه بعرق وجهه حتى يعود إلى الأرض التي أخذ منها لأنه من تراب وإلى التراب يعود، وقال لحوّاء إنه يكثر أتعاب حبلها وبالوجع تلد أولادها وإلى رجلها يكون اشتياقها وهو يسود عليها، وقاص الحيّة بلعنها وأن يكون زحفها على بطنها وتأكل ترابًا كل أيّام حياتها، ومن نسل آدم وحوّاء امتلأت الأرض من الناس وانتشروا في جميع أقطارها وبعد نزول آدم وزوجته إلى الأرض ابتدأت الخطيئة تظهر في أولادهما وأوّل أثرها كان في قابيل بكر آدم فإنه قتل أخاه هابيل حسدًا لكونهما كانا قربا قربانًا فقبل الله قربان هابيل

من أبكار غنمه ولم يقبل قربان قابيل التي كانت من أثمار الأرض فطرده الله من أمام وجهه ثم فسدت الأرض بعد ذلك . فإن نسل شئت ثالث أولاد آدم اختلط بالأشرار وامتلأت الأرض من الجرائم ، لذلك أمر الله بالطوفان العام وأهلك به جميع العالم ما عدا نوح وعائلته بواسطة فلك أمره بإنشائه قبل ذلك وآوى إليه بعد أن أصحب معه من كل أنواع الحيوانات والدبابات وطيور السماء بحسب ما أمره الله وبذلك صار أصلاً ثانيًا للجنس البشري بعد آدم ثم قطع الله عهدًا مع نوح بأنه لا يعود يضرب الأرض بطوفان آخر ، وجعل قوس قزح الذي يظهر في السحاب علامة لهذا الميثاق وأباح له ولنسله أكل لحوم الحيوانات كما يأكلون العشب الأخضر وانما لا يأكلون لحمًا بحياته (دمه) . ومن نسل نوح توزّع الجنس البشري مرة ثانية على سطح الأرض من أولاده الثلاث الذكور سام وحام ويافث . أما نسل سام فقد استقرّ في آسيا ، ونسل حام تشتّت في افريقية ، ونسل يافث استقرّ في أوروبا كما يستنتج ذلك من الإصحاح العاشر من سفر التكوين.

وبعد الطوفان بنحو (٤٢٠) سنة دعا الله إبراهيم من أور الكلدانيين وأمره أن يترك أرض ميلاده ويذهب إلى أرض كنعان لكي يعبده ويخافه فيها ووعده أن يكثر نسله ويعطيه إياها ميراثًا فأجاب الدعوة وانتقل إليها ووضع له سنة الختان علامة العهد بينهما وأن يكون ختان الطفل المولود في اليوم الثامن من مولده . ومن ابراهيم ولد اسماعيل جدّ الأنباط (على ما حققه المتأخرون) من هاجر المصرية أمّة زوجته سارة التي كانت أخته من أبيه وأخيرًا طرده هو وأمه فذهب وأقام في برية فاران ، وكان ذلك بأمر الله ثم وعد الله إبراهيم بأن يجعل لاسماعيل هذا أمة عظيمة . أما سارة فقد ولدت له إسحاق وهي ابنة تسعين سنة وكان زوجها ابن مائة سنة ولما كبر إسحاق امتحن الله إبراهيم بطلبه منه أن يقدّم ابنه المذكور ضحيّة فأطاع إبراهيم ، وحين شرع في ذبح ابنه افتداه الله بكبش أوجده له ؛ ووعده بأن يكثر نسل هذا الغلام وبهم تتبارك الأمم ، وهو

الذي ولد له يعقوب المدعوّ اسرائيل ، ويعقوب ، ولد اثني عشر ابنًا وهم آباء أسباط اسرائيل الإثني عشر ، ومنهم لاوي الذي كان منه موسى وهارون الذي كانت له ولنسله رئاسة الكهنوت . كما أن باقي السبط اختصّ بخدمة الأمور الدينية وكذلك سبط يهوذا الذي كان أشدّ بأسًا من الجميع صار صاحب السلطة الملكية الى أن انقرض حكم اليهود عقب تسلّط الرومانيين على أورشليم ، وبعد أن تكلّم موسى على التفاصيل التي جرت لإبراهيم مدّة إقامته في أرض كنعان ورحلاته خلال تلك المدة ووفاة زوجته سارة وهي ابنة مائة وسبع وعشرين سنة وزواجه بامرأة تسمّى قطوره ، وذكر ما ولد له منها ومن سراريه الأُخر ووفاته وهو ابن مائة وخمس وسبعين سنة تكلّم عمّا جرى لإسحاق وولديه عيسى ويعقوب بكل تدقيق وما جرى بينهما من التنافر وأسبابه وهروب يعقوب إلى أرض الكلدانيين من وجه أخيه وإقامته عند خاله لابان وزواجه من ابنته لينه وراحيل بعدما خدمه لأجلهما أربع عشر سنة ثم رجوعه إلى أرض ميلاده بثروة عظيمة وما جرى بعد ذلك من أولاده في حقّ أخيهم يوسف وما اتّفق له من الحوادث مع امرأة مولاه فوطيفار وبعد أن تسببت في سجنه سبع سنوات اتصل يوسف بفرعون بواسطة تفسير أحلامه وكان ذلك سببًا لتولّيه من قبل فرعون على جميع أعمال مصر ثم نزول أبيه يعقوب وسائر أولاده عليه وإقامتهم في عين شمس إلى أن أنقذهم الله من الأسر على يد النبي موسى كما تقدّم .

حالة اليهود في بلاد العرب

لم يكن اليهود في بلاد العرب مشهورين بالمعارف بل كانوا مشهورين بالمحافظة على ديانتهم بحرص شديد بلغ بهم إلى درجة التعصّب وأكثرهم كانوا يجهلون اللغة العبرية التي دوّنت بها كتبهم وتفاسيرهم فكانوا يتناقلون عقائدهم

بما يتلقّونه عن الأفواه من الأقاصيص والروايات بلا نقد ولا تمحيص ، لذلك التبست عليهم بالخرافات التي كانت من أساطير الأديان الأخرى القديمة وهي المعبّر عنها بالاسرائيليات .

فلسفة اليهود

ليس لليهودية فلسفة خاصة مطبوعة بطابعها غير نظريّات مقتبسة من تعاليم شتّى تمسّك بها اليهود بتأثير القرون فأكسبتهم الأنانية والاحتكار للهداية الإلهية . فقد زعموا أن الدين بدأ وختم بهم وأن الشرائع الإلهية واحدة لا تتغيّر ولا تتبدّل وليس هناك حاجة ماسّة لبعثة الرسل بعد موسى وإن كل الشرائع التالية له هي مواضعة بين العقلاء مصيرها الفناء والهلاك ، لأن الله تعالى اختصّ إسحاق بميراثه وباركه وفضّل ذرّيته على العالمين وجعلهم شعبه المختار.

ويعتقدون أنهم مهمًا انحطّوا إن تغلّبت عليهم الدهماء فإن الله كافل بقائهم وعزّهم ونصرهم وانه سيبعث فيهم مسيحه ليعيد إليهم السكينة والتابوت والملك ، ويملكهم بيت المقدس ويسلّطهم على رقاب العالمين وتدوم مملكته إلى الأبد .

هذا هو الأصل الذي تنبعث منه الروح اليهودية الذي يمكننا أن نتصوّر منه معنويات وفلسفة اليهود دون أن نحتاج إلى تتبّعها في كتبهم . وإذا تتبّعناها وتعمّقنا في البحث فإننا لا نجد إلا آراء متناقضة ، فمن القول بالقدر إلى القول بالجبر ومن التشبيه إلى التنزيه ومن القول بالرجعة إلى إنكارها ، والغالب على

عقائدهم التشبيه فهم يجعلون الله صورة يكلّم الناس مشافهة وينزل إلى الأرض انتقالاً ويستوي على العرش استقرارًا ويجوزون الرؤية وليس في الديانة اليهودية اسم علم لله تعالى ، وغاية ما عندهم كلمة الوهيم وهي كما لا يخفى اسم جمع . أما التوراة فقد ذكرت أهيه ويهوه ، فقد جاء فيها ان الله لما أرسل موسى إلى فرعون لإنقاذ بني اسرائيل سأل الملاك عن اسم إله اسرائيل فقال اهيه ويهوه . وقيل في مواضع أخرى بأنه لم يكن معروفًا عندهم إلا بالوصف كالقادر والكافي أما اسمه الذاتي فليس معروفًا عندهم قطّ .

انقسام اليهود

بعد موت سليمان بن داود ملك اسرائيل خلفه ابنه «رحبعام» سنة (٩٧٥) ق.م. على تخت المملكة فأقام عشرة أسباط من أسباط إسرائيل حججًا على هذا الملك صارت سببًا لتمرّدهم عليه وخلع طاعته ومن ثمّ انقسمت المملكة اليهودية إلى قسمين أحدهما مملكة اسرائيل وهي التي تألفت من العشرة الأسباط المذكورين والثاني مملكة يهودا وهي المؤلفة من سبط يهودا وبنيامين اللذين بقيا خاضعين لـ «رحبعام» .

وأوّل من تملك على مملكة اسرائيل رجل يقال له «بربعام» خاف من رجوع رعاياه إلى «رحبعام» ملك يهودا (إذا صعدوا إلى أورشليم في الأعياد ليعبدوا الله في الهيكل ويقربوا ذبائحم هناك) لذلك أقام في مملكته عجلين من ذهب وجعل رعاياه يعبدونهما تحت اسم إله اسرائيل ورتّب لهم أعيادًا يحتفلون بها وكهنة .

وقد دامت هذه المملكة نحو مائتين وخمسين سنة وثنية إلى أن افتتحها الملك «سلمناصر» ملك آشور وسبى الأسباط العشرة المذكورين فانتثر عقدهم في البلاد وتشتّتوا فيها ولم يعودوا إلى توطن أرضهم . وأرسل ملك آشور عوضهم

إلى تلك الأراضي قبائل شتّى من وثنيي بلاده ليتّحدوا مع اللذين بقوا من الأسباط وليعمّروا مدينة السامرة وأرض إسرائيل ثانية وأرسل معهم كاهنًا من سبي اليهود يعلّمهم سنّة الله فجعلوا الله بين آلهتهم وعبدوه كواحد من الأوثان الأخرى.

وأما مملكة يهودا فدامت تحت سلطة خلفاء «رحبعام» إلى سنة (٥٨٨) ق.م. ، أي إلى أن افتتحها «نابوخذنصر» ملك بابل وجلى عنها كثيرين من أهلها إلى مدينة بابل عاصمة ملكه. وبعد أن أقاموا فيها سبعين سنة رجعوا إلى «أروشليم» وجدّدوا عمارتها وأقاموا الهيكل بعد تخريبه ، وانقسموا وقتئذ إلى فرقتين : فرقة تمسّكت بالكتب المقدّسة وسمّيت الصاديكيمية ومنها انتسل السامريون والصدوقيون. والأخرى أضافت إلى الكتب المقدّسة آراء الأحبار واجتهادات الفقهاء والعلماء. ولسبب ما ظنّ فيها من القداسة دعوا الأتقياء.

وصادف في هذه الأثناء ظهور مذاهب الفلسفة اليونانية فدخلت على اليهودية وشعّبتها إلى طوائف وفرق.

طوائف اليهودية وفرقها

١. الصاديكيمية

الصاديكيمية أو –الصادوقية– هما طائفة واحدة ، زعم البعض من مؤرخي اليهود أنهم تسمّوا بذلك نسبة إلى رئيسهم صادوق الكاهن الذي كان موجودًا سنة ١٨٠ ق. م. وقد كان ميّالاً إلى مذهب «أبيقور» الفيلسوف اليوناني وهو يعترف بوجود الله ويرى التوراة منحصرة في أسفار موسى الخمسة ولا يعترف بقيام الموتى وينكر وجود الأرواح مطلقًا ملائكة وشياطين ، ولا يقول بخلود النفس.

٢. السامرة

لما عاد سكّان أرض إسرائيل من بابل وتخلّصوا من عباداتهم القديمة وأرادوا أن يتّفقوا مع اليهود على إعادة بناء الهيكل فلم يرض اليهود بذلك ، فانقاد حينئذ سكّان السامرة إلى الصادوقية وتمسّكوا بالأسفار الخمسة وسمّوها التوراة ورفضوا ما عداها. وبنوا هيكلاً على جبل «جزريم» بقرب مدينة «نابلس». ومن ذلك الحين ابتدأت العداوة بين الفئتين فلم تعامل إحداهما الأخرى إلى الآن مع أنه لم يبق من السامرة إلا نحو ماية وخمسين نفسًا وهم يتقشّفون في مظاهرهم أكثر من بقية طوائف اليهود. ويثبّتون نبوّة موسى وهارون ويوشع فقط وينكرون نبوّة غيرهم من الأنبياء الذين جاؤا بعدهم إلا واحدًا بشّرت به التوراة يأتي من بعد موسى مصدّقًا لها يحكم بها ولا يخالفها وهو المسيح.

ويصعد السامرة في كل سنة إلى رأس جبل «نابلس» ثلاث مرات للعبادة : الأولى في عيد الفصح ، الثانية في عيد الخمسين ، الثالثة في عيد المَظَالّ ويذبحون في عيد الفصح سبعة حملان. ولغتهم غير لغة العبرانيين بل هي مشتقّة من السريانية القديمة ويزعمون أن التوراة كتبت في الأصل بلغتهم ثم نقلت إلى اللغة الكنعانية وهي العبرية المعروفة إلى هذا العهد.

والسامرة يعترفون بالثواب والعقاب. ويقولون بالبعث خلافًا للصاديكيمية.

٣. الفرّيسيون

وهم أعظم طوائف اليهود انتشارًا ، وأقدمهم عهدًا ، وتدلّ نسبتهم العبرانية على معنى الإفراز. والمراد بذلك إفرازهم عن الشعب (باعتبار القداسة المنسوبة إليهم). وقد اقتبسوا الرصانة (التي كانت من أحسن مزاياهم) عن الفيلسوف «زينون». ويذهبون في القدر مذهب «كريسبوس» وكانوا يعتقدون بحرّيّة الإرادة ويقولون بكسب الأفعال. وأغلب علماء السنة من اليهود والكتّاب المشهورين كانوا جميعًا من هذه الطائفة. وقد ازدهرت آثارها على عهد «اسكندر جانيوس المكابي» الذي تولّى المملكة في سنة ١٠٤ ق.م.

٤. الآسينيون

فرقة انفصلت عن الفرّيسيين في سنة ٢٠٠ ق.م. تميل إلى الزهد والتقشّف ، والبعد عن مظاهر الترف. أخذوا فلسفتهم عن الكلبيين. ويفضّلون الصمت والوحدة ، ويكرّرون الغسل والنظافة كلّ يوم ، ويجتهدون في درس الأدب والطبّ ونشر علومها والفحص عن قوّة التوليد في الجمادات والنباتات.

وكانوا متوزّعين بين المدن والقفار يؤمنون بالسعادة الأبدية بعد الموت ويرتابون في القيامة ومن تقاليدهم الامتناع عن الزواج وتبنّي أبناء الفقراء وتهذيبهم على قواعدهم. وامتحان من أراد الدخول في زمرتهم مدّة ثلاث سنين حتى يتمرّن على عبادة الله ويلتزم بها على نفسه التزامه بالعدل وعدم إخفاء أسراره على الفرقة وأن لا يظهر عليها الغير ولو كان تحت القتل.

وكانوا يحتقرون المال ويشتركون في المتاع ويعيشون مع بعضهم ويلبسون الملابس البسيطة ولهم ولع بالكدّ والإحسان إلى الفقراء.

ويمتازون بالخضوع إلى الحكّام، والصدق في القول وعدم القسم إلا حين الدخول في الطائفة.

٥. العنانية

العنانية فرقة من اليهود يتعبّدون بالتوراة، وما جاء في كتب الأنبياء ويتبرّأون من التلمود وكتب الأحبار ويذهبون إلى تكذيبهم. ومالت فرقة منهم إلى القول بأفضلية هارون على موسى. وقالت إن موسى قتل أخاه في التيه حسدًا لأن اليهود كانت أميل إلى هارون منهم إلى موسى. واختلفوا فيه فمنهم من قال بموته وأنه سيرجع، ومنهم من قال بغيابه وأنه سيعود. ولهم أخبار وبشارات تدلّ على ظهور نبيّ من العرب. وهم يخالفون اليهود في السبت والأعياد ولا يبيحون من اللحوم سوى الطير، والظبي، والسمك، ويصدّقون «عيسى» في مواعظه وإشاراته. ويقولون تعاليمه لا تخالف التوراة بل إنها تقرّرها، وهو يدعو إليها، ويقولون إن عيسى من بني إسرائيل المتعبّدين بالتوراة ولم ينكروا شيئًا سوى الرسالة والنبوّة. ولا يعتقدون في الأناجيل أنها كتب إلهية بل هي سيرة «المسيح» وحياته. ويفسقون عامة اليهود لتكذيبهم إياه وقتلهم له ظلمًا دون أن يعرفوا دعواه ويتحقّقوها.

٦. المقاربة

وهي فرقة تقول بإنكار الصفات بحقّ الباري وتنزيهه عن سمات الحدوث. وتقول عنه لم يكلّم الأنبياء مباشرة بل كلّمهم بواسطة ملك اختاره لذلك وقدّمه على جميع الخلائق، واستخلفه عليهم وقالوا كلّمَا ورد في الكتب السمَاوية من وصف للذّات الإلهية فمَا هو إلا خبر عن ذلك الملك وإلا فإن الله لا يجوز أن يوصف بوصف هو من علائق الحدوث. فالذي كلّم موسى هو ذلك الملك، والشجرة المذكورة في التوراة هي ذلك الملك. ولم يقتصروا على ذلك بل تأوّلوا جميع النصوص الواردة في الكتب المقدّسة من طلب الرؤية لله ومشافهته لبعض عباده ومجيء الله وطلوعه في السحاب وكتابة التوراة بيده واستوائه على العرش والبكاء على طوفان نوح حتى رمدت عيناه وضحك الجبّار حتى بدت نواجذه ووصف الله على صورة آدم. قالت: كلّ هذه النصوص محمولة على صفات ذلك الملك. وقالت يجوز على الله أن يبعث ملكًا واحدًا من جملة خواصّه ويلقي عليه اسمه ويقول هذا رسولي، ومكانه فيكم مكاني، وقوله وأمره قولي وأمري وظهور عليكم ظهوري، كذلك يكون حال ذلك الملك.

اليهود بعد خراب الهيكل

لم يبق لليهود من مؤسساتهم بعد استيلاء الرومان على بيت المقدس إلا مدرسة «طبرية» و«طبرية» مدينة بناها هرودوتس على اسم «طباريوس قيصر» وكان من معلّميها حاخام اسمه «يهودا» جمع تقاليد اليهود بين سنة ١٩٠ وسنة

٢٢٠ ب. م. في كتاب سمّاه «المشنه». وفي وسط هذه المدرسة وضعت الحركات المستعملة الآن في اللغة العبرانية وضبطت أيضًا أسفار العهد العتيق وجميع ما كتبه أحبار اليهود وربيّوهم وحكماؤهم من التفاسير والشروح الكثيرة للعهد العتيق وهي لمؤلفين عديدين في عصور متفاوتة يبلغ مجموعها عشرين مجلّدًا وهي الكتب التي تعرف بـ «التلمود».

وهذه الكتب محشوّة بالأقاصيص والأحاديث المبالغ فيها والحكايات المخترعة وتصوير غرائب المخلوقات التي لا توجد إلا في مخيّلة واضعيها.

ولما كان الاطّلاع عليها مفيد لنا كثيرًا ويقف بنا على الروايات الإسرائيلية التي كان لها تأثير في تربيتنا الدينية والعقلية فلا نرى بأسًا من إيراد طائفة منها نقدّمها مثالاً لقرّاء هذه الدروس.

بارهيتي

كان يوجد طير اسمه «بارهيتي» عظيم الحجم إذا بسط جناحيه تنكسف الشمس كسوفًا تامًّا. سقطت بيضة من عشّه فكسرت (٣٠٠) شجرة من شجر الأرز (الصنوبر) وغرقت ستين ضيعة.

حكاية الربي حفيد حنّا

حكى الربي حفيد حنّا قال: رأيت ضفدعة على حجم ضيعة فيها ستّون بيتًا فجاءت حيّة وبلعت الضفدعة ثم جاء غراب وابتلع الحيّة والضفدعة مثل ما تبلع حبة عنب وطار وحطّ على شجرة.

حكاية الربي سفراء

قال الربي سفراء : كنت مرة عابرًا في سفينة فرأيت سمكة رفعت رأسها فوق سطح الماء ولها قرون وعلى القرون كتابة تقول أنا أصغر خلق الله في البحر وكان طولها ثلثمائة فرسخًا فبلعها حيوان اسمه «بويوثان» دفعة واحدة. وخاف بعض الربية الذين كانوا معي من إنارة البحر نورًا مثل الشمس ولما نظرنا رأينا انه نور عيني «بويوثان».

البهموت

قالوا إن الله خلق هذا الحيوان على عظمة هائلة وبعد أن وجد خاف منه إذا كثر وتزايد أن يفسد العالم فقطع عنه قوة التوليد. وهو يأكل في يوم واحد العشب على ألف جبل. فلو انتقل من مكانه لأكل كلّ عشب الدنيا في برهة يسيرة ، ولكنّه يثبت في مكان واحد وينام ليلاً وكلّ صباح يجد عشبًا جديدًا ينبت حوله عوضًا عن ما أكل بالأمس. وأما شربه فيشرب في يوم واحد من الماء ما يعدل ماء الأردن في ستة أشهر وإذا عطش يشرب ضعف ذلك. وروى آخرون أنه يشرب من نهر خارج من عدن اسمه «يوال».

نهر السبت

يوجد نهر يسمّى السبت يجري ستة أيام وينقطع في السابع ويكون في الستة أيام عميقًا سريع الجريان لا يستطيع أحد أن يقطعه وفي اليوم السابع يجفّ تمامًا.

وحكى الربي «مردخاي يوسف» قال : كان عند بعضهم قدح من رمل النهر وكان هذا الرمل لا يهدأ ستة أيام ويسكن في اليوم السابع.

حكاية عوج

يقولون إن «عوج» ملك «باثان» ولد قبل الطوفان ونجا منه ووقع خلاف بين العلماء في كيفيّة نجاته. فنهم من قال: بزيادة طوله، مشى بجنب الفلك حتى رجعت المياه عن الأرض. ومنهم من قال: ركب السفينة مثل ما يركب الرجل الفرس. وكان نوح يقوته كل يوم وأنكر بعضهم صحّة ذلك لكثرة أكله لأن نوحًا أضافه مرّة فأكل ألف ثور وألف طير من الطيور البريّة وكان طول قدمه أربعين ميلاً. وكانت قامته مناسبة لذلك.

أحكام التلمود

أما قسم المعاملات من التلمود ففيه من الصور والاستنباطات ما لا يختلف كثيرًا عن ما هو مدوّن في كتب الفروع من الأحكام الفقهية عندنا. ومن هذه الصور بحثهم في حكم قتل البرغوث أو القملة في يوم السبت وهم بين محرّم وجائز.

وكذلك الخلاف في وضع المحرمة في الجيب يوم السبت هل هو جائز أو محرّم؟ فالمحرّمون يقولون إن وضعه في الجيب حمل والحمل ممنوع في ذلك اليوم فحمله حرام بلا خلاف.

أما المجوّزون فقد قالوا بحرمة وضعه في الجيب ولكن لو شدّه على الحقوين لكان حكمه حكم الزنار وحينئذٍ يصير وضعًا ولباسًا لا حملاً وبهذه الصورة تنتفي الحرمة.

سبب إخفاق اليهود في بلاد العرب

قدّمنا أن اليهود تمكّنوا من تهويد «ذي نواس» الحميري وقلنا إنه صار لهم شأن في بلاد العرب بعد أن تهوّد ، لكنهم علموا أن النصرانية تزاحمهم على السيادة في تلك البلاد فعمدوا إلى إغراء «ذي نواس» بالمتنصّرين من قومه وبالغوا في تصوير ما ينشأ عن انتشارهم في اليمن حتى أرعبوه ، وهو طبعًا لا يرهب من النصرانية كدين ولكن يخاف أن تكون مطيّة للرومانيين يركبونها فينتشر نفوذهم بانتشارها في البلاد.

وقد كانت عناية الرومانيين بتنظيم مراكز الدعاية والبعثات لنشر النصرانية غير خافية على أحد. فقد شرعوا منذ سنة (٣٤٣) ب.م. في إقامة مراكز عديدة للتبشير وكانت بلاد نجران من أهمّها وقد نجحت في تنصير العرب نجاحًا عظيمًا.

لذلك أسرع «ذو نواس» لاستئصال شأفة مخاوفه لا بالوسائط السلمية ولكن بالطرق الوحشية التي استحقّ عليها غضب الله ومقت التاريخ فإنه أمر بحفر «الأخدود» وإشعال النيران ذات الوقود وألقى فيها المتنصرة من النجرانيين فذهب أولئك المساكين شهداء هذه الفاجعة الأثيمة كما حكاها لنا القرآن في سورة البروج. وقد ظنّ «ذو نواس» والذين أغروه من أحبار اليهود على ارتكاب هذه الفعلة الذميمة أن يقفوا سدًّا حائلاً دون تقدّم النصرانيّة في بلاد العرب وتكون مجالاً فسيحًا لليهودية وحدها ، لكنهم أخطأوا التقدير وأساؤا إلى البلاد العربية مساءة لن تغفر لهم. فقد أثاروا بهذا التدبير السيّئ حفائظ الدول النصرانية المجاورة فجاءوا يثأرون لمن قتل من إخوانهم عدوانًا وظلمًا. ساقت الحبشة جيوشًا جرّارة على اليمن وعاقبت الظالمين عقابًا صارمًا بعد أن استعبدت

اليمَانيين وقضت على استقلالهم قضاء مبرمًا. ومن ذلك العهد ضعف شأن اليهودية السياسي في اليمن وكذا في بلاد العرب ولم تقم لهم فيهاما قائمة بعد وبقي نفوذهم منحصرًا حول مدينة يثرب إلى أن قوّضوه بأيديهم تمامًا بمَا أحدثوه من المشاكل وما أقاموه من المعاكسات في وجه الإسلام.

الفصل الثاني

الديانة النصرانية

النصرانيّة : وتسمّى أيضًا المسيحيّة ، وهي دين إصلاحي قام به المسيح عيسى بن مريم ، عليه السلام ، «لهداية خراف بيت إسرائيل» كما قال ذلك هو عن نفسه . فثقلت تعاليمه على عبّاد التقليد ، والمستفيدين من بني إسرائيل فتآمروا عليه ، وما زالوا به يكيدونه حتى حملوا حاكمهم «بلاطس» النبطي على تقرير محاكمة المسيح أمام محكمة يهودية ، لآراء زعموا أنه خالف فيها التعاليم التي عليها جمهور اليهود ، فتمّ لهم ما أرادوا ، وأسكتوا ذلك الصوت الصارخ بالهداية الإلهية في «أورشليم» ولم يسكتوه فيها حتى ظهر عاليًا في الأقطار الأخرى على لسان الحواريّين ، الذين تفرّقوا في العالم للكرازة بالأناجيل ، وتعليم الخليقة .

ولا شكّ أن مرجع النصرانية في مآخذ عقائدها يعود إلى أصلين : الأوّل ، الأناجيل التي دوّنها الحواريّون بعد المسيح . الثاني : المجامع المسكونية التي عقدتها طوائف النصرانية سواء لتقرير العقائد أو لرفع الخلافات ، أو لتحقيق الرغبات السياسية .

الأناجيل

أما الأناجيل فكانت كثيرة في الأصل. فكلّ من وصله إنجيل يقول عنه كتب بإلهام. وقد فسّروا الإلهام بنزول روح القدس على الحواريّين، وإرشادهم إلى تدوينها، لتثبيت الإيمان في قلوب أهل الدين منهم.

ولم يشتهر من الأناجيل بعد مضي القرون الأولى على عهد المسيح إلا الأربعة المعروفة التي قرّرتها «المجامع المسكونية». وأُهملت الأخرى لمنافاتها للعقائد أو الطقوس التي قبلتها تلك المجامع أو رفضها الآباء الأوّلون الذين اختارتهم «الكنيسة». أما الأناجيل الأربعة المقرّرة فقد دوّنت في تواريخ مختلفة على هذا الترتيب:

إنجيل «متى» كتب في سنة (٣٧) وقيل في سنة (٣٠)؛ إنجيل «لوقا» كتب في سنة (٥٣)؛ إنجيل «مرقس» كتب في سنة (٥٦) وإنجيل «يوحنّا» كتب في سنة (٦٨).

أما اللغة التي دوّنت فيها هذه الأناجيل فإنها لم تزل غامضة. لأن أغلب التراجم الموجودة بين أيدينا منقولة عن النسخ اليونانية وهي المعتبرة عند أغلب علماء الأديان.

المجامع المقدّسة

تنقسم المجامع المقدّسة إلى ثلاثة أقسام وهي : مجامع عامّة ويقال لها «مسكونية» ، ومجامع مليّة ، أي طائفيّة ، ومجامع إقليمية ، أي محلية ، ولكن المجامع المعتمد على مقرّراتها هي التي سنذكرها هنا على اختلافها مع إثبات تواريخها :

١- المجمع النقاوي المنعقد بأمر الملك «قسطنطين» سنة (٣٢٥) ضد إيمان «الأرارسة» وتقرير أساس عقيدة اللاهوت المسيحي.

٢- المجمع الذي التأم في سنة ٣٦٤ وقرّر نحو ٦٠ قرارًا تختص بالواجبات المسيحية.

٣- المجمع القسطنطيني : المنعقد بأمر الملك «تيودسيوس» سنة (٣٨١) لتثبيت عقيدة لاهوت روح القدس بأن المسيح ذو جسد حقيقي ، ونفس حقيقية ، وأنه إله تام ، وإنسان تام.

٤- المجمع القرطاجني المنعقد سنة ٣٩٧ للنظر في نظام الكنيسة وعماد الأطفال وتقرير الكتب الموضوعة.

٥- المجمع الأفسسي : المنعقد بأمر الملك «تيودسيوس» الثاني سنة (٤٣١) لإبطال تعليم «نسطورس» و«بيلاجيوس» وتقرير عقيدة الاتحاد الجوهري بين الطبيعتين في المسيح ، وبأن الإله والإنسان هما واحد ، وبأن مريم والدة الإله.

٦- مجمع اللّصوص : تعدّه الكنيسة مجمعًا فرعيًّا بين الرابع والخامس ، انعقد بأمر الملك «تيودسيوس» الثاني في مدينة «أفسس» سنة (٤٤٩) قرّروا فيه عقيدة أن المسيح ذو طبيعة واحدة ، ووجه تسميته باللّصوص أن عامة الرهبان

ثاروا في نهايته على بطريارك القسطنطينية «افلافيانوس» وضربوه حتى مات.

٧- المجمع الرابع: (الخلكيدوني) المنعقد بأمر الملك «مرسيانوس» سنة (٤٥١) لتقرير عقيدة أن للطبيعتين في المسيح غير ممتزجتين وغير منفصلتين وأن المسيح هو واحد في طبيعتين وليس من طبيعتين.

٨- الخامس: المجمع القسطنطيني الثاني، المنعقد بأمر الملك «يوستيانوس» سنة (٥٥٣) ضدّ عقيدة الطبيعة الواحدة في المسيح.

٩- المجمع القسطنطيني الثالث: المنعقد بأمر الملك قسطنطين «يوغناتوس» سنة (٦٨٠) تثبيتاً لوجود نشأتين في المسيح.

١٠- مجمع القسطنطينية: المنعقد سنة (٦٩٢) وهو ملحق بالمجمعين الخامس والسادس التام لتثبيت مساواة سلطة القسطنطينية وروما ولكن كنيسة «روما» لم تقبله وهو أساس الاختلاف بين الشرقيين والغربيين.

١١- مجمع ثان بين السادس والسابع: عقد في القسطنطينية بأمر الملك قسطنطين الخامس سنة (٧٥٤) وفيه تقرّر تحريم اتخاذ الصور والتماثيل في العبادة، والذخائر وطلب الشفاعة من العذراء مريم في جميع الكنائس الشرقية. وقد تأيد حكم هذا التحريم بقرار مجمع.

١٢- «جنانتيلي» سنة (٧٦٧).

١٣- ومجمع «فرانكفورت» سنة (٧٩٤).

١٤- المجمع النقاوي الثاني: المنعقد بأمر الملكة «ايريني» سنة (٧٨٧) لإبطال تحريم وتكسير الأيقونات.

١٥- المجمع الانجليزي الفلمنكي: المنعقد في انكلتره سنة (٧٩٤) لتحليل استعمال الأيقونات.

١٦- مجمع القسطنطينية: المنعقد سنة (٨٦٩) لتثبيت ثلاث عقائد: الأولى بأن الانبثاق كان من الأب والابن، ثانياً ان كل دعوى يجب أن ترفع بالآخرة إلى «روما»، ثالثاً تقرير سلطة «روما».

١٧- المجمع القسطنطيني : المنعقد في سنة (٨٦٩) أيضًا ، وفيه تقرر أن الانبثاق من الأب وحده. وفيه تم الانشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية وصار كل من هذين المجمعين معتبرًا عند أصحابه كالمجمع الثامن (المسكوني) وكل منهما أثبت المجامع المسكونية التي قبله.

١٨- المجمع «الاتيراني» الرابع : المنعقد سنة (١٢١٥) وفيه وقع تثبيت الاستحالة والغفرانات ، وسمح باستئصال «الهراتقة» (الكفّار).

١٩- مجمع فلورنس المنعقد سنة ١٤٣٩ للتقريب بين الكنائس الشرقية والغربية.

٢٠- مجمع ترنت المنعقد سنة ١٥٣٧ لتقرير أن ما يجب الإيمان به متضمن في الكتاب المقدس.

ويظهر لنا من الملخّص الذي ذكرناه عن المجامع ، أن لمقرّراتها الشأن الأول في وضع العقائد المسيحية التي تدين بها أغلب الطوائف النصرانية التقليدية الموجودة لهذا العهد.

دعاة المسيحية الأوّلون

لا خلاف في أن مرجع الفضل في شيوع الديانة المسيحية في العالم كان للمعلّمين «بطرس الحواري» رئيس تلامذة المسيح و«بولس» الرسول. ولم تظهر هذه الدعاية بوضوح تامّ إلا حوالي سنة (٤٢) ب. م. فبواسطة انقطاع هذين الداعيتين لنشر تعاليم المسيح، أُقيمت الكنيسة المسيحية فوق حبات القلوب وانتشرت مبادئها وتعاليمها في الأقطار. واستمرّ ذلك (٢٥) سنة كاملة، بحيث لم تمض سنة (٩٧) ب. م. حتى أصبحت للنصرانية منزلة ممتازة بين معتنقيها من الرومانيين بالرغم من الصعوبات والمعارضات التي كانوا يلاقونها من أنصار التقاليد ورجال الدولة.

فقد كان ولاة الأمور من الرومانيّين يمقتون ويمتهنون كل من يتمسّك بهذا الدين أشدّ مقت ويعاملونهم أسوأ معاملة. وقد روى لنا المؤرخون حكايات عن ذلك تقشعرّ منها الجلود فقد كانوا يجمعون المتنصّرين لامتحان إيمانهم ويبعثونهم إلى مواقد النيران ومرابض الأسود، فيذهب هؤلاء المساكين إلى احتضان مناياهم بشجاعة خارقة وأقدام ثابتة ممّا أوجب إعجاب وحيرة القياصرة الطغاة أمثال «طيباريوس» و«كاليغولا» و«كلود» الذين تداولوا عرش الإمبراطورية الرومانية بعد القيصر «اوغستوس»، وهم مع شدّة قساوتهم وتصلّبهم ضد المتنصرين لم يكن ما فعلوه معهم شيئًا مذكورًا في جانب الفوادح التي كان يرتكبها «نيرون» الظالم و«ديبوكليان». فقد استمرّ الفتك بالمتنصرين عصرًا طويلاً تحت حكم القياصرة. وكان أولئك المتنصرة يستقبلون الخطوب بإيمان قويّ وعقيدة راسخة ويقدّمون نفوسهم العزيزة بسخاء ثمنًا للاحتفاظ بدينهم الجديد. إلى أن جلس

الإمبراطور قسطنطين على عرش «روما» سنة (٣٠٦) وكان داهية حكيمًا بعيد النظر ، مقدّرًا شدّة احتياج الرومانيين إلى دين جديد يحضّهم على التمسّك بمحاسن الخلال ومحامد الخصال ويخلّصهم من البطر والشهوات الرديئة التي انغمسوا فيها فأفقدهم كل نخوة وشهامة . ولم تعد تهمّهم مصلحة البلاد إلى غير ذلك من أسباب الانحطاط التي كان يخشى منها على حياة «روما» المتفسخة ، فقد اضطرّ حين جلوسه على العرش بسبب انحطاط أخلاق الشعب إلى خوض غمار حرب طاحنة داخلية دامت سبعة سنين ، ولم يكد يتخلّص منها حتى قرّر الاعتراف بالنصرانية كدين تجوز ممَارسته مع الطقوس الرومانية ، فأصدر بذلك أمرًا من مدينة «ميلانو» سنة (٣١٣)م. ضمن فيه للمسيحيين حريّة الاعتقاد والعبادة واعتبار يوم الأحد من أيام الراحة العمومية .

وقد ذهب مؤرّخو النصرانية في تعليل هذا الانقلاب العظيم في سياسة الامبراطورية الرومانية إلى ذكر أعجوبة خرافية ، كأنّ الأسباب الاجتماعية التي ذكرناها لم تشبع نفوسهم فمالوا إلى إيراد الخوارق . والنفس الضعيفة مولعة بالتصديق بالأعجايب ، فذكروا أن قسطنطين بينمَا كان يصلّي مرّة إلى الشمس وهي إلهه الذي يعبده ويتوجّه إليه فظهر له في الأفق صليب مكتوب عليه «بهذه العلامة تنتصر». ومن ذلك اليوم اتخذ الصليب شعارًا له في حروبه . مع أن الصليب في ذلك العهد لم يكن شعارًا مسيحيًّا بل كان شعارًا رومانيًا ، كما قدّمنا في بحثنا عن الديانة الرومانية .

ومهما كانت الأسباب الباعثة على اعتبار النصرانية كدين رسمي للرومان فإن أمر «ميلانو» يعدّ كأساس لاتخاذ النصرانية وجعلها دينًا للدولة . ومن ذلك العهد صار الإقبال عليها عظيمًا وأخذ الرومانيون يمارسونها ضمن طقوسهم داخل هياكلهم . وبمرور الزمن تحوّلت تلك الطقوس إلى تقاليد مسيحية يمارسها المتديّنون المسيحيون وهكذا بالتدريج صار الهيكل الروماني كنيسة مسيحية .

امتزاج النصرانية بالرومانية

ليست الصعوبة في توحيد الطقوس ، ولكن في مزج العقائد بعضها ببعض والإيمان بالقضايا المختلفة المتضادّة ، لأن الجمع بين عقائد الساميين والآريين كان غريبًا وربّمَا عدّ في بداية الأمر مستحيلاً وهو الواقع . فإن الروح السامية تنكر أن يوجد من البشر إله عكس الروح الآرية التي تؤمن بوجود الآلهة وأنصاف الآلهة . فالأولى لا تستطيع أن تؤمن بالمسيح ما لم يكن إنسانًا معلّمًا وهاديًا . أما الأخرى فلا سبيل لإيمانها به ما لم يكن إلهًا أو نصف إله ، لهذا وأمثاله انقسمت تعاليم النصرانية الأولى إلى أصلين متقابلين أحدهما الإيمان بوجود إله منزّه عن النقائص والحدوث والمادة ولواحقها يصطفي لوجيه ونقل تعاليمه إلى خلقه من يشاء من عباده . وأن المسيح وجد من هذا القبيل . والآخر يجزم بالانبثاق والاتّحاد والحلول ويعتقد بظهور الطبيعتين في مشيئة واحدة .

وغير خافٍ أنّ من هذين الأصلين تفرّعت جميع المذاهب النصرانية القديمة والحديثة وسنذكر هنا أهمّ ما ظهر منها لنقف على سرّ تطوّر تينك العقيدتين وامتزاجها في عقلية الذين دانوا بهما فيمَا بعد .

المذاهب النصرانيّة

١. الغنوسيوسية

نسبة إلى «اغنوسيوس» اسقف انطاكيا ، وهي كلمة يونانية معناها (المعرفة) ، ظهر هذا المذهب في عهد المسيحية الأوّل ، أيّام الرسل ، في أواسط القرن الأول بعد صعود المسيح ، أي حين كانت الفلسفة اليونانية الباحثة في ما وراء الطبيعة متسلّطة على أفكار وآداب الشرق. وقد مزجت هذه الطائفة ذلك البحث بالتعاليم المسيحية وجعلوها شيئًا واحدًا. غير أنها رفضت الشريعة الموسوية ، مع أنها كانت أساسًا لتعاليم المسيح ، وقالت عن المسيح إنه كان واسطة بين الله والناس ، أرسل لتخليصهم من الشيطان. ومنع تسلّط المادة على الروح لئلا تتأثّر بشيء منها.

ومن مزاعم هذه الطائفة أن الدين ليس من صنع الله الأعلى ، وانما هو صنع آلهة أشرار ، أذعنت له ، والقبائح والشرور لا تصدر إلا عن الموادّ التي ليست من صنع الله.

واستنبطت هذه الطائفة من العقائد التي قررتها شرائع وأحكامًا ملائمة لها. منها : الامتناع عن الزواج ، ومن جميع الحظوظ التي تتوق إليها النفس. ولهم مجاهدات كثيرة ، يرمون بها لفناء الجسم وتخليص الروح بواسطة الرياضات الشاقة كالصيام ونحوه.

٢. الدوستينية

هي طائفة متفرعة عن «الغنوسيوسية» وهي تنكر اتّحاد الذّات الإلهية بشخص بشري اتحادًا حقيقيًّا ، واعتقدت أن المسيح كان جسدًا بالصورة فقط. وأنه تألّم ومات ، بحسب الظاهر فقط لا بالحقيقة.

٣. الأبيونية

نشأ هذا المذهب في القرن الأول للمسيح وكان معاصرًا لـ «بولس» الرسول وأنكر عليه تعاليم رسالته أشد الإنكار. وهو يعترف بإنجيل «متّى» ، وينكر منه الإصحاحين الأولين. ولا يقرّ من كتب العهد العتيق إلا الأسفار الخمسة «التي كتبها موسى». وكان ينفر من اسم «داود» و«سليمان» و«أرميا» و«حزقيال».

أما ما يتعلّق بالإيمان بالمسيح عند «الأبيونية» فأساسه قائم على إنكار انبثاق المسيح من روح القدس مع الاعتقاد الجازم بأنه ولد من أبوين بشريين حسب الطبيعة البشرية ، مريم العذراء ويوسف النجّار. وكذلك القول بأن المسيح سيظهر مرة أخرى ويعيد المجد والعظمة إلى «أورشليم» ويجعلها تحت ملكه. ومن قواعد هذا المذهب اتّباع شريعة موسى الطقسية ، والقول بأن لا نجاة ولا خلاص إلا بالختان ، والاغتسالات ، وتحريم أكل اللحوم.

وقد استقام هذا المذهب إلى غاية الجيل الرابع ثم انقرض في عهد «نيودوس».

٤. النيقولاوية

نسبة إلى «نيقولاوس» أحد الشمامسة السبع الذي ظهر في القرن الأول من الميلاد. أما أصحاب هذا المذهب فإنهم يقربون الذبائح للأوثان ، ولا يرون اتّباع الحدود ويزعمون أنّ من عرف الله والمسيح يخلص من العذاب مهما كانت آثامه لاعتقادهم أن المسيح فدا حياته لحريّة الشعب ومن لوازم هذا الفداء التحرير من أحكام الشريعة وتخليص الناس من القيود.

وقد أبطلوا حقّ الملكية ، وجعلوا الأشياء على الشياع بينهم. وهم يقدّرون حريّة الأمم والأديان كافة.

٥. الماركونية

مذهب «ماركيون» الذين نبغ في أواسط الجيل الثاني للميلاد ، ومولده مدينة «سينوب» ، وكان أبوه أسقفاً ، فحذق الديانة وتعمّق فيها ، ثم سافر إلى «روما» سنة (١٣٩) ب . م . وكان البابا «هجنوس» جالسًا إذ ذاك على عرش البابوية . ولما هلك ، كان «مركيون» من المرشحين لتقلّد هذا المنصب الرفيع .

ولقد ذهب «ماركيون» في عقائده إلى القول بالأصول الثلاثة الأولية ، وهي :

١ – الخير وهو أصل سام غير منظور.

٢ – الخالق .

٣– المادة أو (الشيطان) وهو أصل الشرّ.

يعتقد «ماركيون» بأزليّة المادّة ، ويقول : إن الخالق ، والإله الصالح متضادّان ويذهب إلى القول بأن الإله الحقيقي ولد أرواحًا كثيرة وهو الذي أنزل شريعة اليهود ووعد بمجيء المسيح ، على لسان الأنبياء ، وقد ظهر فعلاً ، وهو الفادي الحقيقي ابن الإله الصالح الحقيقي. وإنه وجد على الأرض بصورته البشريّة ، يحرّر النفس ويهدم الظلم.

ويروى عن أصحابه القول : بأن هذا العالم غنيمة للشر ، لذلك يريدون ويتمنّون الموت ، لأنّه يخلّصهم على زعمهم من الشرّ. وهم يتعمّدون حمله مرّات ، ويقولون في ذلك : إن الخطايا والآثام التي تقترف كلّ يوم تغفر في هذا السرّ المقدّس. وقد ذهب الى استحسان عدم الزواج ، وأنكر تعميد المتزوّجين وأباح للنساء تعميد النساء ، وحرّم أكل اللحم وشرب الخمر.

وقال في العهد القديم هو وحي الخالق إلى اليهود وأنكر انه كتب بإلهام ، أما العهد الجديد فلم يعتبرف منه إلا بإنجيل «لوقا» عدا الإصحاحين الأولين منه ، وأنكر كذلك بعض رسائل «بولس» ولم يسلّم إلا بفقرات منها .

وقد ألف «مركيون» كتابًا دوّن فيه أصول مذهبه وآراءه واستند في كتابه القسم الإلهي منه إلى انجيل «لوقا» بعد أن حذف البشائر الأولية منه ، وقد زعم أصحابه أن «المسيح وبولس» هما اللذان ألّفا هذا الكتاب.

٦. الوجينية

هو اسم لطوائف من النصرانية ظهرت في القرن الثاني للميلاد. وهي تنكر الإنجيل وجميع تصانيف «يوحنا». وتقول : إن المسيح عليه السلام ترك التعاليم في الصدور ولم يترك أبدًا كتابًا.

٧. البرديصانية

مذهب ينسب إلى «برديصان الرهاوي» ، وقد ولد في «ارفه» سنة (١٧٠) ب. م. وكان ذكي القلب فصيح اللسان ، قويّ الحجّة ، بنى مذهبه على القول بوجود إلهين اثنين إله الخير وإله الشرّ وتكلم عن المسيح فقال عنه : ليس جوهرًا أرضيًا وانما هو جوهر سماوي وأنكر قيام الموتى.

وقد نظم قصائد غرّاء في اللغة السريانية ضمّنها آراءه وأفكاره وكان الناس يتناقلونها عن بعضهم ويترنمون بها في مجالسهم وكان لها أشد تأثير في نفوسهم.

وقد تصدّى له القديس «افرام» وناقشه في مذهبه وفند كثيرًا من آرائه. لكن رغم هذا كله فإن مذهبه انتشر في العراق وجزيرة العرب وسوريا وفلسطين ، وكان أكثر أصحاب المذاهب اتّباعًا في هذه الأقطار.

٨. السابليوسية

هي مذهب «سيبليوس» الذي ظهر في القرن الثاني. وكان يقول بالأقانيم الثلاثة ويرى في كل أقنوم خاصية تنافي الألوهية.

٩. السمساطية

هي مذهب كان يعرف في الأصل بـ «المونوريخية» ترأسها «تيوتونيوس» وبعد وفاته انتقلت الرئاسة إلى «بولس» السمساطي فاشتهرت به. وأساس هذا المذهب القول بوحدانية الله، وتنزيهه والاعتراف بأن المسيح كان إنسانًا.

وقد قام هذا المذهب على إنكار «السابليوسية» وإبطال القول بالأقانيم الثلاثة.

١٠. المونتانوسية

نسبة إلى «مونتانوس». وهو من الفريجيين كان يزعم أنه وجد لإكمال الآداب التي جاء بها المسيح عليه السلام للناس. فحرّم الشهوات، والزنا، وتعلّم الفلسفة والفنون الجميلة، وفرض على الناس الزهد والتقشف، وتبعه خلق كثير ومذهبه شاع كثيرًا في المشرق.

ومن الذين اشتهروا بالنبوغ في هذه الطائفة «ترتوليانوس» الشهير بالفصاحة. وله تآليف دينية انتصر فيها إلى مذهبه.

١١. الولوزيونية

ويُقال لها أيضًا «الأورولوجيونية» وهم طائفة تشعبت عقائدها عن «المونتانوسية» ثم تفرقوا عنها بالزيادة في التضييق والتشديد وعاملوا نفوسهم

بأشد صنوف الحرمان ، من لذائد الحياة والتعذيب . فكانوا لا يكتفون بقمع نفوسهم عن الشهوات ، بل يبالغون في ذلك وربّمَا تخلّصوا من بعض أعضائهم وحواسْهم بالبتر والاستئصال وغير ذلك من ضروب القسوة والشدّة والأعمال المنافية لأسرار الطبيعة وروح الدين.

١٢. الدوستية

هي طائفة من المسيحية ظهرت في القرون الأولى تقول بإنكار اتحاذ الذات الإلهية بشخص بشري اتّحادًا حقيقيًّا. وتذهب إلى القول بأن جسد المسيح كان جسدًا بالصورة فقط وانه تألّم ومات بحسب الظاهر لا الحقيقة.

١٣. الكرناثوسية

نسبة إلى «كرناثوس» صاحب هذا المذهب كان متّفقًا في الأصل مع «الدوستية» في القول بعدم وجوب التصديق بما لا يمكن فهمه ولم ينكروا شيئًا على طبيعة المسيح البشرية ولا أثبتوا له أنه عمل على التحقيق كلما قيل عنه في الأناجيل ولم يستطيعوا أن يوافقوا بين ما حدث له من الصلب والإهانة وبين القول عنه إنه ابن الله.

وقد خالف «الكرناثوسية» «الدوستية» في إنكار لاهوت المسيح عليه السلام ، ثم زعموا أن المسيح الذي اعتبروه منبثق عن اللاهوت هو الذي نزل على الانسان «يسوع» حين تعميده ودام معه إلى وقت صلبه ثم تركه وعاد إلى السماء.

١٤. الأريوسية

هي مذهب «أريوس[1]». ويقال لأتباعه الأرارسة، ومفرده الأريس، وفي كتب اللغة انه اسم للأكار وجمعه الأريسيون. ويقال أيضًا: الأريسي، وجمعه أريسيون وأراريس وأرارس، وهي جموع غريبة. وقال في التاج أرارسة تنصرف وأرارس لا تنصرف. كان «أريوس» شمّاسًا في اسكندرية ظهر في أوّل القرن الرابع من الميلاد وكان من الذين يعلمون الناس نفي الألوهية عن المسيح، ويقولون عنه ليس من ذات الله، وانه مسبوق بالعدم ضرورة. لأنه مولود، وانه جائز الوجود وإن الحكمة في وجوده أن يكون واسطة في إنقاذ العالم من الخطيئة. وكان على مذهبه جهابذة كثيرون من رجال الدين والشعب.

وحدث بسبب تعليم أريوس العقائد على أصول التوحيد والتنزيه خلاف شديد بينه وبين «الكساندروس» مطران الإسكندرية وكان عازمًا على منعه من نشر التعاليم المخالفة للروح اليونانية فلم يعبأ به أريوس. فأضمر المطران له الشرّ، وعدل في معاملته إياه عن المحاسنة، إلى المخاشنة، ثم في النهاية دعا أساقفة أبرشيته إلى عقد مجمع لمحاكمة أريوس.

فانعقد المجمع الإسكندري سنة (٣١٨) لمحاكمة أريوس على تهمة إنكار لاهوت المسيح، ولما سئل أريوس عن التهمة الموجّهة إليه لم ينكرها بل اعترف بها وأثبتها على نفسه بحجج. غير أن المجمع أبى أن يصغي إليها. فحكم عليه بالحرمان ومن ذلك الحين أخذ أريوس يتطاول على الإكليروس ويجابهه بالإنكار. ولم تكن الصراحة مألوفة بين الناس. فشقّ ذلك على البطريارك، ودعا الأساقفة في سنة (٣٢١) إلى عقد مجمع ثان، فاجتمع منهم مائة

---

١) أريوس (ARIUS) هو قسّ الإسكندرية (٢٥٦-٣٣٦م).

أسقف ، ليبيين ومصريّين وحكموا على «أريوس» بالابتداع والانفصال عن الكهنوت . فلم يعبأ به ولم يزده هذا الحكم إلا تصلّبًا في الرأي وقوّة في العقيدة .

وكتب البطريارك «الكساندروس» إلى عامة الكنائس يعلمهم بصدور قرار المجمع ضد أريوس وابتداعه وتحريم تعاليمه وعلى إثر ذلك هاجر «أريوس» إلى فلسطين وانقطع هناك للكتابة ضدّ البطريارك وأخذ في بثّ عقائده التي استخلصها من تعاليم المسيح بواسطة الأناشيد والترنيمات المقدّسة حتى انتشر صيته ، وكثر أشياعه ومريدوه ثم انتقل إلى «نيكوميدا» عاصمة الروم الشرقية وكان أسقفها إذ ذاك المؤرّخ الشهير «أسبيوس» فاصطفاه لمودّته وجعله من مريديه .

غير أن خصوم أريوس كانوا يتعقّبونه في كلّ مكان يرحل إليه ، ولمّا علموا بوصوله إلى «نيكوميدا» كتبوا إلى الامبراطور «قسطنطين» يؤلبونه عليه باسم النصرانية فلم يغترّ بما كتبوه ، بل بعث خلف «اسبيوس» وسأله عن حقيقة أريوس وتعاليمه فكاشفه بالواقع دون أن يخفي عليه شيئًا وأفهمه أن السبب في الإشاعات الحاصلة ضد «أريوس» كانت من حسد وبغض «الكساندروس» له . فأحبّ الإمبراطور أن يطفي جذوة هذه الفتنة بالوسائل الخفيّة فأرسل إلى «الكساندروس» «اسيوس» أسقف قرطبة وكان يثق به ويجلّه ، يدعوه إلى الوفاق وإصلاح ذات البيت مع «أريوس» . ولما كان «الكساندروس» كارهًا لذلك جمع أساقفة الأبرشية وألّف منهم مجمعًا ظاهره للنظر في إزالة أسباب الخلاف ، أما باطنه فكان قصده إثارة تعصّب القساوسة ضدّ «أريوس» واستنكار عقيدته وتعاليمه ولما فطن أتباع «أريوس» إلى هذه الدسيسة تخلّفوا عن المجمع فأخفق لذلك سعي البطريارك إخفاقًا تامًّا .

فعاد «اسيوس» الى قسطنطين وقصّ عليه هذه الحكاية من أوّلها إلى آخرها وكان مشابهًا في الباطن لمطران اسكندرية . فأصدر الإمبراطور أمرًا منع

به الخوض في مسألة ألوهية المسيح وبشريّته. فلم يذعن إليه الطرفان. لذلك عزم على إنهاء هذه المشكلة بطريقة حاسمة. فأمر بعقد المجمع النيقاوي فالتأم هذا المجمع وكان مؤلفًا من جميع أساقفة البلاد النصرانية في مدينة «نيقا» «ازلك» سنة (٣٢٥) وقد بلغ عدد من حضره من الأساقفة (٣١٨) من جملتهم أريوس تحت رئاسة «اسيوس» أسقف قرطبة.

ولما كان أكثر أعضائه من اليونانيين الذين يذهبون في عقائدهم مذهب فلسفة الاتحاد، والحلول والانبثاق، والتجسّد، فمن الصعب أن يحكموا لأريوس على أنفسهم بل كان من المحقّق أنهم سيصدرون حكمهم القاسي ضدّ تعاليم «أريوس».

قرار المجمع النيقاوي :

«إن يسوع المسيح هو ابن الله حقًّا، وهو مساوٍ لأبيه، وهو قوّته، وصورته، وهو موجود دائمًا فيه وهو إله حق».

وبعد توقيع هذه الصيغة لاح للمجمع أن في وسع الأرارسة التقصّي من هذه العقيدة بالتأويل. فوضعوا كلمة تعبّر عن وحدة الطبيعة لله الأب وللكلمة «همواوسيون Homoaussion، معناها مساوٍ للجوهر، وفي زعمهم أنها غير قابلة للتأويل ولا تتفق مع عقائد الأرارسة لدلالتها الصريحة على مساواة الابن لأبيه في كلّ شيء وأنه هو والأب الإله واحد.

وقد حاول الأرارسة تغيير هذه الكلمة ولكن أكثريّة أعضاء المجمع أصرّوا على بقائها إصرارًا شديدًا فخرج الأرارسة محتّجين على الأكثرية معلنين انفصالهم عن قرار المجمع.

وبعد ذلك اتّفق الآباء على وضع كلمة يتميّز بها إيمان التقليديّين «الكاثوليك» عن غيرهم فوضعوا الصورة التالية للإيمان :

«نؤمن بإله واحد، أب ضابط للكلّ، خالق السماء والأرض، كلّ ما

يرى وما لا يرى وبربٍّ واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد مساوٍ للأب في الجوهر ، الذي من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسّد وتأنس وصلب عنّا على عهد «بيلاطس» البنطي وتألّم وقبر وقام في اليوم الثالث وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الأب ، وأيضًا يأتي بمجد ليدين الأحياء والأموات الذي لا فناء لملكه ، وبالروح القدس الربّ المحيي المنبثق من الأب الذي هو مع الأب والابن ، يسجد له ويمجّد ، الناطق بالأنبياء وبكنيسة واحدة جامعة مقدسة رسولية . ونعترف بعمودية واحدة لمغفرة الخطايا ونترجّى قيامة الموتى والحياة في الدهر العتيد آمين» .

ولما صدر قرار المجمع بإثبات عقيدة التثليث ومساواة الابن لأبيه في الجوهر تلته الأوامر بتحريم نشر تعاليم الأرارسة ، وإحراق كتبهم ، وتحجير بيعها وقنيتها ، واستمرّ العمل بهذه الأوامر القاسية سنتين أي إلى أن ملك الامبراطور قسطنطين. ثم خلفه «كونستانس» سنة (٣٢٧) فمال إلى مذهب أريوس وكان يريد جعله دينًا للرومانية ، وكان يقول بإبطال ألوهية المسيح ، ولو طال حكمه لأبطل قرار مجمع نيقا (Nicée) ، ولكن عاجلته المنون فمات بعد سنة واحدة من ولايته . ثم خلفه «اثيوديوس» الثاني سنة (٣٢٨) وكان شديد التعصّب لعقيدة التثليث ، فافتتح حكمه بإصدار قانون عام في منع الأريوسية . وحدث بعده اضطهاد شديد لأريوس ثم نفي ، وبسبب ذلك فشت فاشية التعصّب للعقائد بين الناس وانتشر في سائر الكنائس القول : بالاتحاد ، والحلول والتشبيه والتجسيم .

انتشار مذهب أريوس في الشرق الأدنى

ولما نفي أريوس من بلاد الروم عاد إلى مصر. وعكف على نشر مذهبه في مصر والبلاد المتّصلة بها حتى شاع شيوعًا هائلاً ودان به فلاّحو السواد وقد كان أغلب بلاد العرب لا يعرفون المسيح إلا من تعاليم أريوس .

ويرى الإسلام أن الأرارسة كانوا على دين التوحيد الذي جاء به المسيح من عند الله. لذلك قام النبي بحمايتهم والدفاع عنهم ، يدلّنا على ذلك كتابه الشريف الذي أرسله إلى «هرقل» عظيم الروم يدعوه فيه إلى الإسلام ، فقد حمّله فيه ، إن أبي قبول الدعوى الإسلامية ، مسؤولية ما يصيب الأريسيّين من الظلم والاضطهاد ، حيث قال «فإن تولّيت فعليك إثم الأريسيين» والذي يفسّر لنا بوضوح تامّ ما يعانيه هؤلاء المساكين من ظلم الروم قول معاوية بن أبي سفيان فيمَا كتبه إلى ملك الروم وهو يهدّده حين يقول له : «لأردنّك أريسًا من الأرارسة ترعى الدوابل».

أما تعاليم الأرارسة : فهي أكبر حجة على ثبوت وحدة التعاليم الإلهية في الأديان السماوية ، وان ما يظهر عليها من الخلاف انما هو أثر من آثار التأويل والتحريف.

١٥. النّسطورية

ظهر مذهب النّسطورية في أوائل القرن الخامس بعد اندراس مذاهب كثيرة تقدّمته من نوعه منها «السيبليانية» و«الماركونية» و«البرديصانية» و«الأريوسية». وأوّل من علّم به القسيس انستاسيوس في القسطنطينية ومن تعاليمه : إنكار تلقيب العذراء بوالدة الإله.

فقد قال عن العذراء هي أمّ المسيح لا أكثر ولا أقلّ. وقد ظهر هذا القول بعد انتشار عقيدة التثليث ، والاعتراف بالخطيئة الأصلية وحلولها محلّ العقائد المسيحية الأخرى المنقرضة فعاد الخلاف إلى أشدّ ممّا كان عليه بين المتكلّمين من علماء النصرانية خصوصًا بعد ظهور انسطورس. فقد أجمع مؤرّخو الكنيسة على أن الأصل في هذا الخلاف هي : تعاليم انسطورس.

فقد كان انسطورس في أوّل عهده على رأي القسيس انستاسيوس ثم

توسّع في الخلاف وأنكر على أصحاب المذاهب المعروفة في زمانه عقيدتهم في الإيمان بسرّ تجسّد الكلمة ، فإن أغلب المسيحيين الذين مالوا إلى ترجيح عقيدة اثناسيوس كانوا يؤمنون أن المسيح هو كلمة الله المتجسّد ، وأن للمسيح المتجسّد من الضوررة طبيعتين وأقنومًا واحدًا ، أو شخصية واحدة.

فثار نسطور ضدّ هذه التعاليم وهو يومئذ أسقف القسطنطينية وأثبت أن في المسيح اقنومين. فأحدثت آراؤه هجسًا في الإكليروس والشعب. ولما كان لـ «نسطور» نفوذًا في قصر الملك ، استطاع إقناعه بصحة ما ذهب إليه ، ولكن «كيرللس» نابذ هذه العقيدة وقاومها بشدّة وألف رسالة في سر التجسّد ردّ بها على انسطورس واليك ما كتبه في هذا الموضوع :

«إني لأعجب من وجود من يشكّ في أن العذراء القديسة هي والدة الله فانه لما كان ربّنا يسوع المسيح إلهًا والعذراء مريم أمه ، نتج أن مريم أم الله.

هذا هو الإيمان الذي علّمنا إياه الرسل. وهو تعليم آبائنا. وليس معنى ذلك أن طبيعة الكلمة أو الألوهية أخذت الوجود من مريم ، بل تكون في حشا مريم. تكون وتنفس بنفس عاقلة واتحد بالجسد المقدّس الذي اتحد به اتّحادًا أقنوميًا (كلمة الله) لذلك قيل إن الكلمة ولد بحسب الجسد. ألا ترى أن الأم في أمور الطبيعة لا حصة لها في خلقة نفس الولد ، ومع ذلك يقال إن الأم هي التي ولدته كلّه لا والدة الجسد».

رفض تعاليم انسطورس

لما حدث في الأوساط النصرانيّة قلق أمر البابا «فلسطينوس» بتأليف مجمع من الأساقفة في روما لفحص كتب انسطورس ، ولما فحصوها قرّروا أنها مناقضة لعقائد وتعاليم الآباء وبنوا على ذلك رفضها. ولما عرض هذا القرار على نسطورس رفضه وأبى قبول نصائح البابا وأنهى الأمر إلى الملك «ثيودسيوس» الثاني ، وهذا أمر بعقد مجمع مسكوني في مدينة أفسس. فانعقد المجمع وكانت

غايته السعي في إبطال تعاليم «استتاسيوس» و«انسطورس». فانعقد من مائة أسقف قبل وصول الأساقفة الشرقيّين تحت رئاسة «كيرللس» بطريارك الاسكندرية وأرسل الملك من قبله لحراسة المجمع الكونت «كانديديماوس» وكان على عقيدة انسطورس، فبعث الآباء يدعون نسطورس ثلاث مرات وهو يمتنع ويحتجّ بغياب يوحنّا الانطاكي بطريارك انطاكيا وأساقفتها. ولما حضروا سنة ٤٢١ عاد المؤتمر للانعقاد في كنيسة المدينة وأنزل البطريارك «كيرللس» عن الرئاسة وتقلّدها البطريارك الأنطاكي. وبعد ذلك شرع المجمع في فحص كتب نسطورس وتعاليمه، ولما دارت المناقشة في الموضوع تليت رسالة فلسطينوس التي كتبها الى انسطورس، ولما دارت المناقشة في الموضوع تليت رسالة فلسطينوس التي كتبها الى انسطورس وسمعت الاعتراضات التي تواردت عليها من الآباء القديسين وأخيرًا أصدر المجمع القرار التالي ضدّ تعاليم نسطوروس :

«إن الاتّحاد جوهري بين الطبيعتين في المسيح وان الإله والإنسان في المسيح هما واحد وإن مريم العذراء هي والدة الإله».

ولما عرض قرار المجمع على انسطورس رفضه وأصرّ على مقاومته وشرع في نشر أفكاره وتعاليمه بين تلامذته وفي الآفاق، حتى انتشرت في العراق، وسورية، وفلسطين، وجزيرة العرب، ومصر، والهند، وتركستان.

ولم يزل مذهب انسطورس قائمًا إلى هذا العهد وعليه أغلب الاثوريين.

١٦. الأبلاجيونية

أصحاب «بلاجيوس» البريطاني وصاحبه «سيليتوس» الإرلندي، كانا راهبين في روما ومذهبهما مبني على : إنكار سريان الخطيئة الأولى إلى أولاد آدم.

وقد انبنى هذا القول على الاعتقاد بأنّ من الأسباب التي تحرم الانسان من السعادة الأبدية الجزم بسريان الخطيئة الأولى إلى نسل آدم. والقول أن الإنسان في حاجة إلى تجديد القلب بنعمة من الله تمنعه من الإقدام على الخطيئة، وتقبل به على التوبة، وكانا يعنيان كثيرًا بإبطال تينك العقيدتين. ويقولان إن خطيئة آدم وحوّاء لا يؤخذ بها أحد من ذرّيتهما، وإن امتناع الإنسان عن الخطيئة لا يتوقّف على تلك النعمة، وإنما ذلك موكول إلى أعمال الإنسان الاختيارية.

ولأجل إبطال تعليم هذين الراهبين انعقد مجمع «قرطاجنة» سنة ٤١٢ فقرّر ما أرادته الكنيسة. فانتقل بلاجيوس إلى المشرق ثم أخذ ينشر مذهبه هناك وساعده على ذلك اسقف «اورشليم» إلى أن تقرّر رفضه نهائيًا بقرار مجمع أفسس المتقدم سنة ٤٣١، فعدل أصحابه عن القول بعدم الاحتياج إلى النعمة من الله إلى القول بالقضاء والقدر. واستمرّت عقيدة القضاء والقدر فاشية بنيهم إلى أن أبطلها مجمع «ايراس» سنة (٤٧٢) ومجمع «ليون» سنة (٤٧٣).

١٧. الأوطاخيوسية

مذهب «أوطاخيوس» رئيس دير قرب القسطنطينية؛ كان من أشدّ المعارضين لآراء الراهب «انسطورس» ومن المعارضة جعل لنفسه مذهبًا خاصًا تبنّاه: القول بوحدة الأقنوم والطبيعة في المسيح.

وكان يبرهن حسب زعمه على أنه ليس في المسيح بعد التجسّد إلا طبيعة واحدة. وأن المسيح لم يصر إنسانًا مثلنا.

وقد قال بعض معارضيه إن كان «انسطورس» فصل اقنوم المسيح فإن أوطاخيوس بلبل الأفهام في طبيعة المسيح.

وقد أخذ ينشر تعاليمه في أديرة القسطنطينية دون أن يقبل في ذلك نصيحة ناصح إلى أن أوشى به الواشون إلى فيلبيانس أسقف المدينة فدعا أوطاخيوس إلى حضور مجمع عقده للنظر في عقيدته فأبى أن يجيب الدعوة لذلك. فأعلن المجمع سنة ٤٥١ رفض تعاليمه وعزله من رئاسة الدير. وتلا ذلك انعقاد المجمع الخلكيدوني سنة ٤٥٩ بأمر الملك «مارسيانوس» وبلغ عدد أعضائه ٥٦٠ أسقفًا ، كلّهم من المشرق عدا ستة اثنان من افريقية وأربعة من «ليون» ضدّ «ريسقورس» و«افتخيوس». وكان اجتماع هذا المؤتمر في كنيسة القديسة «اوفامبا» الشهيدة وأوفد البابا اليه ثلاثة نواب نيطت بهم رئاسة المجتمع. ومن أهم المسائل التي عُرضت عليه مسألة «ديسقورس» بطريارك الاسكندرية التي ذهب فيها إلى ترجيح رأي «اوطاخيوس» ضد «فليبيانس» أسقف القسطنطينية فحكم عليه بالتجريد من الرتب الكهنوتية. وبهذه المناسبة عرضت عليه مسألة إلحاد «أوطاخيوس» التي كتب عنها البابا «مارلاون» رسالة إلى «فيليبيانس» وقد ذكر فيها بيانًا ضافيًا للإيمان الكاثوليكي بسرّ التجسّد.

وقد أثبت «مارلاون» أنّ في المسيح المتجسّد أقنومًا واحدًا وطبيعتين ولما تليت رسالته أعجب بها الآباء ، وذلك لمطابقة مباحثها الدستور الإيمان النيقاوي. فهتفوا قائلين هذا هو إيماننا نحن أجمعون ، هذا هو إيمان الآباء هذا هو إيمان الرسل. إن بطرس الحواري هو الذي يتكلّم على لسان «لاون» ، هذا هو التعليم الأرثوذكسي الذي يجب التمسّك به ، ومن لم يتمسّك به فهو محروم.

ثمّ حرّر الآباء شرحًا للإيمان صدّروه بقوانين المجمعين النيقاوي والقسطنطيني المتقدمين ، وفي الجلسة السادسة الختامية للمجمع حضر الملك «مارقيان» بنفسه وقرّر أنه متّبع في خطّته الدينية نسق سلفه الملك قسطنطين. ثم قال : حضر المجمع لكي يسند بقوّة السلطنة الملكية تحديدات الآباء لا ليمنع الأساقفة من إبداء آرائهم بحريّة.

وقبل انصراف الملك من المجلس أمر أن يتلى عليه قرار الإيمان الذي حدّه المجلس فتلي عليه وانصرف.

أما الأساس في مذهب «الأوطاخيوسية» فهو القول: بوحدة الأقنوم والطبيعة في المسيح ويسمّى القائلون بهذا القول في اليونانية بـ «المونوفيستيين» ولم ينشق المونوفيستيون انشقاقًا تامًّا عن الكنيسة الكاثوليكية إلا بعد ما كثر عددهم وصاروا طائفة على حدة يمتازون عن بقية الطوائف. وعكفوا على ممَارسة مذهبهم في سورية إلى أن جلس «اسويروس» على كرسي البطريركية الأنطاكية أوائل القرن السادس، فإنه كان مع سرعة ذكائه وقوّة حجّته يبطن العداوة والبغضاء للمجمع «الخلكيدوني» وأشياعه وبسبب ذلك حرمه البابا «سماكوس» من كرسي البطريركية سنة (٥١٨). فاختفى ونصب مكانه بولس الأرثوذكسي، فلم يقبل بتعيينه «المونوفيستيون». وما زالوا لا يعترفون بأحد بطرياركًا عليهم غير «اسويروس» إلى أن قضى نحبه غريب الديار. فنصّبوا بعده «سيريجوس» بطرياركًا عليهم.

وكان البطريارك الكاتوليكي في ذلك العهد جالسًا بصفة شرعية على كرسي البطريركية ولهذا السبب انشقّ «المونوفيستيون» السريان عن الكاثوليك وانفصلوا عنهم وسميت طائفة المنشقين بـ «اليعقوبية».

١٨. اليعقوبية

نسبة إلى يعقوب البرادعي أسقف الرها، وقد كان من عهد «اسويروس» يدعو السريان الغربيين والمصريين إلى إثبات عقيدة الطبيعة الواحدة ورفع عقيدة العصيان ضدّ الكنيسة الكاثوليكية كما فعل «برصوما» النصيبي مع السريان الشرقيين حيث تمسّك بالـ «أوطاخيوسية» وبذل يعقوب في ذلك جهدًا عظيمًا فتبعه أهل مصر ولم يخالفه منهم إلا القليل وكانوا يدعونهم «اليعاقبة» أيضًا. وقد مات يعقوب سنة (٥٧٨).

اختلاف النصرانية في ألوهيّة المسيح وبشريّته

لم يكد يبدو القرن السادس للميلاد حتى دبّ الوهن إلى المملكة الرومانيّة وتعدّدت فيها المذاهب واختلفت العقائد وافترق المسيحيّون إلى طوائف ، وشيع ، يعادي بعضها بعضًا وأشدّ ما اختلفوا فيه ألوهية المسيح وبشريته ، وما يترتّب عليه من القول بالطبيعة ، والطبيعتين ، والمشيئة والمشيئتين ، لذلك عزم «هرقل» قيصر «القسطنطينية» على إرجاع المسيحيين إلى عقيدة الكنيسة. فاتفق «اثناسيوس» بطريارك انطاكية وبطريارك العياقبة في «منبج» على أن يردّ الأخير طائفته إلى الإيمان برأي الكنيسة حتى يكون الاعتقاد العامّ : بأن المسيح من حين اتّحد فيه اللاهوت ، والناسوت ، لم يبق فيه إلا إرادة واحدة وتأثير واحد.

واستحسن ذلك «كورش» بطريارك الاسكندرية والبابا «هانريوس» الأوّل ولكن بقي مصرًّا على الخلاف «سوفرينوس» بطريارك «أورشليم» وبعض الأساقفة الآخرين وفي طليعتهم أسقف عمّان وكذلك أتباع الكنيسة الأرثوذكسية الملكانية ، فأمر الملك «يوسيتانوس» بعقد مجمع لذلك سنة (٥٥٢) فكانت نتيجته انفصال الأرمن واليعاقبة عن الكنيسة. ثم استؤنف هذا المجمع بأمر الملك قسطنطين «يوغناتوس» سنة (٦٨٠) فقرّر وجود مشيئتين في المسيح ، ومن نتائج هذا القرار تحريم ستة بطاركة كانوا يؤيّدون رأي اليعاقبة ، وكذلك تحريم البابا «هانيريوس» مع أنه كان ميتًا من قبل.

١٩. المانوية

مذهب ماني الحكيم الذي ظهر في القرن الرابع للميلاد في زمن «نيسابور» سلك فيه مسلك الوفاق والتوحيد بين عقائد الدينين ، المجوسية والمسيحية.

وقد زعم ماني أن «البارقليت» المبشّر بظهوره في الانجيل الذي سيتزل من السماء لتكميل الدين وإصلاح العالم هو عينه ، وقال عن نفسه أنه نزل من السماء كما بشّر به المسيح ونسب إلى المسيح الأفعال والخواصّ التي يسندها الفرس إلى «ميترا» أحد قدماء آلهتهم.

وقد فسّر الأناجيل بما ينطبق على عقائد الصابئيين ، في الأصلين الأوليين ، وهما المادة الشفّافة اللطيفة والمادة المظلمة الكثيفة. فالأولى قال عنها هي النور المستولي عليه إله الخير وقال عن الثانية هي التي استولى عليها إله الشر. ثم قال :

إن كلاًّ من هذين الإلهين أثّر تأثّرًا من جنسه. ونشر ذلك في الدنيا ، فالأجسام البشرية ناشئة عن الأصل الرديء ، والأرواح ناشئة عن أصل الخير. لذلك كان بينهما الخلاف والعناد إلى ما لا نهاية له. وإن من الحكمة وجوب قمع الإنسان عن الشهوات ، وإنقاذ الروح من سجن الهيكل الجسماني.

وقد حذف من دينه كتب العهد العتيق جملة واحدة ، وألف في المجوسية والنصرانية كتابًا سمّاه «ارتينك» أي الإنجيل وهو مطابق لما ورد فيهما من العقائد والآداب.

وقسّم ماني أتباع ديانته إلى مرتبتين : مؤمنين كاملين ، ومؤمنين مستمعين ، وجعل رئيس ديانته نائبًا عن المسيح. وجعل من تحته اثني عشر رئيسًا بعدد الرسل ، ومن تحتهم اثنين وسبعين إسقفًا. عدد تلامذة المسيح الاثنين والسبعين ، وخصّ تعيين القساوسة والشمامسة بفرقة المؤمنين الكاملين.

كما وضع ماني في كتابه شرائع اجتماعية عملية منها :

فرض العشرة في الأموال ، وتحريم القتل ، والكذب ، والسرقة ، والزنا ، والبخل ، والسحر ، وعبادة الأوثان ، وان يأتي الإنسان مع ذوات

الأرواح ما يكره أن يفعل به ورتب للتربية الروحية أربع صلوات في اليوم والليلة وأدعية خاصّة يتوجّه بها الداعون إلى الله .

وجعل الاعتقاد بصحّة النبوات كافة أساسًا للإيمان .

ونظرًا لما اشتمل عليه هذا الدين من السهولة ، والمرونة ، وعدم التعصّب ، فقد دان به خلق كثير من العرب في العراق .

وجود النصرانية في بلاد العرب

قبل أن نختم الكلام عن النصرانية وعقائدها ومذاهبها يحسن بنا أن نفسح مجال القول للبحث عن تاريخ دخولها وتأثيرها في بلاد العرب لنعلم بالتحقيق ما هي المذاهب والآراء المسيحية التي اتّصلت بالعرب ، وما هو المقدار الذي أخذوه منها . حتى نعلم نصيبها في تكوين الثقافة العربية التي ظهرت بعد الإسلام وانطبعت بطابع الديانة الإسلامية .

أثبتت الكنيسة الشرقية أن أوّل من بشّر بالنصرانية في بلاد اليمن القديس «توما» حين مسيره إلى الهند وان بولس الرسول بشّر بها في الشام أيضًا قبل ذهابه إلى روما فتبعه خلق كثير من العرب .

وروى المؤرخ «اوسيوبيوس» أن أميرًا من أمراء العرب (لم يسمّه) استقدم «اوريجيوس» أحد آباء الكنيسة أوائل القرن الرابع للميلاد للدعاية إلى النصرانية ، لكنه لم يعيّن من تولّى دعايتهم ، وقال عنه مات سنة ٣٥٤ وفي سنة ٣٣١ أنفذ «اوجيوجيوس» بطريارك الاسكندرية بعثة نصرانية للتبشير في اليمن برئاسة راهب يدعى «اثيوفيلوس» فذهبت إلى حمير وكانوا يهودا ثم

تنصّروا على يديها فبنت لهم الكنائس وعلّمتهم الطقوس وأقامت لهم قساوسة منهم.

ويروى أن راهبًا مصريًّا اسمه «موسى» كان على مذهب «أريوس» نزل إلى جزيرة العرب في القرن الرابع ودعا العرب إلى النصرانية فتنصّرت عليه على يد زوجة الملك «موفيا» وتبعها خلق كثير.

أما بنو غسّان فقد تنصّروا في عهد «فالنتين» بواسطة رهبان الصحراء، ويذكرون أن أشهر القبائل التي اعتنقت النصرانية بعد الغساسنة ربيعة، تنوخ، تغلب، بهراء، بعض طي، قضاعة، أهل نجران، عرب الحيرة.

خاتمة

هذا ما توفّقنا إلى جمعه وتلخيصه من تاريخ، ومذاهب، وعقائد النصرانية، التي ظهرت خلال القرون الأولى للميلاد. والذي نستنتجه منها هو: وجود مذاهب نصرانية قديمة انتشرت في العالم قبل الإسلام كانت عقائدها في الله وفي المسيح موافقة تمام الموافقة للتعاليم الإلهية التي جاء بها الإسلام. وكذلك ثبت أن البدع التي لابست النصرانية فيمَا بعد ليست من طبيعتها، بل انتقلت إليها من الأديان القديمة بعد أن احتكّت بالمجاورين لها من اليونان والرومان والمصريّين والفرس والهنود.

ولما أقبلت عناصر هذه الأمم على النصرانية، حملوا إليها كلّمَا وقر في نفوسهم من عقائد أديانهم ومن أهمها اليونانية والمجوسية. فبقيت هذه العقائد المختلفة بضع قرون موضوعًا للمجادلات والمناقشات حتى كتب الفوز في النهاية لتعاليم الفلسفة اليونانية على غيرها، وذلك بفضل ما أوتيته من المجامع المسكونية وغير المسكونية، وفوق ذلك مساعدة القياصرة الرومانيين لإقرار هذا الدين في نصاب سيادتهم على البلاد التي حكموها.

أما العقيده الأولى المطابقة لروحية المسيح والبيئة التي نشأ فيها فإنها بقيت منقطعة في زوايا البلاد التي لم تنفذ إليها السطوة الرومانية لكنها لم تستمر طويلاً في عزلتها حتى سرت إليها تعاليم السيكولاستيكيين وصبغتها بالصبغة الآرية المحضة فأصبحت العقائد المسيحية كلّها متقاربة ، وفي القرن الثامن انقرضت عقائد التوحيد والتنزيه. وكذلك العقائد التي أحدثها متنصرة المجوس وطابقوا بينها وبين فلسفتهم في الأصلين : الخير والشرّ.

ومن هنا نعلم شيوع النصرانية بين العرب. ولكن أيّها يا ترى؟ أنصرانية اليوم ، أم نصرانية الأمس ، أم نصرانية الساميين ، أم الآريين؟

لا شكّ أن النصرانية التي دان بها العرب هي النصرانية الأولى نصرانية الساميين التي كان العرب يفهمونها فهمًا دقيقًا نزيهًا ، ومن أولى منهم بفهمها؟

لذلك لم تجد النصرانية الإلهية معبّرًا يستطيع أن يعبّر عن حقيقتها تعبيرًا صحيحًا مطابقًا للواقع غير الرسول العربي قريع المسيح عليهما السلام.

البَاب الرابع

دينُ الإسلام وَحكمَة التشْريع

الفصل الأوّل

ظهور الإسلام

العرب قبل الإسلام

كان العرب يتألفون من قبائل شتّى ولكلّ قبيلة إله ، وكانت لهم فيمَا عبر من التاريخ مدنيّات صخمة ، ودول عديدة ظهرت في العراق ، وسورية ، وفلسطين واليمن ، تشهد بعظمتها آثارهم الخالدة. وهي لم تزل موضع البحث والتنقيب وإعجاب الأمم. وإليهم مردّ العرق السامي الذي كان مظهرًا للهداية الإلهية ، فمنهم ظهر الأنبياء والرسل ، وعلى قلوبهم نزلت الشرائع ، لكن احتكاكهم بالأجانب ، والأغيار أوجد فيهم عوامل اجتماعية مختلفة ، كانت سببًا في انقسامهم ، وتغلّب الأمم عليهم فكانوا في أشدّ الحاجة إلى مخلّص اجتماعي يكوّن وحدتهم ، وينقذها من سلطان المتغلّبين عليها ، ولا وسيلة لذلك غير الدين.

حالة العرب الاجتماعية

لم تكن الأمة العربية فيمَا مضى من القرون خاضعة لسلطان واحد . أو لنظام معيّن ، بل كانت مؤلفة من قبائل شتّى ، تشنّ الغارات وتوقد نيران الحروب على بعضها ، حتى أفنت معظمها الحروب ، وخربت مدنها ، وقد بلغ من انحطاطهم وتفسّخهم أن جعلوا السلب والنهب من الحِرَف التي يحترفونها ، وبسبب ذلك ضاعت معالم مدنيّتهم الأولى وحضارتهم القديمة . وكانوا مضطرين ، بطبيعة الحال ، إلى اقتباس ما أضاعوه منها عن الأمم المتغلبة عليهم فكان ذلك سببًا في النهضة التي تقدّمت الإسلام المعروفة بالنهضة الجاهلية .

ولقد مثل الأدب الجاهلي نفسيّة العربي في سائر حالاته ، وأطواره صيادًا ، راعيًا محاربًا ، شاعرًا كريمًا ، أميرًا شجاعًا ، حرًّا ، عفيفًا ، وفيًّا ، صادقًا صريحًا ، عيوفًا ، يطوي في أديمه ملامح القرون وأصباغ الأجيال وقد كان للعصر الجاهلي منزلة في المآخذ الإسلامية حتى جعله العلماء معيارًا للمفاهيم ومقياسًا لتحليل أوضاع اللغة ، ولولا ذلك لما استطاع المسلمون أن يتذوّقوا حكمة التشريع وفلسفة الدين .

حاجة العرب إلى الدين :

كان احتياج العرب إلى الدين احتياجًا طبيعيًّا ، وأكثر وظيفة قام بها إصلاح العقائد ، والآداب ، والنُظم بطرق لم يستنكرها العرب ولم يتجافوها ، بحيث لم يكد يظهر الإسلام بين العرب حتى تلاه أعظم انقلاب اجتماعي وقع في العالم .

لذلك يجب على الباحث في الديانة الإسلامية أن يفحص قبل كل شيء تاريخ هذه الأمّة ، ويبحث عن عقائدها ، وآدابها ، وعاداتها ، وسائر أحوالها الاجتماعية ، حتّى يقف عن كثب على روحية الإسلام وحقائقه.

نبوّة محمد ﷺ

كان العرب قبل الإسلام يتوقّعون ظهور مجدّد يرفع شأنهم ويصلح ما اختلّ من أمرهم ، ولقد طمح كثيرون من رجالاتهم إلى أن يكونوه ، ولكنّهم تهيّبوه ، ضنًّا بأنفسهم من الإخفاق.

وأشهرهم : ورقة بن نوفل ، والعبّاس بن مرداس ، وزيد بن عمرو بن نفيل ، وعثمان بن الحويرث ، وعبد الله بن جحش ، وحيث أن الإصلاح الحقيقي لا يكون كَسْبِيًّا ، بل إنما يكون بوحي وإلهام من الله تعالى ، ينزّله على قلب من يصطفيه لرسالته ، فقد اصطفى لذلك صفوة خلقه سيدنا محمّد بن عبد الله بن عبد المطّلب الهاشمي ، فبعثه الله للخلق كافّةً ، عرب وعجم ، أبيض وأسود ، أحمر وأصفر ، بشيرًا ونذيرًا ومعلّمًا وهاديًا فكان أعظم مُصلح لا للعرب فقط بل للعالم أجمع.

دين الإسلام

أقام النبيُّ ﷺ هذا الدين على توحيد كلمة العرب ، وجعلهم يشعرون بالأخوّة العامّة والمحبّة الإسلامية ويقدّرون مبادئ السلام وقواعد المساواة ، والتفكير في إسعاد البشر وتخليصه من قيود الجهل والاستبداد والظلم ، وفوق ذلك جعلهم يشعرون من أنفسهم بأنهم جند الله الغالب الذين هيأتهم العناية الإلهية لتحقيق السعادة البشرية ، وهداية العالم ، فأصبحوا أحرارًا بعد أن كانوا عبيدًا ، وهداةً بعد أن كانوا ضالّين.

ولما انتهت وظيفته (ﷺ) اجتباه الله إليه ، فترك للعالم أكبر دعامة للإصلاح ، قائمة على القرآن المجيد ، والسيرة الطاهرة المرضيّة.

القوانين :

القوانين ، طبيعية كانت أو اصطناعية ، إنما تتكوّن من عِلل وأسباب تستلزم وجودها ووضعها ، ولولاها لما وجد نظام طبيعي ولا قانون مسنون.

أما القوانين الطبيعية فهي كل ما به قوام الحياة وحفظ البقاء ، وأما القوانين الاصطناعية فهي : الأنظمة التي تحدثها الحاجة ويشرعها البشر ليحدّد بها نظام الطبيعة ويصلح بها فطرة الإنسان.

الشرائع الإلهية :

والشرائع الإلهية لا تخرج عن هذين الأصلين القويمين ، ولا تختلف مع العصور لما فيها من قابلية التطوّر بالنظر إلى استعداد الأمم ، ودرجة تفكيرها

فيمَا يتفرّع من الأحكام ، التي تدور مع العلل وجودًا وعدمًا بدوران الزمان واختلاف الحالة والمكان.

غير أن إدراك هذه الأسرار في بناء الشرائع الإلهية يحتاج إلى نظر بعيد في فلسفة الدين ، واطّلاع واسع على مقاصد الشارع الحكيم ، ومقارنة ذلك بحالة ونفسية المجتمع المراد إصلاحه وإسعاده وتنظيمه.

ولا ريب في أن الدين الإسلامي هو من أرقى وأكمل الشرائع التي جاءت لترقية المجتمعات البشرية وهدايتها ؛ وليست الهداية غير ناموس التطوّر والانتقال.

التطوّر في الأحكام والقوانين

إن الشرائع الإلهية هي أصول عامّة يُرجع إليها في سَنّ الأنظمة وترتيب الأحكام والقوانين ، والتطوّر لا يقع في الأصول لأنها بمقتضى فطرتها وطبيعتها قارّة ، لا يغيرها زمان ولا مكان ، وإنما الذي يتطوّر هو ما تفرّع عنها بطريق الاجتهاد : قياسًا ، أو استنباطًا أو تخريجًا. وكذلك الأحكام السياسية وما جرى مجراها لأن تلك الفروع يجب أن تكون ملائمة لمقياس عقلية الأمم ونفسيتها ، ومسايرة لاحتياجاتها ، كافلة لنهضتها وتقدّمها ؛ وليس العلم بذلك من الهيّن اليسير ، فأقلّ خطإ يقع في نظر الباحث عند التعليل لأيّ مسألة من هذه المسائل الاجتماعية يفضي إمّا إلى تعطيل حكم الدين ، ورَمْيِهِ بالجمود عن السير مع الحياة ، وإمّا إلى توهين نواميس الحياة وتعطيلها ، وهناك يشتدّ الطراد

والجلاد بين الفريقين المحافظين ، والمتجددين ، وتسوء من ورائهما عقبى الأمة.

إذ لا يمكن لأية أمة من الأمم أن تسنّ لها قوانين ما لم تتوفّر فيها أسباب المقارنة والمقايسة ، من طريق لا جدال فيه بين عقائدها ، ومصالحها ، فإن لكل أمة حالات تخصّها لا تشبه حالات غيرها ماثلة في تقاليد ، وعادات ، وأخلاق ، تستدعي أن تكون أحكامها ملائمة لها ومنطبقة عليها ، والتغاضي عن ذلك مؤذن بهلاك الأمم.

فالقوانين التي وضعت للأقوام الأوّلية مثلاً لا تصلح أبدًا لأن تسير بها الأمم المتحضّرة ، والعكس بالعكس ، ولولا تطوّر القوانين الجزائية والمالية والعسكرية ، والإدارية والسياسية ، ونحوها لما بلغت تلك الأقوام ما بلغته من التقدّم والرقي ، فتطوّر نظمها وأحكامها هو الذي جعلها تنتقل من طور السذاجة والخنوع إلى طور السيادة والسيطرة على العالم وامتلاك ما فيه من قوات ، وثروات ، وكنوز ، وخيرات ، بخلاف الأمم التي لم تشعر بالحاجة إلى متابعة نظام التطوّر والانتقال ، ولم تفارق الحالة الأولية التي كانت عليها ، إما لغموض هذه الأسرار عنها أو لاشتباهها في الفرق بين مفاهيم الأصول وبين مفاهيم الفروع.

لذلك دعت الحاجة إلى وجود مجدّدين ومصلحين يرشدون المجتمع الإسلامي إلى معرفة ما بين الأصول والفروع من الفروق ، ويفهمونهم أن القسم الذي لا يجوز فيه التغيير والتبديل إنما هو الأصول الواردة في أحكام التنزيل الصالحة لكل زمان ، ومكان ، لأنها نصوص عامة وقواعد مجملة ، وأما الصور المستحدثة المستخرجة منها التي جعلت مدارًا لتطبيق الأحكام ومناط أكثرها (كما قدّمنا) القياس والاستنتاج ، فهي التي يجب تطويرها وتمشيتها مع الزمن ، واستلحاق ما استجدّ من المصالح والحاجات التي أوجبها العصر

ويتطلبها المجتمع ، وهي وإن كانت في نظر البعض مخالفة للنصوص فإنها ليست كذلك بل هي مخالفة للتقاليد فقط ، ذلك ما تقتضيه حكمة الدين ويتناسب مع قدسيّته ، وجلاله وعظمته.

أوليسَ الدين الإسلامي في ذاته هو مظهر من مظاهر التطوّر والانتقال في الشرائع الإلهية وآخرها؟ ولذا نجد التعليل والحكمة يطّردان في جميع النصوص التي يرجع إليها في مآخذ الدين ، ولا يطّردان في غير ذلك ممّا هو مناط بالرأي والاجتهاد.

الإيمان

الإيمان صفة توجب الاعتقاد بوجود الله ووحدانيته في الصفات والأفعال ، لا بداية لظهوره ، ولا نهاية لوجوده ، حيّ باقٍ لا شريك له في الملك ، خالق كلّ شيء ، لا إله إلا هو فتبارك الله أحسن الخالقين. أرسل رسله بالهداية ودين الحقّ للإرشاد والتعليم ، فمن أطاعه نجا ، ومن خالفه غوى.

ولا شكّ في أن عقيدة تُبنَى على قاعدة الفصل بين الملك والملكوت ، تكون الغاية منها رفع الغرور عن العقل وتطهير الروح من مظانّ الشرك وهما داعيان لحلّ القيود التي كانت تعقد عقل الإنسان بالأهواء والأوهام فتجعله متمسّكًا بالعبودية والخضوع للكهنة والمستبدّين باسم الأديان ومحتكري الأسرار وسلامة الهياكل ومقامات القرب والعبادة. وتحرّر الإنسان من ظنونه وأوهامه وتزيل عن قلبه ران الشبه والتقليد فيصبح حرًّا منطلقًا في فضاء الكون الواسع لا يحمل رأسه غير النور والنسيم يحمد الله ويشكره على ما أناله ، وهو لا يسأل غير الجزاء الحقّ على العمل الصالح الذي توفّق إليه.

عناصر الإيمان

الإيمان بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، وباليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشرّه ، والبعث بعد الموت حقّ.

التصديق وأركانه

أركان التصديق خمسة وهي : الصلاة ، الزكاة ، الصوم ، الحجّ والتكاليف العامة.

الفصل الثاني

الإيمان

عناصر الإيمان

الإيمان أساس لكلّ عقيدة وعمل ، ومعناه التصديق والإذعان ، وقد جعله الله بابًا للدخول في الإسلام . قال تعالى في معرض البيان والتوضيح لمعنى الإيمان : ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ ، ومَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا ، ومَا أُنْزِلَ إلى إِبْرَاهِيمَ واسْمَاعِيلَ وإِسْحَقَ وَيَعقُوبَ والأَسْبَاط وَمَا أُوتِي مُوسَى وَعِيسَى ومَا أُوتِيَ النبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ونَحْنُ لَهُ مُسْلِمُون﴾[1] . وجاء تصوير الإيمان بمعنى غير الطاعة والانقياد الظاهري بل بمعنى إذعان الروح وتصديق القلب في قوله تعالى : ﴿قالت الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[2] . وجاء في وصف تأثير الإيمان في نفس المؤمن : ﴿إِنَّمَا المؤمِنُونَ الذينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾[3] . وقد

١) البقرة ، ٢ : ١٣٦ .
٢) الحجرات ، ٤٩ : ١٤ .
٣) الحجرات ، ٤٩ : ١٥ .

نرى أكثر آيات التشريع الواردة في كتاب الله تقرن طلب الطاعات بالإيمان ونجعل إتيانها دليلاً عليه لأن النفس لا تمتثل الفعل ما تقتنع به وتنصبغ بصبغته.

ولما كان الإيمان من علائق الوجدان ومدركة الشعور والذوق لم يضع له المتكلمون تعريفًا بالخاصية بل بالوصف فقالوا: الإيمان هو الانقياد والجزم. ولما بحثوا في دلائله ومفاهيمه تكلّموا فيه حسب أصولهم ومآخذهم في العقائد والأحكام ويمكن إرجاعها إلى تسعة أصول وهي:

المحكمة، المعتزلة، الزيدية، السنّة، المتكلمون، الأشاعرة: الصوفية، الجهمية، الغيلانية، ونحن نوردها هنا أصلاً بعد أصل.

ويفتقر تصوير الإيمان إلى البيان والإيضاح مثال ذلك:

إن الايمان بأن الله موجود ليس المراد منه كون الله موصوفًا بالوجود بل الحكم الجازم بأنه موجود، والحكم لذات الله بالوجود مغاير لإثبات العدم له، وهذا الحكم الذهني بالثبوت أو الانتفاء أمر معبّر عنه بألفاظ وصيغ كثيرة مختلفة واختلاف الصيغ والعبارات مع كون الحكم الذهني واحدًا يدلّنا على القطع بقناعة النفس بثبوت الوجود لله تعالى لا بطريق العقل والعلم ولكن بالوجدان.

والحكم الذهني كما لا يخفى هو غير العلم، والدليل على ذلك أن الجاهل بالشيء قد يحكم به وهو قانع بصحّة الحكم، فيعلم من ذلك أن الحكم الذهني غير العلم، والمراد من الإيمان هو هذا الحكم بدليل أن الله كلّمَا ذكر الإيمان في القرآن أضافه إلى القلب قال: ﴿من الذين قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾[1]، وقال: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِن

١) المائدة، ٥: ٤١.

بالإيمان﴾[١] . وقال : ﴿كتب في قُلُوبِهِم الإيمان﴾[٢] . وقال : ﴿لَمَّا يدْخُلِ الإِيمانُ في قُلُوبِكُمْ﴾[٣] .

رأي المذاهب في الإيمان

الإيمان عند الغيلانية

ذهب غيلان بن مسلم الدمشقي وتبعه الفضل الرقاشي الى أن الإيمان هو الإقرار باللسان فقط ، لكنه لا يكون إيمانًا بدون حصول المعرفة في القلب ، فالمعرفة عندهما شرط ليكون الإقرار باللسان إيمانًا والمعرفة داخلة في مسمّى الإيمان ، لكن الكعبي ينفي إسناد هذا القول لغيلان.

الإيمان عند الجهمية

ذهب الجهم ابن صفوان إلى أن الإيمان معرفة الله في القلب ، فمن عرف بقلبه ثم مات ولم يذكر بلسانه فهو مؤمن كامل الإيمان.

---

١) النحل ، ١٦ : ١٠٦.
٢) المجادلة ، ٥٨ : ٢٢.
٣) الحجرات ، ٤٩ : ١٤.

الإيمان عند المحكمة

اتفقت مذاهب المحكمة على أن الإيمان يتناول المعرفة بالله وبكلّ ما وضع الله دليلاً عقليًا أو نقليًا من الكتاب والسنة ، ويتناول طاعة الله في جميع ما أمر به من فعل أو ترك صغيرًا ، كان أو كبيرًا . وقالوا : مجموعها هو الإيمان وترك كل خصلة من هذه الخصال هو الكفر.

الإيمان عند المعتزلة

اتّفق المعتزلة على أن الإيمان هو التصديق لأداء الواجبات ، فلا يقال ، عندهم فلان آمن بكذا إذا صلّى وصام بل قصروا الإيمان على الإيمان بالله ، فيقوّلون مثلاً للمؤمن فلان آمن كما يقولون للمصلّي فلان صلّى وللصائم فلان صام.

وافترقت أئمة المعتزلة في صورة الإيمان إلى مذاهب :

فقد ذهب واصل بن عطاء وأبو الهذيل العلاف ، والقاضي عبد الجبار ابن احمد إلى أن الإيمان : عبارة عن فعل كل الطاعات سواء كانت واجبة أو مندوبة أو من باب الأقوال أو الأفعال أو الاعتقادات. وذهب أبو علي الجبائي ، وأبو هاشم إلى أن الإيمان : هو فعل الواجبات دون النوافل.

وذهب النظام إلى أن الإيمان : عبارة عن اجتناب كل ما جاء فيه وعيد من الله فالمؤمن عند الله من اجتنب كلّ الكبائر وعنده من اجتنب كلّ ما ورد فيه وعيد وذهب بعض أتباع مذهبه إلى القول بأن شرط الإيمان عندنا وعند الله اجتناب الكبائر كلّها.

الإيمان عند الزيدية

ذهب علماء الزيدية في الإيمان إلى رأيين:

أحدهما : رأي سعيد بن كلاب فقد قال : إن المعرفة إيمان كامل وهو الأصل ، ثم بعد ذلك كلّ الطاعات إيمان على حدة ، وهذه الطاعات لا يكون شيء منها إيمانًا إلا إذا كانت مرتّبة على الأصل الذي هو المعرفة وزعم أن الجحود والإنكار القلبي كفر ، ثم أن كل معصية تعدّ كفرًا على حدة ولم يجعل شيئًا من الطاعات إيمانًا ما لم توجد المعرفة والإقرار ولا شيء من المعاصي كفر ما لم يوجد الجحود والإنكار.

الثاني : مذهب جمهور الزيدية . فقد قالوا : إن الإيمان اسم للطاعات كلّها وهو واحد لا يقبل التجزئة . وجعلوا الفرائض والنوافل كلّها من جملة الإيمان ، وقالوا : إن من ترك شيئًا من الفرائض ينتقص إيمانه ، أما ترك النوافل فلا نقصان فيه . وذهب البعض منهم إلى القول : إن الإيمان اسم للفرائض كلّها دون النوافل .

الإيمان عند مذاهب الفقهاء من أهل السنّة

ذهب أئمة السنّة إلى أن الإيمان يحصل بالقلب واللسان معًا (قال الإمام أبو حنيفة وتبعه عامة فقهاء المذاهب : إن الإيمان إقرار باللسان ومعرفة بالقلب) .

الإيمان عند المتكلمين من أهل السنّة

ذهب المتكلمون من أهل السنّة في تحقيق الإيمان مذاهب شتّى . فمنهم من قال : هو العلم بالله تعالى وبصفاته على سبيل التمام والكمال .

ثم كثر الخلاف في صفات الله تعالى وانقسموا في ذلك إلى طوائف كلّ طائفة تكفر الأخرى.

وذهب المحقّقون منهم إلى أن الإيمان هو العلم. وعرّفوا العلم بأنه كل ما علم بالضرورة بأنه من دين محمد ﷺ وأخرجوا بهذا الحدّ الجامع العلم بالمنازعات والجدليات الكلامية مثل كونه تعالى عالمًا بالعلم. أو عالمًا بذاته وبكونه مرئيًا أو غير مرئي. وجعلوا ذلك غير داخل في مسمّى الإيمان.

الإيمان عند الأشاعرة

ذهب الإمام أبو الحسن الأشعري وتبعه بشر ابن عتاب المريسي إلى أن الإيمان هو التصديق بالقلب واللسان معًا والمراد هنا بالتصديق هو الكلام القائم بالنفس.

الإيمان عند الكرامية

قالت الكرامية الإيمان مجرّد الإقرار باللسان وزعمت أن المنافق مؤمن في الظاهر كافر في السريرة يثبت له حكم الإيمان في الدنيا وحكم الكفر في الآخرة.

الإيمان عند الصوفية

وقالت طائفة كبيرة من الصوفية النظرية: الإيمان إقرار باللسان وإخلاص بالقلب وفناء الصورة الحادثة في الذات القديمة.

مراتب الإيمان

بعد أن صوّرنا مفهوم الإيمان وذكرنا مذاهب النظّار فيه ناسب أن نتكلّم على مراتبه وهي : ١– الإيمان بالله ، ٢– والملائكة ، ٣– والكتب المنزلة ، ٤– والرسل ، ٥– واليوم الآخر ، ٦– والقدر والقضاء.

١. الإيمان بالله

الإيمان بالله عبارة عن التصديق والجزم بوجوده ، وبأسمائه ، وبصفاته وبأفعاله وبأحكامه حسب النصوص الواردة بذلك في الكتاب المجيد.

والإيمان بالله تعالى ضروري لأنه ما لم يثبت أن للعالم صانعًا قادرًا على جميع المقدورات ، عالمًا بجميع المعلومات ، غنيًّا عن كل الحاجات مرسل الهداة وواضع الشرائع ، والسنن ، لا يمكن التصديق بشيء من الحقائق الوجودية ولا قبول المبادئ التعليمية التي تنظم حياة الإنسان وتصلح سلوكه مع نفسه ومع غيره ، لذلك كانت معرفة الله تعالى هي الأصل في تهذيب وترقية نفس الإنسان.

الإيمان بوجود الله تعالى

هو أن يعلم أن وراء المتحيزات موجدًا خالقًا لها ومن لا يؤمن بذلك ولا يثبت وراء المتحيزات شيئًا آخر فلا يكون مؤمنًا على التحقيق بل هو ملحد. أما الفلاسفة فإنهم مقرون بموجود مطلق سوى المتحيزات وانما الخلاف معهم ومع المعتزلة في الصفات لا في الذات.

الإيمان بالصفات

تنقسم الصفات الإلهية إلى قسمين: ثبوتية وسلبية.

الصفات الثبوتية: هي العلم بأن الموجب لذاته نسبة إلى بعض الممكنات كنسبته للبواقي. فلما رأينا هذه المخلوقات وقعت على وجه يمكن وقوعها علمنا أن المؤثر فيها قادر مختار لا موجب بالذات. وعلمنا من دقائق صنعها وأحكام ترتيبها كمال عِلمه وإتقانه فعرفناه قادرًا عالمًا سميعًا بصيرًا موصوفًا بصفات الجلال منعوتًا بنعوت الكمال.

الصفات السلبية: هي العلم بأن الله تعالى فرد منزّه عن جميع جهات التركيب لأن كلّ مركب يفتقر إلى كل واحد من أجزائه لإكمال ذاته، وكل واحد من أجزائه غيره فهو مركب مفتقر إلى غيره ممكن لذاته فإذن كل مركب فهو ممكن لذاته وكل ما ليس ممكنًا لذاته كان واجبًا لذاته فيمتنع أن يكون مركبًا بوجه من الوجوه بل كان فردًا مطلقًا وإذا كان فردًا في ذاته يجب أن لا يكون متحيّزًا ولا جسمًا ولا جوهرًا ولا في مكان، ولا حالاً في محل ولا متغيرًا ولا محتاجًا بوجه من الوجوه، بل هو المثل الأعلى.

الإيمان بأفعال الله تعالى

الإيمان بأفعاله تعالى هو العلم بأن كل من سواه ممكن محدث؛ والممكن والمحدث لا يوجد بذاته بل لا بدّ له من موجد يوجده، وهذا الموجد يجب أن يكون قديمًا سرمديًا لا بداية له ولا نهاية وكل ما سواه فإنما حصل أو يحصل بتخليفه وايجاده وتكوينه. إلا أن في الموضوع عقدة وهي في الأفعال الاختيارية، ولكن المتّفق عليه انها ممكنة محدثة مسندة إلى واجب الوجود كما سيأتي الكلام عليها في محلّها إن شاء الله.

الإيمان بأحكام الله تعالى

وهي على أربعة صفات :

الأولى : انها غير معلّلة أصلاً ، لأن كل معلّل يلزم أن يكون صاحبه ناقصًا بذاته كاملاً بغيره وهذا محال في حق الله تعالى.

الثانية : العلم بأن المقصود من شرعها منفعة عائدة إلى الوجود لا إلى الموجود لاستغنائه بذاته عن طلب المنافع ودفع المضارّ.

الثالثة : عدم وجوب شيء لأحد على الله تعالى بسبب أعماله وأفعاله.

الرابعة : العلم بأنه تعالى لا يجب عليه شيء ولا يقبح منه شيء.

الإيمان بأسماء الله الحسنى

جاء وصف اسماء الله تعالى بهذا النعت في أربع سور:

١ – الأعراف : في قوله تعالى : ﴿ولله الأَسماءُ الحُسْنَى فادْعُوه بِها وذَرُوا الذين يلحدون في أَسْمَائه﴾(١) .

٢ – في سورة الإسراء : في قوله تعالى : ﴿قل ادْعُوا الله أوِ ادْعُوا الرحْمَن أيَّامًا تَدْعو فَلَهُ الأسْمَاءُ الحُسْنَى﴾(٢) .

٣ – في أول سورة طه : في قوله تعالى : ﴿اللهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾(٣) .

٤ – في قوله تعالى : في آخر صورة الحشر: ﴿هُوَ اللهُ الخالِقُ البَارِئُ المُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى﴾ .

---

١) الأعراف ، ٧ : ١٨٠ .

٢) الإسراء ، ١٧ : ١١٠ (في الأصل سورة بني اسرائيل ، والصواب ما أثبتناه).

٣) طه ، ٢٠ : ٨.

الحكمة في وصف الله تعالى بالأسماء الحسنى

قصد القرآن من تحقيق هذا الوصف إبطال الأسماء الرمزية التي كانوا يطلقونها على الله تعالى وهي لا تدلّ على صفات الكمال ، والجمال وانما تدلّ على معان ملائمة للاعتقادات الوثنية المنافية لروح التوحيد.

وغير خاف أن الأسماء ألفاظ دالّة على المعاني فهي انما تحسن بحسن معانيها ومفهوماتها ولا معنى للحسن في معان رمزية أصلها في الغالب خرافي بل انما يكون الحسن في صفات الكمال ونعوت الجلال وهي محصورة في نوعين: عدم افتقاره إلى غيره ، وثبوت افتقار غيره إليه.

تقسيم العلماء لأسماء الله تعالى

قسّم العلماء أسماء الله تعالى إلى قسمين: أسماء الذات ، وأسماء الصفات. أما اسم الذات فهو: لفظ الجلالة (الله) وهو أعرف المعارف على الإطلاق لا يتناول غيره في اللغة العربية خلاف أسمائه في أكثر اللغات. وأما أسماء الصفات فهي على أربعة أضربٍ: حقيقية ، إضافية سلمية ، مركبة من الثلاث.

أما الحقيقة العارية عن الإضافة فهي: الوجود (عند من يقول الوجود صفة) أو الوحدة (عند من يقول الوحدة صفة ثانية) أو حي (عند من يقول ان الحياة صفة حقيقية) وهي عارية عن النسب والإضافات ، أما الصفة الإضافية المحضة فكقولنا (مذكور. ومعلوم).

والسلبية فكقولنا مثلاً القدّوس ، السلام المهيمن... الخ. والصفة الحقيقية مع الإضافية فكونه عالمًا وقادرًا. فإن العلم صفة حقيقية متعلقة بالمعلوم ، والقدرة صفة متعلقة بالمقدور. والصفة الحقيقية مع السلبية فكقولنا قديم ، أزلي. لأنه عبارة عن موجود لا أول له.

والصفة الإضافية مع السلبية فكقولنا أول فإنه هو الذي سبق غيره وما

سبقه غيره . وأما الصفة الحقيقية مع الإضافية والسلبية فكقولنا حكيم وهو الذي يعلم حقائق الأشياء ولا يفعل ما لا يجوز فعله على الإطلاق فالعلم مثلاً هو صفة حقيقية وكون هذه الصفة متعلقة بالمعلومات فهي نسب وإضافات وكونه غير قابل لما لا ينبغي السلب .

إذا عرف هذا فتقول : إن السلوب والإضافات غير متناهية ، فكونه خالقًا للمخلوقات صفة إضافية . وكونه محييًا ومميتًا إضافات مخصوصة ، وكونه رازقًا إضافات أخرى مخصوصة فيحصل بسبب هذين النوعين من الاعتبارات أسماء لا نهاية لها لله تعالى لأن مقدوراته غير متناهية .

ولما كان لا سبيل إلى معرفة كنه ذاته وانما يعرف بواسطة أفعاله فكلّ من كان وقوفه على أسرار حكمته في مخلوقاته أكثر كان علمه بصفاته واسمائه تعالى أكثر.

تقسيم صفات الله تعالى عند المتكلمين

قسّم المتكلمون صفاته تعالى إلى ثلاثة أقسام :

ما يجب ، وما يستحيل ، وما يجوز. وأثبتوا لله تعالى بحسب كلّ واحد من هذه الأقسام الثلاثة أسماء مخصوصة . والمذهب المختار عند المتكلمين أن أسماء الله تعالى توفيقية لا استقرائية ولا اصطلاحية يؤكّد هذا انه يجوز أن يقال : يا جواد ولا يجوز أن يقال : يا سخي ولا أن يقال : يا عاقل . فإن قوله تعالى : ﴿ولله الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فادْعُوه بِها﴾ يدلّ على أنه لا يجوز للإنسان أن يدعو إلهه إلا بتلك الأسماء ولذلك لا يجوز أن يقال له شيء وذات ، وحقيقة . وانما ان عنينا انه تعالى في نفسه ذات ، وحقيقة ، وثابت ، وموجود ، وشيء فهو كذلك من غير شكّ ولا شبهة وإن عنينا أن ندعوه بها بمثل ما ندعوه بالأسماء الحسنى التوفيقية فذلك عند السلف لا يجوز.

ما يحصل به الإيمان الكامل

روى أبو هريرة عن النبي ﷺ : الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها شهادة ان لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان.

والمستفاد من الحديث أن الإيمان لا يكمل إلا بالأخد والعمل بكل ما جاء عن الرسول من قول وعمل ممّا به يتقوّم التكليف ولا يغني عنه مجرد المعرفة أو الإقرار.

هل يزيد الإيمان وينقص

قال تعالى في الأنفال : ﴿وإذا تُلِيَتْ عَلَيْهُمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلونَ﴾ [١] .

اختلف العلماء في هل الإيمان يقبل الزيادة والنقصان أم لا ؟ ففريق منهم ذهب إلى القول الأول وقال إن الإيمان عبارة عن مجموع الاعتقاد ، والإقرار والعمل. وقالوا : لو كان عبارة عن المعرفة والإقرار لما قبلها واحتجّوا لقولهم بالآية .

وقال الواحدي : إن كلّ من كانت عنده دلائل أكثر وأقوى كان أزيد إيمانًا ، لأنه عند حصول كثرة الدلائل وقوتها يزول الشك ويقوى اليقين.

وقال غيره : الزيادة في التصديق زيادة في الإيمان. فإن التكاليف لما كانت متوالية في زمن الرسول متعاقبة فعند حدوث كل تكليف كانوا يزيدون تصديقًا وإقرارًا. ومعلوم أن من صدق انسانًا في شيئين كان تصديقه له أكثر من تصديق من صدقه في شيء واحد. وقوله تعالى ﴿وإذا تليتْ عَلَيهِمْ آياتُهُ زَادَتْهُمْ إيمَانًا﴾ معناه انه كلّمَا سمعوا آية جديدة أتوا بإقرار جديد ، فكان

١) الأنفال ، ٨ : ٢ .

ذلك منهم زيادة في الإيمان والتصديق . وقال الفريق الثاني الإيمان واحد ، لا يتجزأ ، ولا يزيد ولا ينقص ، وانما يتحقق ويثبت بالتمحيص والاختيار وقول القائلين بالزيادة فيه لا يخلو إما أن يكون مرادهم زيادة القوة في الدليل أو كثرة الدلائل ، أما الزيادة في قوة الدليل فباطل وذلك : لأن كل دليل مركب لا محالة من مقدّمات وتلك المقدمات إما أن يكون مجزومًا بها جزمًا مانعًا من النقيض أو لا يكون ، فإن كان الجزم المانع من النقيض حاصلاً في كل المقدمات امتنع كون بعض الدلائل أقوى من بعض على هذا التفسير لأن الجزم المانع من النقيض لا يقبل التفاوت .

وأما ان كان الجزم في النقيض غير حاصل إما في الكلّ أو في البعض ، لذلك لا يكون دليلاً بل أمارة والنتيجة الحاصلة منها لا تكون علميًا بل ظنًّا .

فثبت من هذا أن حصول التفاوت في الدلائل يسبّب القوّة ليس بمسلّم ولا سديد . وأما حصول التفاوت بسبب كثرة الدلائل فالأمر فيه كذلك لأن الجزم الحاصل بسبب الدليل الواحد ان كان مانعها من النقيض فيمتنع أن يصير أقوى عند اجتماع الدلائل الكثيرة ، وإن كان غير مانع من النقيض لم يكن دليلاً بل أمارة ولم تكن النتيجة معلومة .

والتحقّق أن المراد من الزيادة الدوام ، وعدم الدوام وذلك لأن بعض المستدلّين لا يستحضرون الدلائل والمدلولات إلا في لحظة واحدة ومنهم من يكون مداومًا لها وبين هذين الطرفين أوساط مختلفة تتفاوت مراتبهم في القناعة وأقوالها الجزم كما بيّناه .

٢. الإيمان بالملائكة

وهم مخلوقات روحانية جعلهم الله واسطة التبليغ بينه وبين خلقه . ولعلماء الحكمة القرآنية مع تقرير الإيمان لوجودهم بحث مهمّ عن ماهيتهم هل هي

روحانية محضة؟ أم ماديّة، أم مركبة من القسمين. وبتقدير كونها مادية فهل هي أجسام لطيفة شفافة أم كثيفة؟ فإن كانت لطيفة فهل هي أجسام نورانية أم هوائية؟

ويجب مع الإيمان بوجودهم التصديق بعصمتهم وطهارتهم وأنهم لا يعصون الله تعالى ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

وهم أقسام، كلّ قسم منهم موكل على قسم من أقسام هذا العالم كما نصّ على ذلك في محكم التنزيل في آيات كثيرة.

أقسام الملائكة

حملة العرش: قال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾[١].

الحافون حول العرش: قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾[٢].

كبار الملائكة: منهم جبريل، وميكائيل، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾[٣]. وقد ثنّى الله جبريل بنفسه فقال تعالى: ﴿فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ﴾[٤].

وعزرائيل، واسرافيل، فقد عني الأول بقوله: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ ٱلْمَوْتِ الَّذِي وكل بِكُمْ﴾[٥]، وأما إسرافيل فقد دلّت الأخبار على أنه صاحب الصور على ما جاء في كلام الله إذ قال في حقّه: ﴿فَصُعِقَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ. ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾[٦].

---

١) الحاقة، ٦٩ : ١٧.
٢) الزمر، ٣٩ : ٧٥.
٣) البقرة، ٢ : ٩٨.
٤) التحريم، ٦٦ : ٤.
٥) السجدة، ٣٢ : ١١.
٦) الزمر، ٣٩ : ٦٨.

الملائكة الموكلون بالموت

قال تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الذينَ كَفَرُوا الملائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وأَدْبَارَهُمْ﴾[١] .

ملائكة الجنّة

﴿وَالمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّار﴾[٢] .

ملائكة النّار

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِكَةً﴾[٣] . وقال عنهم أيضًا عليهم تسعة عشر ، وجاء : إن رئيسهم مالك ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾[٤] .

وسَمّاهم الله زَبَانية قال : ﴿سَنَدعُ الزَّبَانِيَة﴾[٥] .

الملائكة الموكلون بالآدميين

قال تعالى : ﴿عَنِ اليَمينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعيدٌ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[٦] . وقال : ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يحفظونه مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾[٧] . وقوله : ﴿هُوَ القَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ يُرْسِل عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾[٨] .

---

١) الأنفال ، ٨ : ٥٠ .
٢) الرعد ، ١٣ : ٢٣ .
٣) المدثر ، ٧٤ : ٣١ .
٤) الزخرف ، ٤٣ : ٧٧ .
٥) العلق ، ٩٦ : ١٨ .
٦) قٓ ، ٥٠ : ١٨ .
٧) الرعد ، ١٣ : ١١ .
٨) الأنعام ، ٦ : ٦١ .

الملائكة المكلفون بكتابة الأعمال

قال تعالى : ﴿عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِراماً كَاتِبينَ يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلونَ﴾ [١] .

الملائكة الرسل

قال تعالى : ﴿جَاعِلُ المَلائِكَةِ رُسُلاً أولي أَجْنِحَةٍ مثنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاع﴾ [٢] .

الاعتقاد بوجود الملائكة في الأديان السائرة

الاعتقاد بوجود الملائكة أساس في جميع الأديان. وانما الاختلاف في ماهيتها ووظائفها.

الملائكة عند الصابئة

يقولون عنها هي : روحانية الكواكب ويصفونها بأنها أحياء ناطقة وهي قسمان : كواكب إسعاد ، وكواكب إنحاس فالأولى ملائكة الرحمة والثانية ملائكة العذاب.

الملائكة عند المجوس

هي أجسام نورانية متحيّزة متولّدة من جوهر النور لا على سبيل التناكح بل على معنى تولّد الحكمة من الحكيم والضوء من المضيء.

الملائكة عند البراهمة

هي جواهر قائمة بنفسها ليست بمتحيزة وهي بالماهية مخالفة للنفوس الناطقة البشرية وأكمل قوّة منها وأكثر علمًا وهي جارية في النفوس البشرية

---

١) الانفطار ، ٨٢ : ١٠.

٢) فاطر ، ٣٥ : ١.

مجرى الضوء من الشمس إلى أبدانهم وهي قسمان :

قسم منها مسيّر لحركة الأفلاك. وقسم مستغرق في معرفة الله ومحبّته ومشتغل بطاعته. وذهب كثير من الهندوس إلى إثبات الأنواع الأخرى من الملائكة وهي الملائكة الأرضية المدبّرة لهذا العالم ويقولون عنها إن كانت خيرة فهي الملائكة وإن كانت شريرة فهن الشياطين.

الملائكة عند مشركي العرب

يعتقدون أن الملائكة أجسام هوائية لطيفة قادرة على التشكّل بأشكال مختلفة تسكن السموات وهن بنات الله.

الملائكة عند النصارى

وهم يسمّونها الأنفس الناطقة المفارقة لأبدانها غير المتحيزة ولا هي بأجسام على نعت الصفاء والخيرية.

الإيمان بوجود الشياطين

فرض العلماء الممكنات على ثلاقة أقسام : المتحيّز – الحال في المتحيّز – الذي لا يكون متحيزًا ولا حالاً في المتحيز فالأولان من المحسوسات المشاهدة التي لا كلام فيها.

وانما الكلام في الثالث ، وقالوا لم يقم دليل على بطلانه. بل هناك دلائل شتّى للعلماء الروحانيين على إثباته وهم ينقسمون إلى قسمين :

قسم طاهرات من عالم القداسة وهم الملائكة وقد أسلفنا الكلام عنهم. وقسم خبيث دائم الشرور والآفات من عالم الأجسام ومنازل الظلمات وهم الشياطين. ولا يخفى أن هذه العقيدة أصلها الديانة «المثنوية» ، فقد فرضوا أن الشياطين جواهر روحانية لطيفة خبيثة الفعل مجبولة على الشرّ وهي مشاكلة في

الفطرة للنفس الإنسانية واختلف علماء الأديان الذي جروا على هذه العقيدة في تعليل كيفية تأثيرها واستهوائها للنفوس البشرية.

مذهب القائلين بعبادة روحانية الكواكب

ذهب فريق من القائلين بعبادة روحانية الكواكب في تعليل هذا التأثير الى القول: بأن النفوس البشرية مختلفة بالنوع وهي طوائف وكل طائفة متعلقة بتدبير روح من الأرواح السماوية، فنوع من النفوس البشرية تكون حسنة السلوك كريمة الأفعال. موصوفة بالفرح والبشر والسهولة وهي بالطبع مستمدّة من روح كوكب سماوي طاهر. وطائفة أخرى موصوفة بالحدّة والنزق والطيش والغضب واللؤم والخشونة وعدم المبالاة بالأمور وهي مستمدّة من روح كوكب آخر قوي جبّار.

ويقولون، إن الأرواح البشرية هي في الجملة كالنسل وكالنتائج التي هي أرواح الكواكب السماوية وهي الأصل والينبوع ولمشاكلتها ومجانستها يعين بعضها بعضًا على الأعمال الملائمة لها والأفعال المناسبة لطبائعها، فكل ما في الكواكب من أحوال ينعكس في الأجرام السفلية وهذه كالرمز أو الصورة لتلك، فهي غير متنقلة ولا منفكة عنها فإن كانت خيّرة طاهرة طيبة دعيت ملكًا وسمّي اتصالها إلهامًا، وإن كانت خبيثة مسيئة دعيت شيطانًا وسمّي اتصالها وسوسة.

مذهب القائلين بخلود الأرواح وعبادتها

ذهب فريق من الذين يدينون بعبادة الأرواح إلى القول بأن الأرواح البشرية أزلية خالدة غير قابلة الفناء وهي إذا فارقت أجسادها قويت في الصفات التي اكتسبتها في تلك الأبدان وكتلت فيها فإذا حدثت نفس أخرى مشاكلة لتلك النفس المفارقة في بدن مشاكل لبدن تلك النفس المفارقة حدث

بين تلك النفس المفارقة وبين هذا البدن نوع تعلق بسبب المشاكلة الحاصلة بين هذا البدن وبين ما كان بدنًا لتلك النفس المفارقة فيصير لتلك النفس المفارقة تعلّق شديد بهذا البدن وتصير تلك النفس المفارقة معاونة لهذه النفس المتعلقة بهذا البدن ومعاضدة لها على أفعالها وأحوالها بسبب هذه المشاكلة في الخير والفضائل كانت إلهامًا وإن كان في الشر والسوء كانت وسوسة.

مذهب القائلين بجسمانية الأرواح

ذهب القائلون بجسمانية الأرواح أن الملائكة والشياطين أجسام مادية لطيفة غير كثيفة ركّبت تركيبًا عجيبًا بحيث تنفذ في كلّ شيء ولو كان جرمًا كثيفًا ، وهي مع لطافتها لا تقبل التفرّق والتمزّق والفساد والبطلان. واستدلّوا على صحّة هذه الدعوى بالروح ، فقالوا انها جسم لطيف شفّاف نفذ في داخل عمق البدن وقالوا إن اشتباكها بالجسم وتدخّلها فيه شبيهة بتدخّل النار بالفحم والعطر بالزهر والدهن في الحبوب واستخرجوا من هذا الامتزاج دليلاً على إثبات وجود الجنّ والشياطين.

وقالوا : ليس في وسع العقول أن تحيل ذلك وإنما فرّقوا بين الشياطين والملائكة في المادّة التي خلقوا منها فقالوا خلق الملائكة من نور وخلق الجن والشياطين من اللهب والدخان وقد جاء القرآن موافقًا لهذه النظرية فقال : ﴿وَخَلَقْنَا ٱلْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾[1] وقال أيضًا : ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾[2].

---

١) الرحمٰن ، ٥٥ : ١٥.
٢) الحجر ، ١٥ : ٢٧.

رأي علماء الإسلام في الشياطين

ذهب علماء الإسلام فيمَا يتعلق بأرواح الشياطين وتأثيرها إلى القول بأنها خارج النفوس ، وإنما تلقي إلى نفوس الناس أنواعًا من الوساوس والأباطيل فيحدث عن ذلك الإلقاء ما نشاهده من الأغواء والاضلال في أحوال البشر. وذهب المعاصرون من العلماء الذين يريدون التوفيق بين التعاليم الروحية والحقائق الطبيعية إلى جعل المارج من النار كناية عن العفونات وما شاكلها من الموادّ الخبيثة الجامع بينهما في كلّ هو إحداث الضرر وإلهاب الأجسام. والجان مخلوقات مستترة وهي الجراثيم التي جعلها الله حربًا للمخلوقات الحيّة ، وهي مفطورة على الضرر والايذاء ، وفي نظري عدم حمل الكلام على التأويل وتركه على ظاهره أولى.

٣. الإيمان بالكتب الإلهية

التصديق بأن صحف إبراهيم ، التوراة ، الزبور ، الإنجيل ، الفرقان ، وكلّ ما نزل على قلوب الرُسل الكرام هي كتب ملهمة منزّلة على الصفوة من الخلق لهداية البشر إلى الحق وإرشادهم إلى الإيمان وتعليمهم الواجب وإقامة الحدود وحماية الحقوق وإشاعة الفضائل وإزالة المفاسد ومحو الرذائل إلى غير ذلك من القواعد وأصول التعاليم الإلهية.

أما كيفية الإيمان بالكتب الأولى قبل مبعث الرسالة المحمدية (ﷺ) ، فإنها موضحة فيمَا نقل لنا عن الرسول ﷺ فقد ورد أن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قال يا رسول الله إن أناسًا من أهل الكتاب يحدثوننا بما يعجبنا فلو كتبناه؟ فقال ﷺ : إنكم لم تكلّفوا أن تعملوا بمَا في التوراة والإنجيل وإنما أمرتم أن تؤمنوا بها وتفوّضوا علمها إلى الله تعالى. ومعنى قولى ﷺ إنه يجب التصديق بتلك الكتب وما بني عليها من الأديان وإنها إلهية وان وجوب

التصديق بها لا يوجب العمل بمَا فيها لأن الإيمان شيء والعمل شيء آخر. فإن التصديق بوجود شيء لا يستلزم دوامه.

والمراد بالإيمان التصديق بالأمر الواقع ، وأما الأعمال فإنها متعلقة بالخطاب ، ونحن غير مخاطبين بمَا في تلك الكتب بل بما ورد بالقران والقرآن ناسخ لها ومهيمن عليها. على أن كلّ ما ورد في الكتب الإلهية السالفة من القواعد والأصول العامة التي لا تختلف باختلاف العصور كالحكم والإيمان والهدايات العامة أنزلها الله في القرآن وأضاف لها ما استحدث بعدها من الأصول والقواعد لتقوم بذلك حجّة على الخلق ، وقد شاء الله أن تكون هذه الشريعة خاتمة للشرائع الإلهية وجعلها عصامًا للدنيا والآخرة حتى لا تبقى حاجة للبشر لتلقّي الوحي بعد الإكمال والرشد وإتمام النعمة.

٤. الإيمان بالرسل

الرسل هم الصفوة من البشر المطهّرون من النقائص ، المعصومون من الزيغ المحفوظون من الزلل. وهم قسمان : قسم قصّه الله علينا ، وقسم لم يقصصهم ، كما قال تعالى في كتابه المجيد : ﴿ولقَدْ أرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنا عَلَيْكَ ومِنْهُم مَنْ لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾[1].

والحدّ الجامع لمعرفة الرسول : فهو كل رجل أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه وقام بالدعوة إلى الله وتمكّن من فتح مغالق القلوب وهداية النفوس إلى الحقّ ، فهو الرسول الصادق الهادي بلا ريب.

والذين قاموا بهذه الهداية كثيرون لا يكاد يحصيهم العدّ أرسلوا لهداية الخلق إلى الحقّ ، ونقلهم من الظلمات إلى النور فأدّوا الأمانة عن الله وكانت

---

١) غافر ، ٤٠ : ٧٨.

حياتهم المثل الأعلى للطهر والقداسة والتضحية في سبيل الواجب فنفع الله بهم وأحيا بهم الأرض بعد موتها وأعلى بهم حكمة الخلق.

فوائد بعثة الرسل

ذهب علماء الحكمة الإسلامية في تقرير بعثتهم إلى أنها إحسان من الله إلى الخلق. فقالوا: لما كان الانتفاع بهم أكثر تحققًا كان لإنعام بعثتهم أكثر ظهورًا من حيث المنافع المترتبة على وجودهم، وكذلك المزايا الحاصلة من فطرهم الكاملة، وسجاياهم العظيمة بدليل ما ظهر على أيديهم من الخصال التي لم ينلها العالم على أيدي غيرهم من أكابر قوّاد الدنيا وعظماء الفاتحين.

أما المنافع الحاصلة بسبب البعث فقد ألمّ بذكرها القرآن المجيد بقوله تعالى: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِين وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُل﴾[1].

ووجه النفع أن الخلق جُبلوا على النقصان وقلّة الفهم، وضعف الدراية، وقلّة الاختيار، ووظيفة الرسل تلافي تلك النقائص وإكمال النفوس بوسائط التعليم، والإرشاد، والتنبيه إلى الواقع، وتقوية الحسّ وتنمية الشعور، وإقامة الدلائل، وتقريب الحقائق إلى الأذهان، وتنمية الإدراك، وكشف الأستار عن القلوب وإزالة الشبهات والشكوك عن العقول. فيعرفون من تعليمهم: الإيمان، والحبّ وتزكية النفس، وتقوية الروح.

ومهما تكهنّا أو بحثنا، ونقبّنا في تاريخ تفكير البشر فإننا نجدهم لم يدركوا سرّ الحقّ وحكمة الخلق إلا بعد ظهور الوحي، والتلقين للشرائع، والأحكام الإلهية. ولولا ذلك لما أمن البشر من الغلط والخطأ، والتردّد في نظرياته ولما سار بخطى واسعة في نهضاته.

---

١) النساء، ٤ : ١٦٥.

وقد صوّر لنا بعض العلماء الروحيين تأثير الرسالة عن الله تعالى فأحسن التصوير إذ قال :

«إن أنوار عقول الخلق مجري مجرى أنوار البصر. ومعلوم أن الانتفاع بنور البصر لا يكمل إلا عند سطوح النور (العام) فكذلك نور النفس الناطقة لا يكمل ولا يتحقق إلا بشروق نور الرسالة وهو نور روحي إلهي يجري من النفوس مجرى الشمس من الأبصار ويقوّيها بنور هدايته وإرشاده ويظهر للعقول من أسرار الغيب والشهادة ما كان مستترًا عنهم قبل ظهوره».

هذه حقيقة فوائد البعثة الإلهية للبشر.

أما المنافع والفوائد الحاصلة بسبب ما في الرسل من الفطر الكاملة فيمكن استقراؤها من أثر الأديان الذي نشاهده في مختلف المالك ونقارنها بالمالك التي لم تخضع لدين ولم تتأثّر به فإنا نجد المدنيات كلها نتيجة طبيعية لنهضات تلك الأديان.

أما المالك المحرومة من ظهور الأديان فإنها استمرّت كذلك محرومة من التمتّع بالمدنيات. فالمدنيات هي أثر طبيعي لعمل الرسل الإلهيين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين* .

---

* لم تنشر مجلّة جامعة آل البيت القسم الأخير من هذه المحاضرة المتعلق بالعنصرين الخامس والسادس من عناصر الإيمان ، أي الإيمان باليوم الآخر والإيمان بالقضاء والقدر.

الفصل الثالث

أركان التصديق

١ – الصلاة

تأثيرها المادي – تأثيرها المعنوي

النظافة وفلسفتها

قال الله تعالى : ﴿ما يريدُ الله ليجعلَ عَلَيْكُم في الدّين مِنْ حَرَجٍ ولكن يُريدُ ليطهِّرَكُم﴾[1] ، وقوله : ﴿رِجالٌ يُحِبُّونَ أن يَتَطَهَّرَوا وَاللهُ يُحِبُّ المُطَّهِّرِينَ﴾[2] ، وفي الحديث «الطهر نصف الإيمان» وورد أيضًا «مفتاح الصلاة الطهور» وقال «تنظفوا فإن الإسلام نظيف».

---

١) المائدة ، ٥ : ٦.

٢) التوبة ، ٩ : ١٠٨.

الماء الطهور

نصّ فقهاء الملة الإسلامية على أن الطهارة الشرعية لا تحصل إلا بالماء المطلق ، الذي لم يتغير أحد أوصافه الثلاثة : الطعم ، الريح ، اللّون. وقال الشافعية : الماء المطلق هو الذي لم يتفاحش تغيره بمخالطة ما يستغني عنه.

وأجمع علماء الجراثيم على أن الماء إذا تغيَّر بالإفرازات ، أو تلوّث بالجراثيم المضرّة ، لا يطهّره إلا الغليان بشرط أن تبلغ درجة الحرارة (٨٠س). ولا فرق في تلوّث الماء عندهم إذا كان قليلاً أو كثيرًا بتلك الموادّ المضرّة وهي لا توجد غالبًا إلا في الإفرازات ، مثل النجاسات بأنواعها ، أو الجيف. ولذلك تجد العناية بالمياه والاقتصار منها على الطهور الذي لم يخالطه شيء من أهمّ المقاصد الشرعية.

الغسل والوضوء

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّها الّذينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلوا وُجوهَكُم وأَيديكم إلى المرافِقِ وامْسَحُوا برؤوسِكُمْ وأَرْجُلِكُم إلى الكَعْبَيْنِ ، وإِن كُنْتُمْ جُنُبًا فاطَّهَّروا﴾[1] .

يستعمل الماء الطهور للنظافة الشرعية في إزالة النجاسة والوساخة عن ثوب ومكان ، وبدن المسلم لارتباطها بحياته وسلامته ، لذلك كانت إزالتها عن الأماكن الثلاثة واجبة شرعًا.

وأما الغسل والوضوء فهما فرض عين على كلّ مكلّف بأنهما شرط في صحّة الصلاة. ومن هناك نعلم أن النظافة هي عبادة من أجلّ العبادات

١) المائدة ، ٥ : ٦.

الإسلامية. والقصد منها أثرها ولو أُمِرَ بها المسلم لمجرّد النظافة بدون أن تقترن بالصلاة لأهمل أمرها كما أهمل غيرها، ولكن اقترانها بها وجعلها شرطًا في صحّة أدائها صيّرها شيئًا لازمًا للمسلمين.

والذي يؤكّد لنا أن الوضوء مشروع لنظافة وإصلاح الجسم والعناية به إيقاعه على الأعضاء المباشرة التي تلامس الهواء، مثل الوجه واليدين والرجلين والأذنين والأنف ومنابت الشعر وتكرار غسل هذه الأعضاء ثلاث مرات بالحالات المختلفة المقتضية لتجديد الوضوء. حتى ولو لم يحدث فإن الشارع ندبه إليه فقال ﷺ: «الوضوء على الوضوء نور على نور»، ومن تتّبع كيفية الوضوء علم أن الغاية منه هي النظافة والتطهير كما قلنا.

الحكمة في غسل اليدين ثلاثًا قبل إدخالها الإناء:

سنّت الشريعة الإسلامية غسل اليدين قبل إدخالها في الإناء ثلاثًا. والسرّ في ذلك هو أن الكفّ آلة اللّمس التي تقع على الأشياء، تتعلّق بها كافة الجراثيم وما شاكلها من الأوساخ، وتتراكم على المسامّ فإذا لم تغسل قبل وضعها في الإناء تحلّلت فيه الجراثيم فإذا تناول منه الماء كان الضرر عظيمًا لذلك شرع غسلها قبل إدخالها في الإناء. حدّها بالثلاث تحرّيًا للنظافة.

المضمضة والاستياك وحكمتها:

شرعت المضمضة لتنظيف داخل الفم من القلح والأوساخ وكل الرواسب التي ترسب بين اللثة والأسنان، ولا يخفى أن الفم من الأعضاء الرأسيّة في الجسم، وهو مصدر الصحة والسقم، له وظائف عديدة عليها مدار الحياة، فيه تذاق الطعوم لذيذة كانت أو غير لذيذة، وبه تحصل التغذية للجسم. فالأسنان مثلاً للقطع والقضم، والأضراس للطحن والمضغ، والغدد للإفراز، واللعاب للت الطعام وازدراده، واللسان للتذوق وتكييف

الأصوات. لذلك وجبت العناية به وبسلامته وحفظه.

ومن المقرّر في قواعد الصحّة وجوب تنظيفه من القلح وهو عشّ الجراثيم، وأكثر الأمراض التي تنشأ في المعدة مصدرها هذا القلح. ومنها عسر الهضم. وكذلك بعض الالتهابات. ولتحقيق سلامته وتطهيره أمرتنا الشريعة الإسلامية بغسله وجعلت ذلك من جملة العبادات، فنبّهت الناس قبل أن تنبههم العلوم والفنون إلى العناية بالأمور الصحيّة العامة. فجعلت لنا غسل الفم وتطهير الأسنان من جملة أحكام الوضوء الذي هو شرط في صحّة الصلاة ولم تكتف بذلك بل قرنت غسله بالاستياك، فقد قال ﷺ: «مالي أراكم قلحًا أي صفر الأسنان استاكوا» وكان ﷺ يستاك في الليلة مرارًا. وعن ابن عبّاس رضي الله عنه قال: «إن رسول الله ﷺ لم يزل يأمرنا بالاستياك حتى ظننا أنه سينزل عليه فيه شيء». وفي رواية البخاري: «عليكم بالسواك فإنه مطهرة للفم ومرضاة للرب». وقال أمير المؤمنين علي، رضي الله عنه: السواك يزيد في الحفظ ويذهب البلغم. وليس السواك مطهرًا للفم فحسب بل هو منقٍ لِلَّثة، صاقل للأسنان قاتل للجراثيم التي تحصل من بقايا الطعام. وإصلاح الأسنان يساعد على الهضم ويقي المعدة من أمراض كثيرة. وهذا الطبّ العصري الذي بلغ أرقى الدرجات لم يشرع للإنسان في تطهير وتنقية الفم شيئًا زائدًا عمّا شرعه الإسلام.

الاستنشاق والاستنثار، وحكمتها:

تقرّر في علم وظائف الأعضاء أن الأنف هو أداة التنفّس، والواسطة لنقل الهواء الجيّد إلى المعدة. فإن الرئة تجتذب بواسطته في كل نفس «ليترة» من الهواء الجيّد المسمّى مولد الحموضة، وتدفع مثلها من حامض الفحم. ولما كان هذا العضو هو الواسطة لإيصال الهواء النقي إلى المعدة وإخراجه منها بعد مروره منه كانت الجراثيم الواردة والخارجة ترسب فيه، فلذلك وجب تطهيره.

مسح الأذنين وحكمته :

الأذنان هما آلة نقل الأصوات إلى الدماغ ونقل الأخبار والعلم إلى الذهن وتكييف الكلم وحالاتها إلى القوة الناطقة فوظيفتها في تكوين حياة الإنسان وتوفير أسباب راحته وهنائه وظيفة عظيمة . ولما كانت معرّضة دائمًا لما يلامسها من الذرّات الخارجية لا تنفكّ عمّا يلتصق بها من الأوساخ والجراثيم فترسب فيها ، شرع الله غَسلها وجعلها من جملة أعضاء الوضوء التي يتكرّر غسلها في كلّ يوم مثل بقية الأعضاء البارزة .

تنظيف الشعر وحكمته :

من أهمّ مطالب النظافة غسل الشعر وترجيله ، لذلك شرع الله غسله في الطهارة الكبرى ومسحه في الوضوء لئلاَّ يغفل عنه الإنسان. والشعر من الظواهر الجسدية التي تتولدّ عن إهمالها الأمراض والأضرار. وهي من جملة ضروب الزينة للجسد فهو يحملها كما يحمل الروض الأرض . فإذا لم تتعهّده بالنظافة والترجيل والتطبيب كان ضرره وخيمًا ، وانقلب جماله إلى كئابة تشين الجسم ، فقد تتراكم عليه الأوساخ وتنسدّ منافذه المتصلة بالهواء ، وتنجس الإفرازات داخل القصبة وتحت الجلد ، فيصير في هذه الحالة بؤرة للجراثيم ومعرشًا للقمل وهو أقذر أنواع الطفيليات التي تعيش في دم الإنسان بسبب جهله وغباوته ، وتنقل إليه الأمراض ومن أفدحها وأخطرها «التيفوس» .

الحكمة في ترجيل الشعر وإدهانه وإزالة الشعث عنه :

لم يشرع الدين غسل الشعر وتنظيفه فحسب ، بل شرع ترجيله وإدهانه . فقد ثبت في الصحاح أن النبي ﷺ كان يدهن الشعر ويرجله ويأمر به . وكانت له ﷺ طرائق في ذلك مبسوطة في شمائله الكريمة .

ونقل عن أبي هريرة بإسناد ضعيف : «من كانت له شعرة فليكرمها» أي يغسلها ويرجّلها ويدهنها . وعن ابن حبّان بإسناد جيّد قال : «دخل رجل ثائر الرأس أشعث اللحية ، فقال عليه الصلاة والسلام : أما كان لهذا دهن يسكن به شعره» . وعن الطبراني : «أنه كان ﷺ لا يفارقه المشط» . وفي حديث أنس بن مالك : «أنه كان ﷺ يسرح لحيته مرتين» .

وذكر الغزالي رحمه الله في حديث عن عائشة قالت : «اجتمع قوم بباب رسول الله ﷺ فخرج إليهم بعد أن رجل شعره وقال : إن الله يحبّ من عبده أن يتجمل لإخوانه إذا خرج إليهم» . ولكن ابن عدي ينكر هذا الحديث .

الحكمة في تنظيف البراجم :

من الدلائل القاطعة على انحطاط الأخلاق والصحة في الأفراد والجماعات ترك العناية بتربية الجسد . فإن الأمم المتوحشة التي تشاكل حياتها الحياة الحيوانية لا تفكّر في تحسين الصحة وترقية مظاهر الجمال . وكلاهما لا يحصلان إلا بالعناية والتعهّد ، فإن الكفّ وهي من الأعضاء البارزة مثل الوجه ينبغي أن تكون ظاهرة للجمال ، لذلك أوصت الشريعة المطهّرة بتنقية البراجم (وهي الغضون التي تعلو الأصابع) . فقد روى الترمذي عن عبد الله بن بسر بسنده عن النبي ﷺ قوله : «نقّوا براجمكم» أي معاطف الغضون . والحكمة في ذلك النظافة وبروز الجمال ...

العناية بالأنامل وتنقية ما تحت الأظافر :

ليست العناية بتربية الأنامل وتحسينها أقلّ من العناية بالوجه في نظر الشريعة الإسلامية ، فقد ثبت في شمائله الكريمة ﷺ أنه كان يعتني بتطهير أنامله الشريفة ، وتقليم أظافره ، وتنقية ما تحتها .. روى ابن عبّاس ، رضي الله عنه ، قال : «ابطأ الوحي ، فقالوا : يا رسول الله لقد ابطأ عنك جبريل ،

فقال : ولم لا يبطئ وأنتم لا تستنون ولا تقلمون أظفاركم ولا تقصون شواربكم ولا تنقون براجمكم».

التيمّم وحكمته :

التيمّم وسيلة استثنائية للتطهير لحالات استثنائية تحول بين المكلّف والماء ، أما لفقده ، أو لعذر شرعي آخر ، لذلك جعلت له الشريعة مندوحة للتطهير في التراب وهو التيمّم.

ما يقع به التيمّم :

قال تعالى : ﴿فَلَمْ تَجِدُوا ماءً فَتَيَمَّمُوا صعيدًا طيبًا﴾[1] والصعيد كل ما علا على الأرض من الحجر والتراب وقد احترز بالصعيد من المصنوع ونحوه ، وبالطيِّب من الأشياء المستقذرة أو ما كان في حكمها.

صورة التيمّم :

قال تعالى : ﴿فامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وأَيْدِيكُم﴾[2] لعلماء الملّة الإسلامية في تعليل هذا النوع من الطهارة رأيان :

الأول : المسح نوع من الدلك يروّض الأعصاب ، ويزيل الرواسب عن مسامّ الأعضاء الممسوحة ، وهو ضرب من الرياضة والتطهير.

الثاني : أن التيمّم شرع لعدم التهاون في الصلاة سواء لفقد الماء أو لعدم القدرة على استعماله وسواء تعدّدت وجوه الحكمة أو اتّحدت فقصد الشارع بيّن ، وهو حمل النفس على الظهور في أكمل الحالات وأطيبها.

---

١) و ٢) النساء ، ٤ : ٤٣.

التطيّب والتزيّن :

كان الطيب النبوي الذي يستعمله ﷺ هو المسك والعنبر. وكان ادهانه الغالية ، وكان شديد العناية بالطيب والإكثار منه ، فقد رُويَ عن أنس بن مالك ، رضي الله عنه ، قال : «ما شممت عنبرًا ولا مسكًا قط ولا شيئًا أطيب من ريح رسول الله ﷺ» ، وعن جابر : «أنه عليه السلام مسح خدّه قال فوجدت بيده ريحًا وبردًا كأنما أخرجها من جؤنة عطار» . وقال غيره من رواة شمائله ﷺ أنه كان يصافح المصافح فيظلّ يومه يجد ريحها ، ويضع يده على رأس الصبيّ فيعرف من بين الصبيان بريحها. وروى البخاري في كتابه الكبير عن جابر : «لم يكن النبي ﷺ يمر في طريق فيتبعه أحد إلا عرف أنه سلكه من طيبه» .

أما التزيّن فقد قال الله تعالى في حقّه : ﴿يا بَني آدمَ خُذوا زينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا واشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إنّه لا يُحِبُّ المُسْرِفينَ﴾[١] .

نزلت في منع التقشّف ، روى قتادة قال : إنّ حيًّا من أهل اليمن كان أحدهم إذا قدم حاجًّا أو معتمرًا يطرح ثوبه ويطوف عاريًا ، فأنزل الله تعالى : ﴿خُذُوا زِينَتَكُم عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ . ونقل عن الزهري أن العرب كانت تطوف بالبيت عراة إلا الحمس ، قريش وأحلافهم ، وإن طاف في ثياب نفسه ألقاها إذا قضى طوافه يحرمها ، أي يجعلها حرامًا عليه . لذلك نزل قوله تعالى : ﴿خُذوا زينَتَكُم عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ . أما الطيّبات التي كانوا يحرّمونها فقد قالوا عنها هي اللحم . وقال ابن زيد : كان قوم يحرّمون ما يخرج من الشاة لبنها ، وسمنها ، ولحمها . وقال آخرون : ما حرّموه على أنفسهم من السائبة والواصلة والحام . وعندي لا تنافي بين هذه الأقوال .

---

١) الأنعام ، ٦ : ٣١ .

وروي عن ابن عبّاس رضي الله عنه يشارك المسلمون الكفّار في الطّيّبات ، أكلوا من طيّبات طعامهم ولبسوا من خيار ثيابهم ونكحوا من صالح نسائهم ثم يخلص الله الطيبات في الآخرة للذين آمنوا وليس للمشركين فيها شيء.

وقال تعالى مصوّرًا للمحرّمات في حكمة تحريمها في معرض ترقبه وإصلاح العرب : ﴿قُل إنّما حَرَّمَ رَبِّيَ الفَوَاحِشَ ما ظَهَرَ مِنها وما بَطَنَ والإِثْمَ والبَغْيَ بِغَيْرِ الحَقِّ﴾[1] .

ولم يحرّم عليهم لبس ثيابهم عند الطواف بالبيت ، ولم يحرّم عليهم أكل الطّيّبات كما حرّموها على أنفسهم زيادة في شقائهم ، بل أحلّ ذلك لعباده المؤمنين ، وطيّبه لهم. ولم يحرّم عليهم إلا القبائح والشرك بالله والقول على الله من غير علم ، وهذا من أشدّ أنواع البهتان ، ويندرج تحته كل عادة قبيحة باطلة ليس لها أصل في دين الله ، ويتلخّص لنا ممّا ذكرناه أن الزينة من العبادات التي ندب الله إليها وهي أسّ من أسس إصلاح النفس ، وترقية الذوق الاجتماعي ، أما التقشّف وما شاكله من مظاهر الانحطاط فلا يتّفق مع روح الإسلام في شيء...

الشرط الثاني من شروط صحّة الصلاة

الحكمة في استقبال القبلة

يخطئ من يتوهّم أن الأمم يستقيم لها ظل في الوجود دون أن يكون لها وطن قومي جامع تهيم بحبّه وتتغنّى بذكره ومجده. ويخطئ أيضًا من يتوهّم أن الإسلام مقوض للعقائد الوطنية وهو انما جاء لتكوينها وتعميمها ووضع القواعد

---

١) الأنعام ، ٦ : ٣٣.

الأساسية لتعاليمها . فقد جعل الكعبة البيت الحرام مثابة للناس وأمنًا . واتّخذ من مقام إبراهيم مصلّى ، يستقبله الموحّدون من مختلف البقاع المسكونة في صلواتهم المكتوبة التي يؤدّونها في اليوم والليلة فقد قال جلّ من قائل مخاطبًا لنبيّه ﷺ : ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرَامِ﴾[1] إيقاظًا وتنبيهًا له على أنه الوطن العام للإسلام ثم انثنى مخاطبًا المسلمين كافّة لافتًا قلوبهم وشعورهم إلى هذه الوطنية العامة فقال : ﴿وحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾[1] . وهذا الخطاب صريح في أن الكعبة هي القبلة العامّة الجامعة لقلوب وميول المسلمين التي يجب أن يعكفوا عليها وهي وطنهم جميعًا الذي لا ينفصلون عنه ما داموا مسلمين بحيث لا تصحّ لهم صلاة دون أن يستقبلوه . وأيّ وطن تتعلّق به النفس وتلتفّ حوله القلوب أشدّ من الوطن الذي لا يعبد الله إلّا باستقباله ، ولا تتوجّه الروح في تجرّدها وتعاليها إلّا إليه ، وشتّان بين وطن يجمع شتات مدنيات العالم عبر التاريخ ، ويوحّد بين مختلف القوميات والأجناس ويطبعهم بطابع الإيمان بالله ويكوّن منهم قلبًا واحدًا يدين بالحقّ ويأمر به ويحيي ويموت في سبيله ، ووطن ضيّق النطاق رازح تحت قيود التاريخ والتعاليم الخرافية والأوضاع الجغرافية لا ينفذ منها إلا من خروق دقيقة مهمَا اتّسعت هي أضيق من سمّ الخياط . ولو فطن المسلمون لما في وطنية القبلة من قوة الرابطة وصلابة الوحدة لكانوا أعزّ وأقوى أمم الأرض . ولكن أنّى لهم أن يفقهوا ذلك؟ وفي القلوب أكنّة وعلى البصر غشاوة ، وفي السمع وقر ، وهم لا يدركون من معنويات الدين وأسراره الروحية العالية إلا بمقدار ما يتصوّرونه من التعاليم الحرفية التي جبلوا عليها وهي ليس فيها أثر للحكمة .

---

١) البقرة ، ٢ : ١٤٤ .

الحكمة في التوقيت :

قال تعالى : ﴿إِنَّ الصَّلاةَ كانَتْ عَلىٰ المُؤْمِنِينَ كِتابًا مَوْقُوتًا﴾[١] وقال أيضًا : ﴿أَقِمْ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الفَجْرِ كانَ مَشْهودًا﴾[٢] .

وقد أجمع فقهاء الملّة الإسلامية على أن الصلاة لا تجب إلاّ بعد دخول الوقت .

والحكمة في التوقيت حمل النفس على تنظيم العمل وترتيبه ومنع الخلل والتراخي فيه ، لأن من شأنها التردّد وعدم المحافظة على العمل النافع في الوقت اللازم . وإذا تركت الأمور للاختيار والاجتهاد جنحت إلى الترك . فالأشخاص الذين لا يلتزمون النظافة مثلاً في الأوقات المعينة لهم نجدهم في الغالب عرضة للأوساخ والأقذار. فتارة يكونون نظيفي الأجسام وتارة يكونون قذرين . أما الذين يجبرون على النظافة في الأوقات المعيّنة وإن لم يكن بهم وسخ فأجسامهم تكون نظيفة دائمًا . وإذا تعوّد الإنسان ترتيب أعماله على الأوقات كما نراه يفعل في الوضوء والصلاة تراه حريصًا على الوقت فيتوفّر له العمل ويتسع له الزمن وتنتظم شؤونه وحالاته ويكون أحرص من أن يضيع من عمره وقت يذهب سدى بل يجعله سلسلة أعمال يأخذ بعضها برقاب بعض . وقد ثبت بالتجربة أن الترتيب بالتوقيت يجعل النظام خلقًا وعادة في جميع حركات الإنسان وسكناته .

والدليل على ذلك أن الثروة في عصرنا الحاضر في بعض البلاد المتمدّنة أصبحت تقدّر بالوقت ، وبعض الممالك الأخرى تعتبر الوقت مالاً ومن هنا تظهر لنا حكمة التوقيت في الشريعة الإسلامية .

---

١) النساء ، ٤ : ١٠٣ .
٢) الاسراء ، ١٧ : ٧٨ .

أثر الصلاة في الجسم والنفس :

نجد في أنفسنا شعورًا بالحاجة الشديدة إلى العناية بالجسم وتقويم الأعضاء وتمرينها على الحركة وجعل الجهاز العصبي نشيطًا قويًا سليمًا من الضعف والوَهن عاريًا عن الكسل والكلل ، وهي تربية صعبة يجب أن تساير الحياة وتلازم الإنسان من نشأته إلى مصرعه ، وليست صعوبتها ناشئة عن البحث عن أساليبها وتعيين قواعدها وتحديدها ، خصوصًا بعد ما اكتشفها لنا العلم ، ولكن الصعوبة في طريقة العمل بها والاستمرار عليها ، يمكننا وضع نظام دقيق الصنع محكم الترتيب للتربية الجسمية ولكن تخوننا الأساليب التي نتّبعها في حمل الناس عليها خارج المدارس والرباطات العسكرية . فإذا استطعنا أن نجبرهم على قبوله في تينك البيئتين اللتين نستطيع فيهما التصرف في إرادة الناشئين فكيف نستطيع إقناعهم بالاستمرار على ذلك النظام؟ متى ملكوا حريتهم وتمتّعوا بالنصيب الأوفى الذي لهم من الاستقلال .

لا سبيل إلى ذلك كما أثبتته التجربة وحقّقه الاختبار إلا إذا جعلنا التربية العضوية جزءًا من العبادات الدينية التي يمارسها الإنسان من غير انقطاع كما فعل الإسلام فإنه جعل التربية الجسمية جزءًا من الصلاة ، وهي أحضّ ما يكون العبد من ربّه بحيث أنّ المسلم لا يستطيع أن ينفكّ عنها في أي حالة من الأحوال الاضطرارية ، كالمرض ، والسفر والخوف ونحو ذلك ، بل يجبر على أدائها في كلّ الأحوال .

ولا خفاء أن الصلاة أوّل عبادة شرعها الإسلام ، قبل أن تشرع الزكاة ، ويشرع الصيام والحج ، وطلب منّا أن نأتي بها على الوجه الأكمل فقال : ﴿أَقِيمُوا الصَّلاةَ واتَّقُوهُ﴾[1] والمراد إقامتها على الصورة الكاملة المشروعة المطابقة لإصلاح الجسد والنفس معًا .

---

١) الأنعام ، ٦ : ٧٢.

التربية العضوية :

تأمل في حركات الصلاة التي يمارسها المصلّي ، تراه واقفًا مستقبل القبلة ، حاضر الذهن ، مجتمع الإرادة منتصب القامة ، رافعًا يديه عند تكبرة الإحرام قابضًا أو مرسلاً ، يقرأ آيات من الكتاب ، يركع منحنيًا يسند راحتيه إلى ركبتيه ثم ينتصب ، ويهوى ساجدًا ، يجلس ورجلاه تحت حقويه ، فيسجد مرة أخرى ثم ينهض في لياقة ورشاقة ثم يستأنف الحركات الأولى في الركعة الثانية وهكذا إلى أن يستوفي بقية الركعات والصلوات المتكرّرة في اليوم والليلة بعدد الأوقات الخمس المعينة لأدائها . إذا فكّرت في هذا كلّه وتأمّلت فيه أدركت حقيقة أكمل طريقة للتربية العضوية .

الحكمة في صلاة الجماعة :

من المقرّر المعلوم أنّ قوام حياة الأمم الجمعيات أو الوحدات الاجتماعية ، وما الأمم إلا تلك الوحدات المتكرّرة ، فإذا صغّرتها تكون بيتًا وعائلة وجمعية وإذا كبّرتها على نسب معينة تكون الأمة ، والإنسان عاجز بمفرده ، قويّ بغيره ، وهذا الشعور فطري فيه لا يتوقف على الدرس والتحليل ، فإنه ما مارس قطّ عملاً بمفرده . وتمّ له إذا لم توّازره عليه جهود الآخرين . إذن فهو يدرك بطبيعة الحال احتياجه إلى الاتحاد مع غيره وأن حياته لا تتحقق إلا بتلاشي الشخصية الفردية وفنائها في الذاتية العمومية ، ويعلم بالاختيار أنه لا يستقيم له حال ما لم يكن عضوًا عاملاً ضمن الهيئة الاجتماعية ، وأسمى غاية لهذه العضوية أن يكون غيريًا . لذلك جاءت الشريعة المطهّرة الإسلامية كاملة لهذه الغاية بالتعاليم التي وضعتها لتقوية روح الجماعة وتنظيمها ضمن الوحدات الصغيرة وهي نفس حلقات الارتباط في السلسلة الاجتماعية .

وليست هذه الوحدات غير الجماعات التي تنعقد بها الصلاة ، وهي ثابتة بالسنة العملية والقولية . ونحن إذا دقّقنا فيها النظر نعلم أنها في نظام الديانة

الإسلامية تقوم مقام الاجتماعات المقرّرة للجمعيات في النُظم التمدينية. وقد قسّمها الإسلام إلى ثلاثة أقسام: اجتماعات عادية وعمومية واضطرارية. فالعادية هي التي تنعقد لأداء الصلوات الخمس المكتوبة في اليوم والليلة. والعمومية هي الجمعة والعيدان والاضطرارية هي صلاة الخسوف والكسوف والجنائز والاستسقاء. والغاية منها هي التحام صلاة الأفراد ببعضهم وتأليف كتل دائمة يتقوّى بها صلب الأمة ويجتمع فيها الأفراد، لا لغرض شخصي محدود قد يؤول إلى اختلاف وتفرقة وتختفي دونها المصالح العامّة ولكن لتطهير الجسم وتصفية القلب وإعلاء شأن الروح.

وأيّ مطلب أروع وأسمى من هذا؟ وهو عين ما يحصل في الصلاة حين يؤدّيها على الوجه الأكمل وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى بقوله: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنْ الفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾[1]، وقال ﷺ في حقّ رجل قيل عنه إنه غير حسن السلوك: «اتركوه فإن صلاته ستنهاه» والصلاة التي لا تطهّر النفس عن الغيّ وتنشطها للعمل الأقوم ليست هي الصلاة التي يطالبنا بها الشارع جلّ وعلا.

وليس مجتمع الصلاة كغيره بل من خواصّه أن يجتثّ شرور النفس الناطقة ويملؤها إيمانًا ووقارًا، وشعورًا بجلال الله المعبود. كيف لا؟ والمصلّون يعتقدون أنهم يقفون بين يديه مخلصين له الدين يشكرونه على ما وفّقهم إليه ويحمدونه على ما أولاهم من نعمه. ومن أدناها الاجتماع لله والحبّ في الله ومن ذاق حلاوة الصلاة عرفها ومن لم يذقها جهلها ومن جهل شيئًا عاداه.

---

١) العنكبوت، ٢٩ : ٤٥.

حكمة الإمامة :

هي شكل من أشكال الرئاسة والزعامة الاختيارية التي تتعيّن برضاء المصلحين ، فقد جاء في الحديث الشريف : «أئمتكم شفعاؤكم فاختاروا من يشفع لكم». وهي من أوليات النظم الأسلامية التي جاء بها الإسلام لقلب الأوضاع الجاهلية وايجاد الترتيب ، وبثّ روح القدوة والطاعة والانقياد في النفوس ، فقد كانت الرئاسة في الجاهلية مكفولة بالانتخاب الطبيعي يتولاّها الشيوخ ومن إليهم ، ومن مرشحاتها السنّ أو الوراثة . ومن خصائصها الشجاعة والسخاء في الغالب ، ولكن ليس فيها حق للأكفاء فجاء الإسلام مقوّضًا لهذا البناء غير الصالح ، وأقام مكانه الإمامة ، وجعل لها شروطًا معقولة سهلة ، وهي العلم والحرية ، والعدالة ، والسلامة ، تنبيهًا للناس على أن الرئاسة ليست متاعًا يحاز بالتغلب أو الإرث بل هي حقّ اجتماعي يناله المرء باستحقاقه وأهليّته ، وإذا أدرك الشأن في الرئاسة في أداء شعيرة دينية فلا شكّ أنه يدرك بالأحرى أن تكون جارية على هذا المنوال في الأمور الدنيوية فيقيس عليها كافة الوظائف اللازمة للحكومة .

هذا ما يتعلّق بالنظر في أمر الرئاسة والطاعة والانقياد والحقوق التي تربط الرئيس بالمرؤوس ، أما التربية النظامية فإنها تتجلّى لنا في :

الحكمة في ترتيب الصفوف

إن التربية النظامية في ترتيب الصفوف للصلاة والاقتداء بالإمام في الأقوال والحركات والإنصات له في القراءة الجهرية هو تدريب على التربية الاجتماعية ، وتعويد النفس على متابعة النظام المقرّر للتربيتين المدرسية والعسكرية وما قيل في ذلك يقال في آداب الجلوس .

الحكمة في فرض اللغة العربية في الصلاة :

اللغة حفاظ الأمم ولا تموت أمة لها لغة حية يتكلم بها الناس. ولو دقّقنا السرّ في بقاء الروح العربية منتشرة مشعشعة مع سقوط كيان العرب السياسي وذهاب الدول من أيديهم ودخولهم تحت حكم الأعاجم لألفينا السرّ في ذلك بقاء اللغة العربية. وليس الفضل في بقائها لأحد غير الدين ، فقد اتّفق أئمة الملّة الإسلامية على أن اللحن في القراءة مبطل للصلاة ، لذلك ترى المسلمين قاطبة حريصين على حفظ اللغة عانين في حذق فنونها من نحو وصرف وأحكام القرآن ، حتى يؤدّوا الحروف من مخارجها ويلفظوا الكلم لفظًا صحيحًا ليتمكّنوا بذلك من قراءة كتاب الله.

وليست هذه العناية باللغة خاصة بالمسلمين ، فإننا نرى الأمم العظيمة المعاصرة لنا لا تنفك ساعية في نشر وتعميم لغتها ليس في بلادها فحسب بل في أنحاء العالم كافة فهي من أجل ذلك تشيد المدارس في مختلف الأصقاع وتؤلف البعوث وتحشر العلماء وترصد القناطر المقنطرة من الأموال للتعليم والإنفاق في هذا السبيل وقد تبلغ في ذلك حدّ الإسراف اهتمامًا بنشر لغتها وآدابها ، لعلمها بأن انتشار سيادتها ونفوذها يتوقف على نشر وتعميم لغتها.

أما اللغة العربية فإنها تنتشر كانتشار الإسلام من تلقاء نفسها دون أن تعتمد على مساعدة دولة أو قوّة مادية ولكنها تشيع وتنتشر بسرّ روحاني يفيض به قلب الإسلام. وأثار ذلك اهتمام الدول السائدة لأنها ترى في هذه اللغة العدوّ المناهض لها ، فهي تعمل على وأدها ، وكذلك حرّك غيرة الأمم الإسلامية الشاغلة لنصف الكرة الأرضية ، ليس في الممالك العربية فقط الممتدّة من المحيط الأطلسي إلى الخليج الفارسي ، بل في جاوه ، والهند ، والصين ، والتركستان والداغستان والتتر ، وغيرهم من الأقوام المسلمة في أوروبا بل وفي كل قارة فيها صوت المؤذن يرتفع خمس مرات في اليوم – يحي على الفلاح –

هذا تأثير الصلاة الإسلامية التي تنهى عن الفحشاء والمنكر فإنها لم تحفظ للمسلمين شخصيتهم البارزة بل حفظت لهم لغتهم العربية الكريمة. ولولاها لانمحت بانمحاء دولها في المشرق والمغرب. ألا فليستيقظ المسلمون لأنفسهم وليتّقوا الله في دينهم وفي جامعتهم وليتدبّروا قوله عليه الصلاة والسلام «الصلاة عماد الدين» الحديث وليحذروا إضاعة اللغة فإن إضاعتها تسليم للذات.

التربية النفسية في الصلاة

الهداية

هناك كثير من التكاليف الإلّهية المشروعة لا تظهر حكمتها ببداهة النظر، ولا تنكشف إلا بعد التحليل والتعليل. ومنها الصلاة. وهي كما قلنا مشتملة على الهدايتين هداية الجسم وهداية الروح. أما هداية الجسم من حيث تعليل وظائف الأعضاء وترتيب الحركات فقد تكلّمنا عنها في مبحث التربية العضوية.

وأما هداية الروح فممّا لا خفاء فيه أن للجسم أعضاء كثيرة يشعر بها الإنسان ولا يتبيّنها، وهي من جملة آلات النفس ووسائط العقل وقد خلقها الله للقيام بوظائفها على الوجه الأكمل، وهو ما نسمّيه الهداية، مناطها سوق الناس إلى الخير والسعادة في الدارين.

أما الروح فكناية عن الجوهر المعنوي الكائن في صورة الإنسان، وهو مؤلف من أعضاء كثيرة، ما هو معلوم تدركه بأثره من النفس، ومنه ما هو خفي لم يزل العلم عانيًا باكتشافه لا يمكننا تعليله. كذلك لا يمكننا الاكتفاء بتعليل التكاليف بآثارها البادية في الأعضاء وحركات الجهاز، بل لا بدّ وأن تكون معلومة أيضًا بشيء آخر غير ما يبدو لنا منها الآن كما لم يزل خافيًا علينا.

الحكمة في أداء الصلاة :

أمرنا الله تعالى بالصلاة ، وطلب منّا أن نؤديها على الوجه الأكمل ، المطابق للمصلحتين الظاهرة والباطنة ، قال الله تعالى : ﴿أَقِيمُوا الصَّلاةَ واتَّقُوهُ﴾(١) والتقوى هي من أفعال القلوب ، والمعنى : أقيموا الصّلاة على الصورة المشروعة الكاملة المطابقة للإصلاح الجسدي والنفسي. وقال في معرض التنبيه على أثرها في إصلاح النفس : ﴿يَا أَيُّها الّذينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بالصَّبْرِ وَالصَّلاة﴾(٢) أي انها العون للمؤمن على ما يلاقيه من مشاق الحياة وتكاليفها في سبيل الحق وإقامة الدين وإعلاء شأن المِلّة والمدافعة عن الأوطان ورفع الكلل والوهن عن العزائم ومقارعة كل حادث يلمّ ، ومصيبة تحدث ، وايصاء الله المكلّف بالاستعانة بالصبر والصلاة في كل ما يعرض له ، تنويهًا بمقدار تأثيرها في النفس ، فكأنّه يقول تعالى إن الصابر والمصلّي لا يكون أبدًا ضعيف القلب ، ولا قليل الأناة ، ولا ضائع الثقة ، بل ذلك شأن غير المصلّي ، والمفهوم من هذا أن ليس المراد من الصلاة الإتيان بالحركات والأفعال والأقول فحسب ، بل التوجّه إلى الله تعالى بكلّيّة الجسم والقلب ، واستغراقها في الطاعة ، والامتثال لله عز وجل.

والسرّ في ذلك أن سنن الله تعالى لا تتمّ في هذا الكون ولا ينجح صاحبها إلا بالثبات والاستمرار. وحركة الجوارح في أحدها لا تكفي ما لم تتوازن مع القلب ، فإن من شأن الصلاة تنشيط الجسم والنفس معًا ، وكذلك قلب الطباع السقيمة ، والاستعاضة عنها بالغرائز السليمة والخلال المستقيمة ، وعلامة ذلك تغلّب حبّ الله على المصلّي ، فلا يقدّر ولا يخاف أحدًا سوى الله.

---

١) الأنعام ، ٦ : ٧٢.
٢) البقرة ، ٢ : ١٥٣.

ولا مراء في أن الصلاة خير حصن للنفس تقيها من الآفات والشرور فقد قال جلّ من قائل : ﴿حَافِظُوا عَلَىٰ الصَّلواتِ والصَّلاةِ الوُسْطى﴾[١] ووجه اختيار المحافظة على الحفظ لأن الصيغة تفيد المشاركة بالفعل ، أي الحفظ بين المصلّي والصلاة ، فكأن الله تعالى يقول : احفظوها تحفظكم عن الفحشاء والمنكر ، ومِنَ البلاء والمِحَن ، وهي تنزّه نفوسكم وتقوّي عزائمكم .

لهذا وأمثاله جعلها الشارع مع الزكاة شرطًا لصحّة الإسلام وأخوّة الدين في كلامه عن المشركين فقال : ﴿فَإِنْ تَابُوا وأقامُوا الصَّلاةَ وآتوا الزَّكاةَ فَإِخْوانُكُمْ في الدّينِ﴾[٢] فهي صريحة بأن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة من أقوى الدعائم في الملّة الإسلامية ، فالصلاة لتقوية الجسم والنفس معًا والزكاة لإقامة الدين وكفاية النظام ، وكلاهما ضروريان لتحقيق أمن وسلامة الهيئة الاجتماعية .

الحكمة في التكبير

أما أثر التكبير في الصلاة من حيث إصلاح النفس فظاهر.

فإن تكبيرة الإحرام ، وكذا تكبيرات الانتقال من عمل إلى عمل آخر ، تكسب المصلّي من الخشية والشعور ما لا تكسبه إياه التعاليم الأخرى ، ففي قول المصلّي : الله أكبر... تجريد للقلب من كل عظمة زائلة وكل فخار كاذب ، وتحرير له من كل ربقة ظالمة ، فهو لا يخضع إلى أحد سوى الله تعالى. وإذا أزالت الرهبة وانتفى الخوف حلّت محلها في النفس الحرية والاحترام وهما أسمى غاية للتربية النفسية.

---

١) البقرة ، ٢ : ٢٣٨ .

٢) التوبة ، ٩ : ١١ .

الحكمة في قراءة القرآن في الصلاة

ففي قراءة الفاتحة مثلاً من الثناء على الله ، وتذكّر رحمته ، والاعتراف بربوبيته ، ومعاهدته على أن لا تتخذ معبودًا سواه ما يكفل للنفس الحائرة المضطربة الاستمرار على الهداية ، وتذوّق حلاوة الإيمان.

أما ما يقرأ من الآيات بعد الفاتحة فله من المآثر المحمودة ما يختلف باختلاف مواضعها ، وأغراض القرآن ، وشتّان بين من يقرأ القرآن أو ينصت له ونفسه مجرّدة عن شوائب الدنيا ، متوجّهة إلى الله تعالى ، ومن يقرأ أو يسمع تلاوته وذهنه المرتبك موزّع بين مطالب النفس ومنازع الحياة ، فلا تنفتح له مغالق الفهم عمّا تضمّنته تلك الآيات من الأسرار والهدايات والحكم والعظات ، تسود نفسه الحيرة والشك ، وبَيْن الحيرةِ والشكّ مصارع لقلب الانسان. ومن أجل فوائد القراءة تفهّم معاني القرآن واستحضار آياته.

الحكمة في السجود

السجود معناه الاعتراف الصريح من العبد بأن التقديس والأعظام والإجلال من خواصّ العبادة لله ، وليست أبدًا من شعائر الآداب والتوقير والاحترام الذي يتقدم به الإنسان للإنسان. هذه هي الصلاة الإسلامية المزكّية للنفس.

٢ – الزكاة

قبل الخوض في موضوع المال نلقي نظرة عامّة على آراء علماء العصر الحاضر في الرأسماليّة ومشكلتها ومقارنتها بالنظرية الإسلامية :

ما زال العلماء يعانون حلّ معضلة تحويل رأس المال من الفرد إلى الجماعة ويذهبون في تعليل ذلك إلى أنّ جعل الجماعة تحت الإشراف والمراقبة من قبل السلطة العامة ، أيسر منالاً وأسهل عملاً من محاولة ذلك مع الأفراد. وفي نظرهم أن الحكمة في هذا التحويل هي توزيع المال وفوائده بنسبة لا تتناقص مع مصلحة الأمة ولا يتطرق إليها الاستبداد ، لأن علة العلل – على زعمهم – في وجود الظلم هي انحصار المال بيد الأفراد واحتكارهم له بحيث صار من العسير تحرير البشر من هذه السلطة وجعل حدّ للحكم الكيفي ما لم يتوزّع المال وتصير مصلحة العمل ضمن مصالح المجتمع ، ويكون العامل عاملاً للمصلحة المشتركة لا للفرد.

رأي الاجتماعيين في انحصار المال

ويرى فريق من الاجتماعيين أن في توزيع المال أضمن وسيلة للقضاء على كل سلطة فردية تعوق سير المجتمع عن التقدّم والرقي وإحلال السلطة العمومية محلّها وهي سلطة الأمة طبعًا.

غير أن الواقع أثبت لنا أن البشر كلّما تقدّم خطوة إلى الأمام في الحضارة والتمدّن اتسعت هذه المعضلة أمامه وازدادت تعقّدًا وامتناعًا عن الحلّ ، والسرّ في ذلك تمركز السلطة في أفكار الرأسماليين واستعدادهم لمكافحة الطوارئ ،

وتلافي الأخطار التي تزلزل كيانهم وتهدّد نفوذهم القائم على أثافي السيطرة والاحتكار ، والاستئثار لوضع يدهم على كل الموارد وتمكّنهم من أخضاع الأمة لإرادتهم .

تغلّب المال على الدين

أيّ قوة قهارة وجدت لقمع تغلب المال ومنع ضرره عن المجتمع لم يتقبض عليها أصحاب المال ولم يحوّلوها إلى خدمة منافعهم؟ خذ الدين الإسلامي مثلاً وهو أكبر سلطة وجدت لقمع خطر المال ومنع وطأته ، فإنه لم يكد يظهر وينتشر حتى تقبضوا عليه وجعلوه من جملة الآلات التي يتسلطون بها على المجتمع وذلك باصطناع رجاله وتسخير حملة أحكامه وشرائعه ، وجعلهم منفّذين لمشيئتهم فإنك ترى هؤلاء يسارعون لتأويل الآيات البينات المناقضة لرغائب اجريهم ولا يتحاشون من نسخ التعاليم الإلهية النازلة لتقويض كل سلطة جائرة ، وهم لا يجهلون أنهم يعبثون بالدين الذي اؤتمنوا عليه .

ومن أفدح ما صنعوه في هذا الباب زعمهم أن توزيع الثروة قسمة إلهية يجب قبولها بالرضاء والتسليم وربّمَا خلقوا من هذا التأويل عقيدة أجروها مجرى الإيمان من الدين ، وجعلوها أساسًا للوعظ والتربية والتعليم لصرف عامة الشعب عن التفكير في الحقوق المغتصبة بواسطة السلطة المالية والمطالبة بها وبذلك يصبح الناس مسخّرين لإرادة أفراد قلائل من أصحاب الأموال ومن لفّ لفهم ، وكذلك يصعب على المتشرع المتدين المتفكر في توزيع الثروة بصورة تستدعي نموّ المتجمع ولا يرى الحال الواقعة نتيجة خطإ في النظام الاجتماعي يجب إصلاحه ولا مدخل في ذلك للتقرير الإلهي .

تكوين الثروة في نظر الإسلام

إن تكوين الثروة هو من الأفعال الاختيارية المنوطة بإرادة الإنسان الجزئية المكتسبة. وهي لم تأتِ عفوًا من تلقاء نفسها تجرّ أذيالها ، بل هي نتيجة عمل ، وإلى ذلك أشار ﷺ بقوله «إن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة» وكما قال لأعرابي شكا له الفقر: «هلا احتطبت» بل تتأتى الثروة وتتكون من العمل لا من الحظوظ والمصادفات التي لا أثر لها إلا في تفكير الخياليين. والعامل هو موجد الثروة ومكوّنها ، فهي له دون غيره وإن لم يتمكن من استخلاصها بتمامها لنفسه فينبغي على الأقل أن يكون له منها أوفر قسط.

وقد جعل الثروة تابعة لقاعدة العمل ، يصير المال حقًا مشاعًا غير محتكر لطائفة من المستأثرين.

مضار الإحتكار

لا ريب في أن انحصار المال واحتكاره من أعظم الأسباب في انحطاط المجتمع وانهياره ، كما ثبت ذلك بالاختبار، لأنه يوجد طبقة ممتازة تكتسب باغتصاب الحقوق ، وفساد النظام لا بجهود طبيعية يستوي فيها الضعيف والقوي ، والفقير والغني ، فتجعل تينك المظلمتين عدلاً منظمًا تحتمه على الناس ، وباستمرار زمن يحسبونه نظامًا طبيعيًا مفروضًا من قبل الله ، لكن استعمال قليل من البصيرة والتدبّر يجعل هذا البناء ينهار من نفسه ويجعل الناس يدركون أيضًا أنه لم يشيده إلّا الطغيان الذي لا يتفق مع التعاليم القيّمة التي جاءت بها الأديان.

الحلّ الإسلامي للمعضلة المالية

لم يسنّ الإسلام قواعد عملية لتدبير الثروة ولم يقرّر له نظمًا خاصة وإنما وضع لها أساسًا قيّمًا وهو: اعتبار الثروة الفردية رأسمال اجتماعي وتحويل جزء من فوائدها إلى الرأسمالية العمومية ، وتخصيصها للقيام بالمصالح العامة ودفع الاحتياجات الضرورية وفي ذلك إشعار واضح بأنّ في الثروة حقًّا للمجتمع يجب أن تكون فوائدها شاملة للأفراد والمؤسسات.

الطريقة القديمة في وضع الضرائب

أَلِفَ البشرُ من أقدم الأزمنة تسلّط الأقوياء على الضعفاء تسلّطًا لا تنفذ فيه الرحمة ، فكانوا يضعون الأعباء الثقيلة والتكاليف المرهقة على المستضعفين من محكوميهم ، ويسعون جهده لسلب منتوجاتهم وثمرات أعمالهم فكانوا يستنفذون أكثر ما يحصلون ، ولا يتركون لهم شيئًا يدّخرونه لحين عجزهم ومرضهم ، وتراهم مع ذلك يعملون بلا وناء لإعفاء الأغنياء والوجهاء من كل التكاليف ، بل ربّمَا يؤثرونهم بالعطاء ولا يأخذون منهم شيئًا ، وعلى هذا الأساس شيّد نظام الحكومات السيادية ، أو النظام الاقطاعي في الدول الاستبدادية ، وشرع مبدأ الاستبداد الفردي بأمور الجماعة ، ولما وجدت الشرائع المدنية الأخيرة تطوّر هذا النوع من الحكم وصار نظامًا رأسماليًا وهو من ذاك وإن اختلف شكلاً.

نظرية الإسلام في الضرائب

علمنا من الكلمة التي أسلفناها في حلّ معضلة التكاليف المالية ، أن الإسلام جاء لتقويض البناء المالي القديم من أساسه وتعويضه بنظام تعاوني كافل لإسعاد الحياة البشرية ، وتخفيف الويلات الشاقة عنهم ، فقد فرضت

الأثقال والتكاليف الواجبة للسلطة للقيام بما يلزم لتأمين الدولة على الأموال والمكاسب لا على الأفراد. وأجرت ذلك مجرى الطاعات وجعلتها من أحظى العبادات المالية ، وهي قسيمة العبادات الجسمية ، وأطلقت عليها اسم الزكاة.

الزكاة في اصطلاح الشارع

قال الله تعالى لنبيّه : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وتُزَكّيهِم بِها﴾(١) . أما تعريفها في نظر حكمة التشريع فهي : حقّ اجتماعي مرتّب على الإنتاج. وفي أصل اللغة معناه النموّ ، والتثمير ، والزيادة ، ومن ذلك قيل : زَكا الزَّرْعُ إذا كَثُرَ. وزَكَتْ النَفَقَةُ إذا كَثُرَتْ. ويُقالُ أيضًا : زَكَا الفَردُ إذا صار زوجًا. وترد أيضًا بمعنى التّطهير. والنكتة في أن لفظ الزكاة في لسان الشارع شامل للمعنيين النمو ، والتطهير ، لأنها جالبة كما قيل عنها للأمن ، قاطعة للفساد والظلم ، كافلة لرفاه الأمة وإسعاد العباد.

فرض الزكاة

قال تعالى : ﴿وأَقيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾(٢) . ذكر العلماء أن الزكاة رديفة الصّلاة في اثنين وثلاثين موضعًا من كتاب الله تنبيهًا على أنها قسيمتها في الإصلاح ، فكما أن الصلاة كافلة بتحرير النفس من العبودية والاستخذاء لغير الله ، كذلك الزكاة هي مفتاح الخيرات والبركات والوقاية من الشحّ والأطماع وصيانة الجمهور من الشرور ، فكأن الله تعالى يقول : هاتان فريضتان

---

١) التوبة ، ٩ : ١٠٣.
٢) البقرة ، ٢ : ٤٣.

واجبتان . فأدّوهما إلى الله . وما ذكرناه من أثرها كاف لبيان حكمة مشروعيتها في الإسلام وهي واجبة في مال كل مسلم عاقل عند بعض الأئمة ، وبالغ عند آخرين .

أصناف الزكاة

تجب الزكاة في أصناف وهي : النعم السائمة ، والمستنبتات المقتاتة والنقدان ، والركاز ، وزكاة الفطر وهي كلّ الأتاوات الشرعية التي جعلها الله حقًا عامًا في أموال المسلمين كما قدّمنا .

وهي ليست كل الأبواب التي تنحصر فيهد الواردات العامة بل لها أبواب أخرى أيضًا مثل الجزية ، والخراج . وخمس الفيء ، سنذكرها في مباحث حقوق السيادة الإسلامية على غير المسلمين وحقوق الفتح وغرامة الحرب .

النهي عن إمساك الزكاة

قال تعالى آمرًا بالبذل ناهيًا عن الإمساك : ﴿وأَنْفِقوا في سَبيلِ اللهِ ولا تُلْقُوا بِأَيْدِيَكُمْ إلى التَّهْلِكَةِ﴾[1] وقال حذيفة بن اليماني : معنى التهلكة ترك النفقة في سبيل الله ، وقال ابن عبّاس ، رضي الله عنه : ليست التهلكة أن يقتل الرجل في سبيل الله ، ولكن الإمساك عن النفقة ، وتعطيل الجهاد . ثم فرض جل ثناؤه وعيدًا للمقصّرين في أدائها فقال : ﴿والذينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَها في سَبيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَليمٍ﴾[2] . وقال أبو بكر الصدّيق ، رضي الله عنه ، في حقّها : «والله لو منعوني عقال بعير لقاتلتهم

١) البقرة ، ٢ : ١٩٥ .

٢) التوبة ، ٩ : ٣٤ .

عليه» وقد قاتل الممتنعين من أدائها بعد وفاة الرسول ﷺ وسمّاهم المسلمون: أهل الردّة، مع أنهم لم ينكروا وحدانية الله ولم يتراجعوا إلى عبادة الأوثان بل قالوا: كنا نعطي زكاتنا لمحمّد، ومحمد قد مات، ونحن أحقّ بها وأولى.

حقّ المصالح العمومية في المال عدا الزكاة

ليست الزكاة هي كل الحقّ الشرعي المترتب على المال بل هناك حقوق أخرى حضّ عليها الشارع وندب إليها، لكنه لم يفترضها وإنما تركها لذمم المسلمين يساعدون فيها على حسب شعورهم ومستطاعهم وتقدير الحاجة لها، ويمكن لهم أن ينظموها من تلقاء أنفسهم. فقد قال تعالى: ﴿وجَاهِدُوا بأمْوَالِكُمْ وأَنْفسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ (١) فجعل الجهاد بالمال مقدمًا على الجهاد بالنفس تنويهًا بفضله وأنه أعلى في التضحية من النفس، فقد قال جلّ من قائل: ﴿لَنْ تَنَالو البِرَّ حتّى تُنْفِقُوا مِمّا تُحِبُّونَ﴾ (٢) إشعارًا بأن بلوغ أسمى منازل الفضل التي جماعها البرّ لا يتأتّى بغير إنفاق، وتنبيهًا على أن المال لا يكتسب للادّخار والزينة والتعالي، بل للإخراج والإنفاق في سبيل الله، أي في المصالح التي فيها قوام الدين والملة.

ونحن إذا لفتنا بصرنا إلى العهد الأوّل من تاريخ الملّة الإسلامية نجد ديننا الحنيف لم يقم ولم يشيّد إلّا على الكرم والإنفاق، فقد ثبت من طرق صحيحة «أن أبا بكر الصديق تصدّق بجميع ماله في سبيل تقوية الملّة، ولمّا سأله النبيّ ﷺ ما أبقيت لأهلك؟ قال: «الله ورسوله». وورد أيضًا أن عمر بن الخطاب أعطى نصف ماله، وأن عثمان جعل ماله وقفًا في سبيل الله،

---

١) التوبة، ٩ : ٤١.
٢) آل عمران، ٣ : ٩٢.

وعن عروة بن الزبير أن عائشة أمّ المؤمنين تصدّقت بخمسين ألف وأن درعها لمرقع. وأفضل أنواع الصدقة بعد الزكاة صرف المال في وجوه البرّ، مهما ظهرت. وقد ذهب جماعة من التابعين إلى أن في المال حقوقًا سوى الزكاة، من هؤلاء: النخعي، والشعبي، وعطّاء ومجاهد، وقد سئل الشعبي: هل في المال حق سوى الزكاة؟ قال نعم، أما سمعت قوله عز وجل: ﴿وآتَى المالَ على حُبِّهِ ذَوِي القُرْبى﴾[1] الآية، واستدلّوا أيضًا بقوله تعالى: ﴿ومِمّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ﴾[2] وقالوا: إن هذه الآيات غير منسوخة بآية الزكاة، بل هي واردة في إثبات حق المسلم على المسلم، وقالوا: يجب على الموسر مهمَا وجد حاجة تستلزم الإنفاق زائدة عن الزكاة لزمته. وقال فقهاء الملّة الإسلامية: إنّ حاجات الأمة هي فروض كفائية تجب في مال الموسرين ولو قرضًا، والاقتراض نزول إلى الدرجة الأخيرة، درجة الذين يقتصرون على الواجب، فلا يزيدون عليه ولا ينقصون عنه، وهو ما فسّروه بالشحّ المطاع من قوله ﷺ: «ثلاثةٌ مُهلِكاتٌ: شُحٌّ مُطاعٌ، وهوًى مُتَّبَعٌ، وإعجابُ المَرْءِ بِنَفْسِهِ» وقال تعالى ﴿ومَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾[3] وتزول صفة الشحّ والبخل بحمل النفس على البذل والتعوّد بإخراج المال، لأن حب الشيء لا ينقطع إلا بقهر النفس على مفارقته حتى يصير ذلك اعتيادًا، والصدقة بهذا المعنى تطهر من خبث البخل واللؤم. فقال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِها﴾[4] والطهارة تكون بقدر البذل، والفرح بإخراج المال وإنفاقه بمصالح الأمة.

---

١) البقرة، ٢ : ١٧٢.
٢) البقرة، ٢ : ٣.
٣) الحشر، ٥٩ : ٩.
٤) التوبة، ٩ : ١٠٣.

الأوقاف مشروع تعاوني لمصلحة الدولة

لا مراء ولا جدال في أن الأوقاف العامة التي أرصدها المسلمون في عصور مختلفة على مشاريع البرّ هي التي كفلت للمسلمين اليوم بقاء معاهدهم الدينية وتقاليدهم ، ولولاها لما بقي مشهد من مشاهد الدين ولا أقيمت شعائره الكريمة .

أيّ سبيل لم يقف عليه المسلمون ، وأي مصلحة عامة تغافلوا عنها ولم يحتاطوا لها ؟ فقد قاموا بتشييد العظائم للمحافظة على الشعائر الإسلامية دون أن يخلوا بمَا عليهم من حقوق الزكاة ، فمِنْ بانٍ للمساجد ، ومشيد للمدارس ، ومقيم للمستشفيات ، ومحدث دورًا للعجزة ، ومنشط للعلم ، وكافل لأرزاق العلماء والمتعلمين ، ومقيم دورًا للكتب ... إلى غير ذلك من المآثر الخالدة التي يضيق عنها الحصر. بحيث لو تتبّعنا أعمال الواقفين في كل بلد إسلامي وفحصنا وجوه الخير التي وقفوا عليها لما وجدنا مصلحة ممّا نسمّيه مصالح عمومية أهملوها .

فقد وقفوا على ترميم الطرقات ، وبناء القناطر ، وعقد الجسور ، وجلب المياه وإماطة الأذى ، وسدّ الثغور ، وبناء المعاهد ، وتشييد الحصون وإطعام المقاتلة ... إلى غير ذلك ممّا يدخل في وظيفة الدولة .

وهم الذين بنوا المساجد ووقفوا الأموال الطائلة على إعمارها وإصلاحها وفرشها وإسراجها وخدمتها ، كما وقفوا على الإمامة والتدريس ، ومنهم من وقف على سقاية المصلّين وإطعام الطير الذي يأوي إلى المساجد . وهناك أوقاف جعلت لختان الأطفال وتزويج الأبكار ودفن الأموات ، إلى غير ذلك من وجوه البرّ الداخلة في المنافع العمومية .

هذه أوربّا سلوها عن أي عمل من أعمال الإسعاف والبرّ لم يشترك فيه الناس بسخاء وهل يوجد فيها فرد لا ينفق من فضل ماله بمحض اختياره في المنافع العمومية ؟ سلوهم لمن يعود الفضل في تشييد هيكل المدنية الحديثة ؟ فسيقولون لكم : أسخياؤنا .

٣- الصيام

شرع الصيام في الديانة الإسلامية بقوله تعالى : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِيامُ كما كُتِبَ عَلىٰ الذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾[١] وهو في اللغة مطلق الإمساك ، وفي اصطلاح الشريعة الإمساك عن شهوتي البطن والفرج من طلوع الفجر إلى غروب الشمس شهرًا كاملاً من كل سنة احتسابًا لله تعالى ، وتهذيبًا للنفس من أسر العادة وقهر الطبيعة ، ولتقوية الإرادة وتمرينها على العمل والمجاهدة ، ولا أشدّ في تربية النفس من حملها على الجوع مع اليسر وقمعها عن الشهوة مع التمكّن .

مشروعية الصيام في الأديان القديمة

كتب الله هذه الفريضة على المسلمين كما كتبها على الذين من قبلهم إشعارًا بوحدة الدين في أصوله ومقاصده . كان الصيام مشروعًا في أقدم العصور ومعدودًا من أفضل العبادات في الديانات القديمة وحتى الوثنية منها ، فقد كان الكهنة يتقرّبون به إلى الآلهة تسكينًا لغضبها ودفعًا لشرّها ، وقد كان البعض منهم مثل البراهمة يصوم تعذيبًا للنفس وقتلاً لحظوظ الجسم ، ويستمرّ الصوم عندهم أيامًا وليالي لا يتبلغ فيها الصائم إلّا المقدار الذي يسد الرمق ، لأن الغاية من الصوم عندهم تعذيب الجسم والفناء بالطاعة ، وهذا كما لا يخفى ليس من الحكمة في شيء ؛ لأن الحكمة تقتضي الجمع بين منازع الروح وبين حياة الجسد .

---

١) البقرة ، ٢ : ١٨٣ .

مشروعية الصوم في الأديان الإلهية السالفة

شرع الصوم في الأديان الإلهية التي اتصلت أسانيدها على أشكال وضروب مختلفة ، رغم ما حصل فيها من الاختلاف في تعيين الكمية وتحديد الكيفية ، فقد ورد في الكتب المقدّسة أن موسى صام أربعين يومًا ويصوم اليهود ليومنا هذا يومًا وليلة كامِلَيْن من طلوع النجم إلى طلوع النجم وهو المعروف عندهم «كبور» أي اليوم الأكبر. ويصوم البعض أسبوعًا كاملاً تذكارًا لخراب أورشليم على يد «نابوخت نصّر» . وورد أيضًا في كتب العهد الجديد أن عيسى صام أربعين يومًا التي صامها موسى ، وكذلك الحواريون وهي الأيام المعروفة بالصوم الكبير التي تكون قبل عيد الفصح ، وقد مدحت الأناجيل الصوم ، ولكن لا على التعيين ، وأمرت الصائم بدهن الرأس وغسل الوجه لئلا يكون مرائيًا بظهور أمارات الصوم.

ونجد للمذاهب المسيحية اليوم ضروبًا متعددة من الصيام تختلف عن بعضها اختلافًا ظاهرًا ، منها الصوم عن اللحم يومًا واحدًا من كل أسبوع ، وفي أيام معلومة الصوم عن السمك واللحم واللبن والجبن والبيض والأدهان وكل ما يخرج من الحيوان ، وبعضهم يصوم من نصف الليل إلى نصف النهار. ويصوم الصابئة الموحّدون ثلاثين يومًا وان نقص الشهر الهلالي صاموا تسعًا وعشرين يومًا وكانوا يراعون في صومهم الفطر والهلال بحيث يكون الفطر وقت دخول الشمس في الحمل ويصومون من ربع الليل الأخير إلى غروب قرص الشمس.

حكمة الصيام في الإسلام

أما الإسلام فقد قطع الشكّ في هذه العبادة باليقين وقرّر الصيام شهرًا كاملاً كما قدّمنا ﴿شَهْرُ رَمَضانَ الّذي أُنْزِلَ فيهِ القُرآنُ هُدًى لِلنّاسِ وَبَيِّناتٍ

مِنَ الهُدَى والفُرْقانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾[١] أما حكمته الصريحة فهي ظاهرة في قوله تعالى : ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٢] والتقوى هي من أعمال القلوب لا الأجسام وإعداد نفوس الصائمين لتقوى الله يظهر من وجوه كثيرة أعظمها الطاعة لله وعدم إيجاب شيء على النفس لم يأمر به الله ، وذلك قطع لأمشاج الشرك ، وإذا اجتنب الصائم لذّاته وشهواته عامّة أيام الصوم امتثالاً لربّه ، فإنه يحصل له من تكرار هذه العزيمة المصاحبة للعمل اعتياده مراقبة الله تعالى والحياء منه ، وفي ذلك من صحّة الاعتقاد بالله والإيمان به ، والاستغراق في تقديسه وتعظيمه ما يؤهّل الروح ويعدّها للسعادة الكاملة في الدارين . وأقلّ ما يشعر به الصائم أنه مالك لإرادته مهيمن على العادات ليست هي التي تهيمن عليه ، يتصرف في جسمه ومواهبه حسب الشرع والحكمة لا بحسب الشهوة والشهرة .

تأثير الصوم في الأخلاق

فرض الصيام على المسلمين في السنة الثانية من الهجرة وهو أجلّ العبادات الخفيّة التي ليس فيها عمل مشاهد يحبط بالرياء كما هو الحال في جميع العبادات الأخرى فإنها لا تعمل إلّا بمشهد من الخلق ومرأى ، والصوم لا يراه إلا الله عز وجل .

وهو عبادة مكمّلة للنفس مطهّرة للأخلاق مقتضية للجهد مستحقّة للمكافأة ، قال تعالى : ﴿وَالذينَ جاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[٣] ولما كان الصوم من أكمل وجوه الإصلاح ، استحقّ التخصيص بالنسبة إلى الباري تعالى فقد جاء في الحديث القدسي الذي أخرجه أبو نعيم الأصبهاني في «الحلية»

---

١) البقرة ، ٢ : ١٨٥ .
٢) البقرة ، ٢ : ١٨٣ .
٣) العنكبوت ، ٢٩ : ٦٩ .

والخطيب في «التاريخ» من رواية أبي هريرة ، رضي الله عنه : «كل حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلّا الصّوم فإنه لي وأنا أجزي به» . وفي حديث آخر لأبي هريرة أيضًا : «إن الصوم جُنَّةٌ فإذا كان أحدكم صائمًا فلا يرفث ولا يَجْهَل وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إني صائم ثلاث مرات» هذا هو حال الصائم على أكمل الوجوه في نظر الدين . ومن هنا نعلم علاقة الصوم بمكارم الأخلاق . ومعلوم أنّ من أسمى المطالب الباعثة على تقوية الروح ، وتوفير حظوظ القلب ، هو عصمة الإنسان ممّا قد يلتصق بنفسه من الغشّ والخداع والرياء والظلم والفساد . وعلامة ذلك تظهر في حفظ اللسان عن الكذب والهذيان والفحش والجفاء والخصومة والمراء وإمساك الجوارح عن إتيان الآثام والمعاصي ووقاية البطن من تناول المحرّمات . ومن يفعل ذلك يكن مسلمًا حقًا مستحقًّا لتبوّأ مراتب الفضائل والكمالات عند الله .

ليس الصوم كما يتصوّره العامة من الناس مجرّد الإمساك عن الطعام الحلال وترك النفس الجامحة مطلقة العنان ، تركض في ميادين الشهوات ومفاسد الأخلاق ، بل هو كفّ عن كافة المفاسد والأوزار ما ظهر منها وما بطن . فقد روى أحمد والبخاري مرفوعًا «من لم يدع قول الزور فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه» وفي رواية ثانية من تخريج النسائي وابن ماجه : «كم من صائمٍ ليس له من صومه إلا الجوع والعطش» أو كما قال .

فوائد الجوع والحمية

أطبق الباحثون في الأمزجة أن الصائم عندما يجوع ، يتذكّر وقلبه مطمئن بالإيمان حالة من لا يجد قوتًا فيحمله التذكّر على الرأفة والرحمة الداعيين إلى الإيثار ، فتقوى الصلات بين الناس ، ويعمّ التحابب وينقطع الشرّ ، ويبطل الفساد ، ولما كان الجوع الإنفرادي غير كافل لتعميم هذا

الشعور الشريف جعل الله الصيام فرضًا عينيًا على كل فرد ، حتى يكون الشعور عامًّا واحدًا في كلّ مكان وكل زمان.

ومن فوائده تعويد الصائمين على الاقتصاد وعدم الإسراف فإنه يوفّر لهم عدّة أكلات يقتصدون أثمانها ، ويمرّنهم على العمل بالقاعدة الحكيمة القائلة : الإنسان يأكل ليعيش ، لا يعيش ليأكل ، ومنها أيضًا التعوّد على ترك الشره والنهم ومعالجة النفس بالحمية الاختيارية في حال الصحّة لصيانة الجسم من كلّ مرض ، فقد جاء في الحديث الشريف : «إن المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء وأصل كل داء البردة» ولا أجلّ ولا أفيد من حمية الصوم ، والظاهر من هذا أن كل صيام خالف الأحكام والتعاليم الإلهية ولم يفد هذه النتائج فهو صيام مدخول ليس لصاحبه غير ما يصيبه من الهوس وآلام الجوع بسبب تغيّر مواقيت الطعام.

بدع الصيام

من الموجبات البوائح أن يتحوّل الصوم وهو أصل من أصول التربية الإلهية القيّمة إلى فتنة دهماء تصيب المسلمين في كلّ سنة في عقولهم ودينهم وأموالهم وأبدانهم بسبب ما يلابسه من البدع الضارّة وقد أساؤوا إلى الحكمة بجعلهم الصيام سببًا للإسراف والتبذير والإكثار من شهوات البطون. ولو أحصينا ما ينفقه كل مسلم في هذا الشهر لألفيناه ينفق فيه ما يعادل نفقة سنة كاملة مع اليسار. وفوق ذلك ما يعتريهم من سوء الخلق وفساد الطباع.

فالواجب على القائمين بشؤون هذه الأمّة وعلى هداة الدين أن يثوبوا بالمسلمين إلى حكمة الصيام ويمنعوا بطونهم أن تكون مقابر للحيوانات ومزابل للنباتات ونفسوهم أن تكون مصارع للشهوات ومدافن للرحمة تنتهي عندهما الحياة لا حياة الفرد فحسب ولكن حياة الأمة الإسلامية بأسرها.

٤ - الحجّ

كان الحجّ إلى مكّة معروفًا من القديم متّبعًا من العهد الجاهلي الأوّل إلى أن اتّصل بالإسلام ، فأقرّه بعد أن أزال منه المنكرات التي لا تتفق مع قدسيته وتعاليمه. وزاد فيه من المناسك والعبادات ما زاد.

وقد شرع الحجّ في المدينة المنوّرة ، في السنة التاسعة من الهجرة. وحجّ النبيّ في السنة العاشرة ، ونسمّي حجّته «بحجّة الوداع» لأنه ودّع فيها الناس وقال لهم : «لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا» ، وأوصاهم فيها بكثير من الوصايا الجليلة ، وبيّن لهم فيها تفاصيل الحجّ العملية.

أما الآيات المتعلقة بأحكام الحج فكلها مدنية ، نزلت في سورة البقرة ، وآل عمران ، والحجّ.

فرض الحجّ

فرض الحجّ ثابت بالآية الشريفة (٩٧) من آل عمران : ﴿ولله على النّاس حِجُّ البَيْتِ مَنْ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ وذهب الشافعية إلى أن الآية الموجبة لفريضة الحجّ هي النازلة قبلها في السنة السابعة من الهجرة وهي قوله تعالى : ﴿وَأَتِمُّوا الحَجَّ والعُمْرَةَ لله﴾ آية (١٩٦) من البقرة خلافًا لمالك ، وأبي حنيفة فإنهما لا يريان حملها على الإيجاب ، بل على الإتمام. وإن كان بعض المالكية والحنفية يذهبون مذهب الشافعي في أن الآية الموجبة هي الآية الثانية : ﴿ولله علىٰ النّاس حِجُّ البَيْتِ مَنْ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبيلاً﴾. لكنّهم يولون في الآية الأولى مؤكدة للثانية ويقولون : إن قوله : ﴿عَلَى النّاسِ﴾ ، من أوكد

ألفاظ الوجوب عند العرب. فإذا قال العربي عليّ كذا وكذا فقد أوكده وأوجبه. وذكر الله الحجّ بأغلب ألفاظ الوجوب تأكيدًا لحقّه وتعظيمًا لحرمته وتقوية لفضله.

ولا يخفى أن الحجّ من التكاليف الإجتماعية. وقد كان علينا أن نذكره ضمن هذا القسم من أبحاث حكمة التشريع، ولكن فقهاؤنا عدّوه في قسم العبادات، لذلك لم نستجز مخالفتهم في هذا الوضع. وإلّا فواضح أنه من الشرائع الاجتماعية.

الحكمة في الحجّ

الحكمة في الحجّ بيّنة. القصد منه جمع المسلمين في مشهد عام ﴿لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ ويَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ﴾ آية (٢٨) الحجّ.

أما الحجّ لغة فهو القصد، وكانت العرب في الجاهلية على مذهبين فيه: أهل الدين، وغير أهل الدين، فأهل الدين وهم الحنفاء ومن إليهم من الذين يعتقدون بالروحيات هم الذين يحجّون ويعتمرون ويقومون بالمناسك التي منها: الطواف بالبيت أسبوعًا كاملاً، والتمسّح بالحجر الأسود وتقبيله، وكذلك يلبّون ويحرمون ويرمون الجمار ويهدون الهدايا، ويحترمون الأشهر الحرم وهم الحمس وأحلافهم.

أما أهل المذهب الثاني: وهم الذين لا يدينون ومنهم خثعم وبعض بني الحارث بني كعب ومن لفّ لفّهم فإنهم كانوا يشهدون الحجّ لا لتأدية الحجّ ولكن ليشهدوا منافعهم. لأن مكّة أيام الحجّ تصير أكبر سوق يجتمع فيه العرب. ومن أهمّ أغراض هذا الاجتماع الذي يشترك فيه العرب: التجارة والتآزر والتناصر وقضاء الحوائج وكانت كل مشاكلهم وخلافاتهم تعرض هناك ويفصل فيها. ومنها يظهر أن الحجّ كان مشروعًا عند العرب لغايتين ساميتين

الأولى دينية والثانية دنيويّة فخوطبوا بمَا علموا وألزموا بمَا عرفوا تحقيقًا وتثبيتًا لتينك المصلحتين.

وقد ثبت أن النبي ﷺ حجّ قبل الفريضة فوقف بعرفة ولم يغيّر شيئًا من المناسك ولا التقاليد التي كان يفعلها العرب.

أيّام الحجّ

قال تعالى: ﴿الحجُّ أَشْهُرٌ مَعْلوماتٌ﴾[1] وهي: شوال، وذي القعدة، وذي الحجّة.

واختلف مالك وقتادة وطاووس في شهر ذي الحجة. فنهم من قال عشرة أيام، ومنهم من قال عشر ليال ومنهم من قال أيام التشريق. فمن قال ذي الحجة كلّه فقد أخذ بظاهر الآية والتحديد للثلاثة، ومن قال نهاية عشرة أيام ذي الحجّة استند إلى أن الطواف والرمي ركنان في الفقه يفعلان في اليوم العاشر وهو مذهب أبي حنيفة. وبه قال مالك أيضًا.

ومن قال عشر ليال. قال: إن الحجّ يكمل بطلوع الفجر يوم النحر لصحّة الوقوف. وهو الحجّ كله قال به: ابن عبّاس، والشافعي وبه قال مالك أيضًا.

ومن قال آخر أيام التشريق رأى أنّ الرمي من أفعال الحجّ وشعائره «وبعض الشهر يسمّى شهرًا لغة» ولا خلاف في أن أشهر الحجّ هي المتقدمة، والروايات متضافرة على أن الله وضعها كذلك واستمرّت إلى أيام الجاهلية فبقيت كذلك تغيّرها العرب: تمسكها تارة وتقدمها أُخرى حتى عادت إلى حدّها في حجة الوداع؛ في السنة العاشرة من الهجرة. فقد ثبت أن النبي ﷺ خطب في ذلك اليوم فقال: «إن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض».

---

١) البقرة، ٢: ١٩٧.

الحجّ فرض مرة في العمر

ثبت في الأحاديث الصحيحة أن الحجّ فرض مرة في العمر بقوله ﷺ لِمَن سألهُ يا رسول الله أحجّنا لعامنا هذا أم للأبد؟ فقال : لا . بل لأبد الأبد. وروى الإمام عليّ بن أبي طالب ، كرّم الله وجهه ، لما نزلت آية ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ﴾[٢] قالوا يا رسول الله : أفي كل عام؟ قال : لا . ولو قلت نعم لوجبت . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : «خاطبنا رسول الله ﷺ فقال : إن الله تعالى كتب عليكم الحج . فقال : محصن الأسدي : أفي كل عام يا رسول الله؟ فقال : أما لو قلت نعم لوجبت ، ثم لو تركتم لضللتم ، اسكتوا عنّي ما سكتّ عنكم».

أركان وشروط وسنن الحجّ

تشتمل فريضة الحجّ على أركان ، وشروط ، وسنن مثل غيرها من بقية الفرائض. أما الأركان الخاصّة منها المتّفق عليها بين جميع الطوائف والفرق الإسلامية . فهي : الطواف بالبيت ، والوقوف بعرفة . أما الإحرام المتّفق عليه فهو «ركن» عند أبي حنيفة و«شرط» عند مالك . وأما «النية» فهي لازمة أو متعينة في كل «طاعة» و«كل عمل» . لقوله عليه الصلاة والسلام : «إنّمَا الأعمال بالنيّات» .

الحقوق الوطنية في الإسلام

ويؤخذ من إيجاب العمل بالركنين الأوليين من فريضة الحجّ جعل مكة وطنًا عامًّا للمسلمين كافة فكما توحّدت عقائدهم في الله كذلك يجب أن يكون

---

٢) آل عمران ، ٣ : ٩٧.

لهم وطن عامّ يتخذونه عصامًا لهم تتجه إليه رغائبهم ، فمكّة ليست وطنًا فقط للمسلمين بل هي أم أوطانهم جميعًا ، فمنها مصدرهم وإليها موردهم جميعًا. لذلك جعل الله حقوقهم فيها على السواء لا فرق بين جال ومقيم. فقد قال تعالى في سورة الحجّ مشرّعًا لهذا الحقّ العام ﴿سَوَاءٌ العاكِفُ فيهِ وَالبَادِ﴾(١) ولتحقيق الأمن والحرية للمقيمين فيه منهم ، أردف ذلك بقوله : ﴿ومَنْ يُرِدْ فيهِ بإلحادٍ﴾(٢) أي بظلم ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَليمٍ﴾. قال مجاهد «العاكف فيه» من أهله «والباد» الذين يأتون من غير أهله هما في حرمته سواء. وقال غيره : ليس أحد أحقّ بالمنزل فيه من الآخر ، فإن عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، أمر في أيام خلافته برفع الأبواب عن البيوت حتى ينزلها الحجّاج. لأن حقّ الإقامة فيها مخوّل للجميع على السواء. فلا يستأثر أحد دون الآخر بذلك. ويستفاد من تشريع هذا الحقّ اتّخاذ مكة وطنًا عامًا للمسلمين وجعلهم أمّة واحدة وإزالة ما بينهم من فوارق واختلافات وأقام مقامها عناصر المحبّة والارتباط. ولتحقيق هذه الغاية الشريفة شرع الإحرام في الحجّ ليكون الناس في سوية واحدة في كل مظهر من مظاهر الحياة في العقائد وفي الحقوق والأزياء والتقاليد. فلا يبدو هناك أثر للتناكر الذي ينبعث في النفوس من اختلاف الأزياء والتقاليد باختلاف أحوال الأقطار.

ولم تقتصر الشريعة في تربية الروح القومية في المسلمين في الحجّ على تحريم الزراية والتنابز بل حرمت عليهم كل الخبائث المفضية إلى التشاكس والاختلاف فقد قال تعالى : ﴿فلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الحَجِّ﴾(٣) والرفث كلّ قول يتعلق بذكر النساء ، وقد يطلق على الفعل من الاستمتاع والمباشرة. والمراد بالفسوق جميع المعاصي. وورد في الأحاديث الصحيحة قوله

---

١) و ٢) الحج ، ٢٢ : ٢٥.
٣) البقرة ، ٢ : ١٩٧.

صلوات الله وسلامه عليه «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر» ، ويدخل في ذلك منع جميع المخالفات المفضية إلى الإخلال بتربية الأمم.

الحكمة في رمي الجمار

اختلف الباحثون في مناسك الحجّ في تعيين الأشخاص التاريخيين الذين يرجمهم الحجّاج صبيحة ليلة الوقوف بعرفة فعامّتهم يقولون : إن تلك النصب المقامة في منى إنما هي رموز للشياطين يرجمهم الناس اتّقاء وساوسهم وتخلّصًا منها والمحقّقون منهم يذهبون إلى غير ذلك. فالبعض منهم يقول : إن الرجم شرع لمقت الخيانة وتحقيرها. فإن القبر الأوّل الذي يرجمونه هو قبر أبي رغال ويقولون عنه إنه من قوم ثمود. وكان في الطائف لما قدم جيش الحبشة فاتّخذوه جاسوسًا لهم يدلّهم على عورات قومه فأهلكه الله في جملة من أهلكهم من الخائنين ، ومن ذلك العهد أخذ العرب يحصبونه ويرجمونه استفظاعًا للخيانة ، وأيّ خيانة أعظم من إرشاد العدوّ إلى مكامن الضعف والوهن في القوم يتسلّط منها عليهم ، وهذا من أفظع المناكر التي يجترحها الإنسان. أما أهل السير فيعلّلون رمي قبر أبي رغال بتعليل آخر فيقولون : إنه كان عبدًا لشعيب. وكان عنيدًا جبّارًا سفّاحًا مبيرًا ولما هلك جعل الناس يرجمونه لمقت الظلم والتنفير منه.

وعلى كلّ حال فإن اقتران الرجم بالعبادة وجعله من مناسك الحجّ لمقصد استفظاع الأفعال الرديئة والمناكر المستفظعة سواء كانت خيانة أو ظلمًا فهي من أسمى المبادئ الفاضلة في تربية الإسلام الاجتماعية.

الفصل الرابع

المعاملات

العقود والالتزامات

يراد من المعاملات جميع العقود والالتزامات التي يتبادل بها الناس منافعهم ، وقد تعرض لها القرآن بصورة مجملة ووضع لها قواعد أصولية تاركًا تفاصيل ذلك لحاجة الأمة وأعمال المجتهدين. منها :

الوفاء بالعقود :

قد أمر الله أمرًا عامًّا في كتابه المجيد بالوفاء بالعقود فقال في سورة المائدة ﴿يا أيُّها الّذينَ آمَنوا أَوْفُوا بِالعُقُودِ﴾[1] وهي كلمة عامة شاملة لجميع الالتزامات التي يلتزمها الإنسان.

---

1) المائدة ، ٥ : ١.

وضع الوثائق :

وأمر بوضع وثائق للمعاملات فقال في سورة البقرة : ﴿يا أيُّها الّذينَ آمَنُوا إذَا تدايَنْتُمْ بِدَيْنٍ فَاكْتُبُوهُ﴾(١) .

نظام الكتابة

ووضع نظامًا عامًا وأحكامًا أصولية للكتابة فقال : ﴿وليكْتُبْ بينكُمْ كاتِبٌ بالعَدْلِ ولا يأبَ كاتِبٌ أنْ يَكْتُبَ كَما عَلَّمَهُ اللهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلْ الذي عليهِ الحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ ولا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فإنْ كانَ الذي عَلَيْهِ الحقُّ سَفيهًا أوْ ضَعيفًا أوْ لا يَسْتَطِيعَ أنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بالعَدْلِ واسْتَشْهِدُوا شَهيدَيْنِ مِنْ رِجالِكُمْ فَإنْ لَمْ يَكونُوا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأتانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إحْداهُما فتُذَكِّرَ إحْداهُمَا الأُخْرى ولا يأْبَ الشُّهَداءُ إذا ما دُعُوا ولا تَسأَمُوا أنْ تكْتُبُوهُ صَغيرًا أوْ كَبيرًا إلىٰ أجَلِهِ ذلكَ أقْسَطُ عِنْدَ اللهِ وأَقْوَمْ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إلّا أنْ تَكُونَ تِجارَةً حاضِرَةً تُديرُونَها بَيْنَكُم فَلَيْسَ عَلَيْكُم جُناحٌ أنْ لا تكْتُبُوهَا وأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلا يُضَارَّ كاتِبٌ وَلا شَهيدٌ وإنْ تَفْعَلُوا فَإنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ واتَّقُوا اللهَ ويُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَليمٌ﴾(٢) .

لفتت هذه الآية الكريمة أنظار المسلمين نحو هذا النظام الحكيم للسير عليه ولحفظ أموال الناس بالحقّ حسبمَا يتطلّبه العدل الإلهي ، وهذا النظام يوجب على الدائنين أن يكتبوا الديْن وذلك للتوثيق وعدم النسيان وإبعادًا للجحود عند كاتب يكتب فيمَا بينهم بالعدل أي لا يزيد على ما يجب أن يكتب ولا ينقص وشرائطه معلومة من لزوم أن يكون عالمًا بالشروط حتى

---

١) و٢) البقرة ، ٢ : ٢٨٢ .

يجيء مطابقًا لنظر الشريعة الإسلامية . وإن التشكيلات الحقوقية الحاضرة كلها مبتنية على هذه القاعدة الأساسية وقد أصبح كاتب العدل من أجزاء الهيئة الحكمية في الحكومات وأصبح تصديقه لسندات الديون حجّة من حجج الإثبات سواء كانت السندات منظمة تنظيمًا داخليًا أو خارجيًا .

نظام الشهادات

وأما نظام الشهادات في الإسلام فيوجب أن يكون الدين في السند مشهودًا عليه من قبل رجلين أو رجل وامرأتين وذلك لزيادة التوثيق والتأكيد ، ويجب أن يكون هؤلاء الشهود حائزين لشرائط الشهادة التي تخوّلهم ذلك كما هو مصرّح في القوانين الحقوقية ، وقد بيّن الباري تعالى سبب جعل الامرأتين مقام الرجل الواحد في الشهادة وذلك بقوله : ﴿إن تضلّ إحداهُمَا فتذكِّرَ إحْداهُمَا الأُخْرَى﴾[1] وذلك بأن لا تهتدي إحداهما للشهادة الحقّة ، إما لنسيانها إيّاها وإما لتغلّب عواطفها على شعورها وعقلها .

الكفالة المالية

قال تعالى : ﴿وإنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ ولَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ﴾[2] .

قلنا فيمَا سبق أن الشريعة الإسلامية أوجبت كتابة الديون وضبطها للتأكيد والتوثيق ، غير أنه قد تحدث في بعض الأحيان موانع تضطر المتداينين إلى عدم ضبطها في الكتابة ومن هذه الموانع ما إذا كانوا في سفر ولم يجدوا كاتبًا

---

١) البقرة ، ٢ : ٢٨٢ .
٢) البقرة ، ٢ : ٢٨٣ .

فيتحتّم عليهم إذ ذاك تلافيًا لهذا الأمر وضع كفالة مالية تقوم مقام الكتابة في التأكيد والتوثيق . أما تفاصيل هذه الأحكام وما يتعلّق بها من الجزئيات فوكول إلى الكتب الحقوقية وإلى أنظار المجتهدين لإجراء ذلك حسبمَا تقتضيه المصلحة والزمان والحالة .

الحكمة في النهي عن أكل أموال الناس بالباطل

قال تعالى : ﴿وَلا تأْكُلُوا أمْوالَ النّاسِ بالباطِلِ وتُدْلُوا بِها إلىٰ الحُكَّامِ لِتأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النّاسِ بِالبَاطِلِ وأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1] .

الحكمة في ذلك هي صيانة الحقوق العامة المتوقف عليها سير النظام الاجتماعي إذ لو أبيح أكل أموال الناس بالباطل ، وغصب حقوقهم بعضهم مع البعض لاضطرب المجتمع واختلّ النظام . ويستفاد من النهي في الآية شدّة منع اغتصاب الحقوق . ولو نظرنا نحو الأنظمة لرأينا جميعها مبنية على هذه القاعدة السديدة ، كذلك كانت الأديان في العصور القديمة سمَاوية كانت أو وضعية تنهي الناس أشد النهي عن الاجتراء في الاغتصابات المالية ، ولم تتكوّن المدنيَّات في عصور التاريخ ولم يقم أساس المجتمع إلّا على أساس هذه القاعدة الحكيمة . وقد أثبتت النظريات الاقتصادية مصداق ذلك .

وقد ذكرت الفقرة الثانية من الآية الكريمة النهي عن الإدلاء بأموال الناس إلى الحكام باطلاً ، وعدّت ذلك من الجرائم الواجب العقاب عليها ، كما هو مفاد النهي . والحالة التي جرت عليها الأنظمة الجزائية لدى الأمم العصرية المتمدّنة كلها قائمة على أساس هذه النظرية .

---

١) البقرة ، ٢ : ١٨٨ .

مشروعية التجارة

قال تعالى في سورة النساء: ﴿ولا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجارَةً عَنْ تَراضٍ بَيْنَكُمْ﴾[1].

يستفاد من هذه الآية الكريمة إباحة التجارة، وقد نبَّه الباري تعالى إلى عظم أهميتها في تكوين الثروة المالية وتأثيرها العظيم في الاستقلال الاقتصادي المتوقف عليه الاستقلال السياسي الحقيقي، إذ قد أثبتت المذاهب الاقتصادية في العهد الحاضر أن التشكيلات الدولية السياسية كلها لم تقم إلا على أسس العلاقات الاقتصادية التي مدارها التجارة. ولما كانت للتجارة تلك العلاقة العظيمة في تقدم الشعوب أخذت الأمم في العهد الأخير تتسابق لتنال التقدم التجاري في أسواق العالم. ولم تبن الأساطيل العظيمة إلا لتعزيز الشؤون الاقتصادية وترقية حالتها، وهذه حكمة مشروعية التجارة في الإسلام.

المال المباح أكله

قال تعالى في سورة النور: ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى المَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيوتِ آبائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهاتِكُمْ أَوْ بُيوتِ إِخْوانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَواتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيوتِ أَخْوالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ، أَوْ ما مَلَكْتُمْ مَفَاتحَهُ أو صَدِيقِكُمْ، لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾[2].

---

١) النساء، ٤ : ٢٩.

٢) النّور، ٢٤ : ٦١.

أصناف المعاملات المحرّمة

أصنافها كثيرة : منها الربا وقال في سورة البقرة : ﴿الّذينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إلّا كَمَا يَقُومُ الّذي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ المَسِّ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا البَيْعُ مِثْلُ الرِّبا وأَحَلَّ اللهُ البَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾[1] .

الربا في نظر الإسلام

أول آية نزلت في تحريم الرِّبا هي آية آل عمران وهي قوله تعالى : ﴿يا أَيُّها الّذينَ آمَنوا لا تأْكُلُوا الرِّبا أضْعافًا مُضاعَفَةً﴾[2] .

من المحقّق أن المراد بالرِّبا هنا هو ربا الجاهلية المعهود عند المخاطبين حين نزول الآية لا مطلق المعنى اللغوي الذي هو الزيادة .

وحكمة تحريم الإسلام الرِّبا ظاهرة فيمَا ينجم عنه من نشوء الضرر الفردي والاجتماعي . وقد صوّره فقهاء الإسلام وحكماء الدين بأبشع الصّور وأتعس الحالات فيمَا يخفى بالمرابي معه ولا حاجة الى الاطناب في ذلك . لذلك حرمته معظم الأديان السماوية والوضعية وهو في الشريعة الاسرائيلية حرام مع بعضهم ومحلّل مع الآخرين ، وقد حددته معظم القوانين العصرية بالمائة دفعًا للتضعيف وفحش الزيادة .

---

١) البقرة ، ٢ : ٢٧٥ .

٢) آل عمران ، ٣ : ١٣٠ .

الرِّبا في الجاهلية ومذاهب العلماء فيه

كان العرب يتعاطون الرّبا في جاهليتهم وبين العلماء اختلاف في تعيين ذلك ولكل منهم وجهة ودليل.

ذكر الإمام ابن جرير الطبري وهو من أئمة المفسّرين في قوله تعالى: ﴿لا تَأْكُلُوا الرِّبا أضْعافًا مُضاعَفَةً﴾[١] في إسلامكم بعد أن هداكم الله كما كنتم تأكلون في جاهليتكم وذلك أن الرجل منهم كان يكون له على الرجل مال إلى أجل فإذا حلّ الأجل طلبه من صاحبه فيقول الذي عليه المال: أَخِّرْ عَنِّي دينك وأزيدك من مالك. فيفعلان ذلك، فذلك هو الرّبا أضعافًا مضاعفة فنهاهم الله عزّ وجل في إسلامهم عنه ثم أردف ذلك بذكر الصور الشايعة من المعاملة الغريبة عند العرب فقال: كانت ثقيف تداين في بنى المغيرة في الجاهلية فإذا حلّ الأجل قالوا نزيدكم وتؤخرون.

أما مذهب الإمام زيد العالم الصحابي في الرّبا الجاهلي فإنه يراه في التضعيف وفي السن وذلك أن يكون للرجل فضل دين فيأتيه إذا حلّ الأجل فيقول تقضني أو تزيدني فإذا كان عنده شيء يقضيه قضاء وإلا حوّله إلى السن التي فوق ذلك إن كانت ابنة مخاض مثلاً يجعلها ابنة لبون في السنة الثانية وإن كان حُقَّة جعلها جذعة... الخ.

وفي العين يأتيه فإن لم يكن عنده أضعفه في العام القابل، فإن لم يكن عنده جعله أربعمائة يضعفها كل سنة أو يقضيه هذا ما فسّر به الإمام الصحابي كلمة الربا وهو الربا الضارّ الفاحش المعروف في هذا الزمن الربا المضاف (درين) ونحن نرى أن ما قاله ابن جرير ومن نقل عنهم من أئمة الصحابة في تصوير الربا يرجعون كلهم الى اقتضاء الدين بعد حلول الأجل ولا شيء منه في

---

١) آل عمران، ٣: ١٣٠.

العقد الأول كان يعطيه المائة بالمائة وعشرة أو أكثر أو أقل.

والمفهوم من الصور المذكورة أنهم كانوا في الجاهلية يكتفون في العقد الأوّل بالقليل ، فإذا حلّ الأجل ولم يقض المدين وهو في قبضتهم اضطرّوه إلى قبول التضعيف في مقابلة الأشياء.

وذكر ابن حجر في «كتاب الزواج» أن ربا الجاهلية كان الإنساء فيه بالشهور فإن الواحد منهم كان يدفع ماله لغيره إلى أجل على أن يأخذ منه كل شهر قدرًا معينًا ورأس المال باقٍ بحاله فإذا حلّ طالبه برأس ماله فإن تعذّر عليه الأداء زاده في الحق والأجل وسمّي هذا نسيئة مع أنه قد يصدق عليه ربا الفضل ذلك لأن النسيئة هي المقصودة بالذات ، وهذا النوع هو المطرد في المعاملة بين الناس وواقع كثيرًا وهو الذي حرّمته الأديان الإلهية والشرائع الوضعية.

أما مذهب ابن عبّاس فإنه لا يحرم إلّا ربا النسيئة وحجّته في ذلك لأنه هو المتعارف بين العرب عند نزول الآية فيجب أن يصرف النصّ إليه.

أما ربا الفضل فقد ثبت أن غير واحد من الصحابة كأسامة وابن عمر كانوا يبيحونه. وأما القائلون بتحريمه فيحرمونه بالأحاديث التي رووها في ذلك لا بنصّ القرآن.

أما ابن القيم فيرى حرمة ربا الفضل سدًّا للذريعة واستدلّ عليه بحديث أبي سعيد الخدري ، رضي الله عنه ، قال : «لا تبيعوا الدرهم بالدرهمين فإني أخاف عليكم الرماء» وقد عرفه بالرّبا وقال في كتابه «أعلام الموقعين» الرّبا نوعان : جليّ وخفيّ ، فالجليّ حرّم لما فيه من الضرر العظيم ، والخفيّ حرّم لأنه ذريعة إلى الجليّ ، فتحريم الأوّل قصد ، وتحريم الثاني وسيلة. فأما الجليّ فربا التبيئة وهو الذي كان يفعلونه في الجاهلية مثل أن يؤخر دينه ويزيده في المال وكلّما أخره زاد في المال حتى تصير المائة آلافًا مؤلفة ولا يفعل ذلك في الغالب

إلا معدم محتاج ، فإذا رأى المستحقّ يؤخّر مطالبته ويصبر عليه بزيادة يبذلها له تكلّف بذلها ليفتدي من أمر المطالبة والحبس فيشتدّ ضرره وتعظم مصيبته ويعلوه الدين حتى يستغرق جميع موجوده فيربو المال على المحتاج من غير نفع يحصل له ويزيد مال المرابي من غير نفع يحصل منه لأخيه فيأكل مال أخيه بالباطل ويحصل أخوه على غاية الضرر.

هذا ما أردت بيانه من أمر الرّبا حتى يعلم النوع الضارّ منه المضادّ لمصلحة النظام الاجتماعي وهو منحصر في الزيادة في مقابلة تأجيل الدين لمن عجز عن الوفاء وقد صوّره تعالى بقوله : ﴿وما آتَيْتُمْ مِنْ رِبا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوالِ النّاسِ فَلا يَرْبُو عِنْدَ اللهِ﴾[1] .

ولما كان تحقيق الدين يتوقف على الإثبات إما بالكتابة وقد مرّ ذكرها وإما بالشهادة لذلك أمر الله بأدائها وعدم كتمها.

الحكمة في منع كتم الشهادة

قال تعالى : ﴿ولا تَكْتُمُوا الشهادَةَ ومَنْ يَكْتُمها فإنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[2] .

وضع القرآن أساسًا للعقوبة على كتم الشهادة فقال (الآية السابقة) والإثم هنا بمعنى الجريمة ولا يخفى أن منعها يقتضي التشديد في العقاب وأما الفقهاء فقد اعتبروا «الإثم» في الآية ذنبًا لا عقاب له دنيويًا وقالوا إن ذلك موكول إلى إرادة الباري تعالى في الآخرة ولا عقاب له في الدنيا ، ولا ريب فإن تنفيذ العقاب في حق الآثم في الدنيا لهو أحسن وأصلح طريقة إلى منع كتمان الشهادة

---

١) الروم ، ٣٠ : ٣٩.
٢) البقرة، ٢ : ٢٨٣.

وصلاح الناس . وهذه الأمم الأوربية فقد وضعت عقابًا على كاتم الشهادة في قوانينها الاجتماعية الحاضرة واعتبرت هذا الكتمان جريمة مستحقّة للعقاب . فكان قانونهم هذا أقرب كثيرًا إلى مبدإ الدين الإسلامي .

ثم إن كتمان الشهادة في بعض الأحيان يتعلق به الحق العام ولا يجوز إعفاء الشخص ممّا يترتب عليه من الحقوق العامة ، فكيف به إذا تعلّق بالشهادة إظهار الحق والعدالة وربّمَا بكتمها يضيع صاحب الجرم وتنكتم الجناية وإذا تكرّر الكتم لربّمَا يكون مدعاة إلى تكرار إيقاع الجرائم لعدم العثور عليها فتؤدي بالنتيجة إلى إخلال الأمن الداخلي وهل شيء أصعب من ذلك ولذا نهت الشريعة الإسلامية الغراء عن كتمان الشهادة للضرر الملحوظ وقوعه . وهذه القوانين الحاضرة تجبر الشاهد على إفادة شهادته في محاكم الجزاء .

الوصيّة وحكمها

الوصية هي من الإيصاء كما يفقه من ذوق اللغة واستعمال أهلها في القديم والحديث وهي ما تعهد به إلى غيرك من العمل في المستقبل القريب والبعيد . وقال الزجاج : معنى الوصية يفرض عليكم . وقال الراغب : الوصية التقدّم إلى الغير بمَا يعمل به مقترنًا بوعظ من قولهم أرض واصية متصلة النبات .

حكم الوصيّة

قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُم إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوالِدَيْنِ والأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا علىٰ الْمُتَّقِينَ﴾[١].

ذكرت الآية ما يطلب ممّن يحضره الموت وهو الوصية والخطاب فيه موجّه إلى الناس كلّهم بأن يوصوا بشيء من الخير لا سيّما عند حضور الموت لتكون خاتمة الأعمال خيرًا محضًا.

والخطاب وارد باعتبار أن الأمة متكافلة يخاطب المجموع منها بمَا يطلب من الأفراد، وقيام الأفراد بحقوق الشريعة لا يتمّ إلا بالتعاون والتكاثر والائتمار فلو لم يأتمر البعض وجب على الباقين حمله على الائتمار كما هو الشايع في الفروض الكفائية.

ما تصحّ به الوصيّة بحسب الزمان والمكان

فسّر المفسّرون الخير بالمال. وقيّده جمهورهم بالكثير أخذًا من التنكير — يؤيد ذلك ما رواه ابن أبي شيبة عن أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها: «قال رجل: إني أريد أن أوصي، قالت: كم مالك؟ قال ثلاثة آلاف، قالت: كم عيالك، قال: أربعة، قالت: قال الله تعالى ﴿إن تَرَكَ خَيْرًا﴾[٢] وهذا شيء يسير فاتركه لعيالك فهو أفضل».

وروى البيهقي وغيره «أن أمير المؤمنين رضي الله عنه دخل إلى مولى له في الموت وله سبعمائة أو ستمائة درهم فقال ألا أوصي؟ قال لا إنما قال الله تعالى ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾[٣] وليس لك كثير مال فدع مالك لورثتك». ومدلول

---

١) البقرة، ٢ : ١٨٠.
٢) البقرة، ٢ : ١٨٠.
٣) البقرة، ٢ : ١٨٠.

الروايتين أنهم كانوا يفهمون من الخير المال الكثير ، وتقديره موكول للعرف المتعيّن بحسب حال الشخص واعتباره والعرف يختلف باختلاف الزمان والأشخاص والمراكز الاجتماعية .

اختلاف رأي الجمهور والإصلاحيين في الوصيّة

ذهب الجمهور إلى أن الآية منسوخة بآية المواريث أو بحديث : «لا وصية لوارث» أو بهما جميعًا وقالوا : كان الحكم بهذه الآية في بدء الأمر ثم نسخت بآية المواريث التي نزلت بعدها وبقوله عليه الصلاة والسلام «إن الله أعطى كل ذي حقّ حقّه ، ألا لا وصيّة لوارث» .

وذهب الإصلاحيون في فهم الآية إلى خلاف الجمهور وهم يرون أن آية المواريث لا تعارض الأولى لاحتمال أن تكون الوصيّة في حالة المواريث لغير الوارث الشرعي ، وذلك بأن يخصّ القريب هنا بالممنوع من الإرث ولو بسبب اختلاف الدين فإذا أسلم كافر وحضرته الوفاة مثلاً ووالداه كافران فهلا يجوز له أن يوصي لهما بما يؤلف به قلوبهما وقد أوصى الله تعالى أن يصلحوا حالة الأبوين وإن كانا كافرين . أما الحديث فهو من أخبار الآحاد وتلقّي الناس له بالقبول لا يلحقه بالمتواتر والظني من الأحاديث لا ينسخ القطعي منها فكيف ينسخ القرآن وهو قطعي بلا كلام . ولو كانت الآية منسوخة لما أكّدها الله تعالى ووثّقها في قوله ﴿حقًا على المتّقين﴾[1] وبالوعيد لمن يسعى في تبديلها . ويروى عن أمير المؤمنين عليّ ، كرّم الله وجهه : «من لم يوص عند موته لذوي قرابته لمن لم يرث فقد ختم عمله بمعصية» وأكثر علماء الملّة يذهبون إلى أن هذا النوع من الوصيّة مستحبة غير واجبة .

---

١) البقرة ، ٢ : ١٨٠ .

وأما أئمة السلف فيقولون : إن هذه الوصية المذكورة في الآية مشروعة ولكن منهم من يقول بعمومها ومنهم من يقول بخصوصها لغير الوارث وقصارى القول : إن الآية غير منسوخة بآية المواريث لأنها غير مناقضة لها بل انها تؤيدها. ولا دليل على أنها نزلت بعدها ، وأن حكمها باق يصدق على من لا يرث من الوالدين والأقربين.

منع تبديل الوصيّة

قال الله تعالى : ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ مِنْ بَعْدِمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١) والجملة الأخيرة تأكيد للوعيد يوجب الحمل على التشديد في المعاقبة على هذا الفعل الكريه ، ولم يضع الله عقابًا معيّنًا محدودًا على مبدّل الوصيّة بل إنما ترك ذلك لأمر الأمة باختلاف الأمكنة وتطوّر الأزمان وتباين الذوات. حسبما تقتضيه الحاجة الاجتماعية.

متى يجوز التدخّل في منع الوصية ولمن يرجع الحق في ذلك؟

قال تعالى : ﴿فَمَنْ خافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢) .

الجنف بالتحريك الخطأ والإثم. والمراد به هنا تعمد الإجحاف والظلم. والمعنى إن خرج الموصي في وصيته عن المعروف والعدل خطأً أو عمدًا فتنازع الموصى لهم فينبغي أن يتوسط بينهم من يعلم بذلك ويصلح ذات بينهم. وقد فسّر العلماء الخوف هنا بالعلم. ومفاد الآية أن تبديل الوصية إثم يوجب العقاب كما قدّمنا إلا إن رأى فيها إجحافًا والإجحاف كما لا يخفى مُضِرّ وتقريره يرجع

---

١) البقرة ، ٢ : ١٨١ .
٢) البقرة ، ٢ : ١٨٢ .

بالطبع إلى الهيئة العامة فلها أن تبدل فيها لأجل الإصلاح ومنع التخاصم وإزالة التنازع والتعادي بين الموصى لهم.

وقد روى بعض المفسّرين في التعبير بـ «خاف» بدلاً من رأى وعلم، تبرأة للموصي من القطع بجنفه وإثمه، وتحاميًا من تقييد السلطة العامة من التصدي للإصلاح الذي هو من أوكد الواجبات عليها.

المواريث

قبل أن نتكلّم عن القوانين الإسلامية في تعيين الفروض أو الأنصبة وتقسيم أصناف الوارثين ينبغي لنا أن نعلم نظام التوارث في الجاهلية حتى نعلم ما نسخ منه الإسلام وما أقرّه ليتبيّن لنا بجلاء ووضوح الإصلاح الاجتماعي الذي أوجده الدين الإسلامي في نظام التوارث.

التوريث عند الجاهلية وأسبابه

كان الجاهلية يتعاطون الإرث بكيفية غريبة وكانت أسباب الإرث عندهم ثلاثة وهي :

١ – النسب وهو خاصّ بالرجال الذين يركبون الخيل ويقاتلون الأعداء ويأخذون الغنائم. أما الضعيفان المرأة والطفل ومن شاكلهما فليس لهم إرث.

٢ – التبنّي فقد كان الرجل يتبنّى ولد غيره فيرثه ويأخذ بقية أحكام الميراث.

٣- الحلف والعهد كان الرجل يقول للرجل دمي دمك وهدمي هدمك وترثني وأرثك وتطلب بي وأطلب بك فإذا تعاهدا على ذلك فمات أحدهما قبل الآخر كان للحي ما اشترط من مال الميت.

النظام الوقتي للإسلام في التوارث

وضع النبيّ ﷺ نظامًا للتوارث بناه على الهجرة والمؤاخاة فكان المهاجر يرث المهاجر، يرثه ولو كان بعيدًا، ولا يرثه القريب غير المهاجر. وكان يؤاخي بين الرجلين فيرث أحدهما الآخر. والحكمة في هذه الطريقة ظاهرة فإن ذوي القرابة والرحم من المسلمين كان أكثرهم مشركين وكان المسلمون لقلّتهم وفقرهم محتاجين إلى التناصر والتكافل بينهم، لا سيّمَا المهاجرين الذي خرجوا من ديارهم، وذوي المال ممّن ترك فيها ماله وخرج صفر اليدين مع الفقراء لذلك كانت الحاجة داعية لإيجاد مثل ذلك النظام وقد استمرّ العمل به حتى نزلت آية المواريث بعد غزوة «احد» عملاً بمصلحة أخرى أهمّ وأكبر.

أما السبب في نزولها فحاجة الأمة إلى تغيير ذلك النظام والحاجة إلى تغييره صريحة في رواية جابر وهي رواية متّفق عليها قال: «جاءت امرأة سعد ابن الربيع إلى النبيّ ﷺ فقالت يا رسول الله إن ابنتي سعد بن الربيع قتل أبوهما معك في أحد شهيدًا وإن عمّهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالاً ولا تنكحان إلا ولهما مال فقال ليقض الله في ذلك فنزلت الآية».

النظام الدائم للإسلام في التوارث

نزل قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمْ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ﴾[١] ... الخ. وعقب نزولها أرسل رسول الله إلى عمّ ابنتي سعد فقال

---

١) النساء، ٤ : ١١.

اعطها الثلثين وأمها الثمن وما بقي فهو لك وقد اتفق العلماء على أن هذه أول تركة قسّمت في الإسلام حسب النظام الثاني.

الورثة في نظر الشريعة الإسلامية

جعلت الشريعة الورثة على قسمين: نسبي وسببي.

والنسبي تحته ثلاثة أنواع:

١ - الأصول وهم الأب والأم والجد والجدة.

٢ - الأطراف وهم: الأخوة والأخوات. والأعمام والعمّات. والأخوال والخالات.

٣ - الفروع وهم: الأولاد وأولاد الأولاد.

والسببي ينقسم إلى قسمين:

١ - العقدي وهو الذي يتكون من عقد الزيجة بين الزوج والزوجة خاصة.

٢ - العهدي وهو من عاهده المورث على الغرم والغنم.

واختلف علماء الملّة الإسلامية في أولاد الأولاد. فقالت الشافعية: هم يدخلون في مفهوم الأولاد مجازًا لا حقيقة. وقالت الحنفية: إن لفظ الأولاد يتناولهم حقيقة إذا لم يكن للميت أولاد من صلبه ولا خلاف بين المسلمين في قيام أبناء البنين مقام والديهم عند فقرهم وعدم إرثهم مع وجودهم.

الحكمة في جعل الأنثى الوحدة القياسية في الإرث

وقد بيّن الله تعالى أنصبة البنين بقوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ﴾[1] أي للذكر منهم مثل نصيب اثنتين من إناث إذا كانوا ذكورًا

---

١) النساء، ٤ : ١١.

وإناثًا . وقد اختار الله هذا التعبير للإشعار بإبطال ما كانت عليه الجاهلية من منع توريث النساء فكأنه جعل نصيب الأنثى أصلاً في الإرث مقررًا معروفًا وأخبر أن للذكر مثله مرتين وهو يدل على جعله أصلاً في التشريع . وجعل إرث الذكر محمولاً عليه يعرف بالإضافة إليه ولولا ذلك لقال : للأنثى نصف حظّ الذكر يؤيد ذلك ما نراه في بقية الفرائض من الآيتين من تقديم بيان ما للإناث بالمنطوق الصريح مطلقًا أو مع مقابلته بمال الذكر كما تراه في فرائض الأبوين والأخوات والأخوة .

الحكمة في مضاعفة نصيب الذكر على الأنثى

أما الحكمة في جعل حظّ الذكر حظّ الأنثيين فهي أن الذكر يحتاج إلى الإنفاق على نفسه وعلى زوجه فكان له سهمان. وأما الأنثى فهي تنفق على نفسها فقط فإنّ تزوّجت كانت نفقتها واجبة على زوجها وبهذا الاعتبار يكون نصيب الأنثى من الإرث أكثر من نصيب الذكر في بعض الحالات بالنسبة إلى نفقاتهن. وقال تعالى : ﴿فإنْ كُنَّ نِساءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾[1] مَهْمَا بَلَغَ عددهن ﴿فلهُنَّ ثُلُثا ما تَرَكَ﴾ والدهن المتوفى أو والدتهن وإن كان المولودة أو الوارثة امرأة واحدة ليس معها أخ ولا أخت فلها النصف ممّا ترك والباقي لسائر الورثة .

هذا ما فرضه الله في إرث الأولاد وهم أقرب الطبقات إلى الميت وقد فصل فيه أنصبة الإناث منهم وهو أنهن إذا كنّ مع الذكور كان للذكر مثل حظ الأنثيين ، فإذا كان ذكرًا وأنثى أخذ الولد الثلثين والأنثى الثلث ، وإذا كانوا ذكرًا واثنيين أخذ الذكر النصف والأنثيان النصف لكل منهما نصفه وهو ربع التركة ، وإذا كنّ منفردات بالإرث كان الحكم فيهن كما بيّناه .

---

١) النساء ، ٤ : ١١ .

نصيب الأصول : الأبوين

الحكمة في جعل السدس نصيبًا للأبوين مع وجود الولد والتساوي بينهما.
الحكمة في جعل الثلثين للأب والثلث للأم عند فقد الولد.
الحكمة في حجب الأخوة الأم من الثلث إلى السدس.

قال تعالى : ﴿ولأَبَوَيْهِ لِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُمَا السُدُسُ مِمّا تَرَكَ إنْ كانَ لَهُ وَلَدٌ فَإنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أبَواهُ فَلأُمِّهِ الثُلُثُ . فإنْ كانَ لَهُ أخوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ﴾[٢] .

١ – المفهوم من السياق أن المراد بالأبوين هنا أبوا الميت ، فهمَا سواء في هذه الفريضة لا يتفاضلان فيها كما يتفاضل فيها الذكور والإناث من الأولاد والأخوات والأزواج وذلك للتنبيه على مقام الأم في الشريعة المطهرة ، هذا إذا كان له ولد واحد فأكثر ، وما زاد على الثلث الذي يتقاسمه الوالدان يكون لأولاده على التفصيل المتقدّم.

٢ – فإن لم يكن له ولد ، لا من الصلب ، ولا ولد ابن ، ولا ابن ابن ، وورثه أبوه فقط فلأمه الثلث ممّا ترك والباقي كما هو معلوم للأب من انحصار الإرث فيهما وهنا يدخل في القاعدة للذكر مثل حظ الأنثيين ، كل في طبقته.

وإنما تساويا مع وجود الأولاد ليكون حقوقهما عليهم على السواء ، على أن الأب هنا لم يفضل الأم بالفريضة ، بل له السدس فرض ، والباقي بالتعصيب إذ لا عصبة هنا سواه.

٣– فإن كان للمورث أخوة فلأمّه السدس ممّا ترك ، سواء كان الأخوة ذكورًا أو إناثًا من الأبوين أو من أحدهما ، كل جمع منهم يحجب الأم

---

٢) النساء ، ٤ : ١١.

من الثلث إلى السدس ولا يحجبها الواحد. واختلفوا في الأخوين أو الأختين، فأكثر الصحابة على أنهما كالجمع في حجب الأم من الثلث إلى السدس وعليه جرى العمل في الصدر الأول. وما بقي وهو خمسة أسداس يكون كلّه للأب سدس منه الفرض لأن فرضه لفرضها والباقي بالتعصيب.

الحكمة في جعل أنصبة الأصول أقلّ من أنصبة الفروع في الميراث

وانما كان حظ الوالدين من الإرث أقل من حظ الأولاد مع عظم حقّهما على الولد لأنهما يكونان في الغالب أقل حاجة بالمال من الأولاد، إما لكبرهما وقلّة احتياجاتهما، وإما لاستقلالهما وتحوّلهما، وإما لوجود من تجب عليه نفقتهما من بقية أولادهما الأحياء، أو نظرًا لهذه الاعتبارات كلها.

وأما الأولاد فإما أن يكونوا صغارًا لا يقدرون على الكسب، وإما أن يكونوا على كبرهم محتاجين إلى نفقة الزواج وتربية الأطفال، فلهذا وذاك كانت حصّتهم من الإرث أوفر من حظّ الوالدين.

إرث الأبوين مع الزوج

ذكرت الآية حكم الأبوين مع الولد، وحكمها منفردين ليس معهما وارث آخر، وحكمها مع الأخوة، ثم أردفت ذلك بحكمهما مع الزوج وبعبارة أصرح مع أحد الزوجين.

حكم الزوجة في الميراث مع وجود أبوي المورث، حكم ميراث الزوج مع وجود أبويها – مذهب ابن عبّاس في توريث الأبوين مع وجود الزوج أو الزوجة – مذهب الجمهور – المقايسة بينهما في إرث الأبوين مع وجود أحد الزوجين خلاف بين جمهور الصحابة وابن عبّاس. فالجمهور على أن الزوج

يأخذ نصيبه وهو النصف إن كان ذكرًا والربع إن كان أنثى ويكون الباقي للأبوين ثلثه للأم والباقي للأب.

أما مذهب ابن عبّاس فإن الزوج يأخذ نصيبه وتأخذ الأم الثلث أي ثلث التركة كلها ويأخذ الأب ما بقي ويظهر أن في المسألة صورتين : إحداهما تنطبق على مذهب الجمهور وهي أن يكون توريث الزوجة والأبوين على الصورة التالية للزوجة الربع ٣–١٢ وللأم ثلث الباقي ٣–٩ وفي هذه الصورة يجري حظ الأبوين على قاعدة للذكر مثل حظ الأنثيين.

أما التوريث على مذهب ابن عبّاس فهو أن يكون للأم الثلث الأصل وهو ٤–١٢ فيكون الباقي للأب (٥) وهو لا يجري على القاعدة طبعًا.

الصورة الثانية : زوج وأبوان للزوج النصف وهو ٦–١٢ وللأم ثلث الباقي عند الجمهور وهو ٢–١٢ وللأب الباقي وهو يساوي ٤–١٢ وأما على رأي ابن عبّاس فلِلأم ثلث الأصل وهو ٤–١٢ وللأب الباقي وهو ٢–١٢ فيكون الحكم بالعكس وخلاف قاعدة للذكر مثل حظ الأنثيين.

وواضح أن رأي الجمهور في التوريث هو المطابق للقاعدة القرآنية التي تقررت لكل من الأولاد والأخوة والوالدين مع الأخوة كما تقدّم والزوجين كما في الآية التالية.

الحكمة في تقديم الزوجين بالإرث على الأبوين

وجليّ أن حقوق الزوجية في الإرث مقدّمة على حقوق الوالدين مع أنها من الحقوق التعاقدية فإن الوالدين إنما يتقاسمان ما بقي بعد أخذ الزوج حصّته. وقد ذهب بعض العلماء في توجيه ذلك إلى أن الزوجين يتوارثان بالتعاقد الحادث لا بالقرابة فكان فرضهما من قبيل الوصية ، والوصية لها التقديم فتؤخذ من أصل التركة ويقسم الباقي بين الوالدين الوارثين بالقرابة. أما بعض

المتأخرين من العلماء فهم ينكرون ذلك ويقولون : لو كان هذا التوجيه صحيحًا لاطّرد تقديم فرض الزوج مع الأولاد والأخوة ، والأمر ليس كذلك ، وإنما يوجهونه بأن حق الأزواج في الأموال والنفقات أوكد من حق الوالدين وإن كان حقهما أشرف وأجدر من حق الزوج بالاحترام ، ذلك أن الوالدين يكونان عند زواج الولد عريقين في الاستقلال بأنفسهما في المعيشة وأقل حاجة إلى المال من الأولاد وأزواجهم الذين واللواتي في سنّهم غالبًا لانصرام أكثر أعمالهما ولأنهما إذا احتاجا إلى مال الأولاد كان ذلك على مجموع مال أولادهما وأما الزوجان فإنهما يعيشان مجتمعين كل منهما متمم عمل الآخر حتى كأنه نصف ماهيته أو ذاته ويكون ذلك بانفصال كل منهما عن والديه لاتصاله بالآخر فلهذا كانت حقوق المعيشة بينهما أوكد. ولهذا تقرر في الشريعة أن يكون حق الزوجة على الرجل في النفقة هو الحق الأول ، فإن لم يجد إلّا رغيفين ، وسدّ رمقه بأحدهما وجب عليه أن يجعل الثاني لامرأته ، لا لأحد أبويه ولا لغيرهما من أقاربه. فَصِلَةُ الزوجيّة أشدّ وأقوى صلة حيوية اجتماعية ، وما صلة البنوّة إلا فرع منها وإن كان حقّ الأولاد أقوى من جهة أخرى كما تقدم بنا.

فرائض الزوجين

لما فرغ القرآن من بيان فرائض عمود النسب في القرابة وهو الأولاد والوالدون وقدم الأهم منها من حيث الحاجة إلى المال المتروك ، وهم الأولاد دون الأشرف وهم الوالدون ، بيّن فرائض الزوجين وهما في المرتبة الثانية ، كما قال ذلك بعض أهل التأويل ، سبب لحصول الأولاد ، والسبب إنما يقصد لأجل غيره والمسبّب هو المقصود لذاته.

الحكمة في جعل نصيب الزوج النصف عند فقد الولد والربع مع وجوده

قال تعالى : ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ ما تَرَكَ أَزْواجُكُم﴾ (١) اللواتي تحققت بهنّ الزوجية بالدخول بهن بأكمل معناها ﴿إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾ ذكرًا كان أو أنثى ، منكم أو من غيركم ، واحدًا كان أو أكثر ، من بطنها مباشرة أو من صلب بنيها ، أو بني بنيها فنازلاً ، والباقي لأولادهما ووالديها على ما بيّنه الله في الآية السابقة.

﴿فَإِنْ كانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبع مِمّا تَرَكْنَ﴾ (٢) والباقي من التركة للأقرب إليها من أصحاب الفروض والعصابات وذوي الأرحام ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ (٣) أي يكون ذلك لكم من تركتهنّ في كل من الحالتين ، بعد إنفاذ الوصيّة ووفاء الدين ، أو ليس للوارث شيء إلا بعد ما يفضل عنها.

الحكمة في جعل نصيب الزوجة الربع عند فقد الولد والثمن مع وجوده

﴿وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ﴾ (٤) أما على التفصيل المتقدم في أولادهن فإن كان للميت منكم زوج واحدة كان لها وحدها ، وإن كان له أكثر من واحدة اشتركتا أو اشتركن فيه بالمساواة ، والباقي يكون لمستحقّه شرعًا من ذوي القربى وأولى الأرحام ﴿فَإِنْ كانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمّا تَرَكْتُمْ﴾ (٥) والباقي لولدكم علا أو نزل ، ولمن عساه

---

١) النساء ، ٤ : ١٢.
٢) النساء ، ٤ : ١٢.
٣) النساء ، ٤ : ١٢.
٤) النساء ، ٤ : ١٢.
٥) النساء ، ٤ : ١٢.

يوجد معه من والديه على التفصيل الذي بيّنه الله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ وبهذا كان للذكر من الزوجين مثل حظ الأنثيين على القاعدة.

وقد يرد على هذا إن ترك زوجين أو ثلاثًا أو أربعًا كان لهنّ نصيب الزوجة الواحدة فلا تطّرد فيهنّ قاعدة ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ﴾ (٢) لأن الرجل لا ينقص نصيبه من أرث امرأته بحال من الأحوال. والحكمة في ذلك غير ظاهرة. ولماذا لم يكن نصيب الزوجين أو الثلاث أو الأربع أكثر من نصيب الزوج الواحدة؟ الحكمة ظاهرة لمن يتدبر المقاصد الإلّهية، وهي تعليمنا وإرشادنا إلى الأصل الذي يجب أن نجري عليه في الزوجية وهو أن يكون للرجل امرأة واحدة وإنما أباح للرجل أن يتزوج اثنتين إلى أربعة على المعتمد بشرطه المضيق لأن التعدّد من الأمور التي تسوق إليها الضرورة أحيانًا وقد تكون لخير النساء أنفسهن.

فلو كان من مقاصد الشريعة أن يتزوج الرجل أكثر من امرأة، لجعل للذكر من الأولاد أكثر من حظ الأنثيين وللزوجين والزوجات أكثر من حظ الزوجة الواحده، ولكن التعدّد في نظر الشارع من الأمور النادرة غير المقصودة فلم يراعه في أحكامه والأحكام إنما توضع لما هو الأصل الذي عليه العمل في الغائب والنادر لا حكم له.

ميراث الكلالة

الكلالة هي القرابة البعيدة. لما بيّن الله تعالى أحكام الأولاد والوالدين والأزواج وكل منهما يتصل بالمورث مباشرة بلا واسطة بين ما يتصل بالمورث

---

١) النساء، ٤ : ١٢.

٢) النساء، ٤ : ١١.

بالواسطة وهو الكلالة فقال : ﴿وإنْ كانَ رَجُلٌ يُورَثُ كلالَةً أوْ امْرَأة﴾[١] أي حال كون كل منهما كلالة أي ذا كلالة ، وإن كان رجل موروث وهو من ليس له ولد ولا والد واللفظ مصدر كل يكل بمعنى الكلال وهو الإعياء ثم استعمل للقرابة البعيده غير قرابة الولد والوالد لضعفها بالنسبة لقرابة الأصول والفروع .

وذكر الإمام الرازي في معنى الكلالة وجوهًا : منها أن الكلالة في أصل اللغة الإحاطة ومنه الإكليل لإحاطته بالرأس والكل لإحاطته بما يدخل فيه ويقال تكلل السحاب إذا صار محيطًا بالجوانب .

وإذا عرفت هذا فنقول ما عدا الوالد والولد إنما سموا بالكلالة لأنهم كالدائرة المحيطة بالإنسان وكالإكليل المحيط برأسه . أما قرابة الولادة فليست كذلك فإن فيها يتفرع البعض عن البعض ويتولد البعض من البعض كالشيء الواحد الذي يتزايد على نسق واحد ، فأما القرابة المغايرة لقرابة الولادة وهي كالأخوة والأخوات والأعمام والعمّات فإنما يحصل لنسبهم اتصال وإحاطة بالمنسوب إليه ، ويوصف بالكلالة الميت الموروث والمراد بها من يرثه غير أولاده ووالديه ويوصف بها الوارث ويراد بها مَن سوى الأولاد والوالدين . وعن عمر ، رضي الله عنه ، كان يقول : الكلالة من سوى الولد من الوارثين. وروى أيضًا عنه أنه لما طعن قال : كنت أرى أن الكلالة من لا ولد له وأنا أستحي أن أخالف أبا بكر الكلالة من عدا الوالد والولد . فبين الله في هذه الآية ما يرثه الأخوة من الأم للكلالة فقط . ويروى أن السبب في نزول الآية أنه وقع إرث كلالة فيه أخوة عصب . وسئل النبيّ عن ذلك فنزلت الآية الثانية التي في آخر السورة التي جعلت للأخت الواحدة النصف إذا انفردت ، وللأختين فأكثر الثلثان وللأخ فأكثر كل التركة فإن كانوا أخوة رجالاً ونساءً فللذكر مثل حظ

---

١) النساء ، ٤ : ١٢ .

الأنثيين. وقد أجمع الصحابة على أن المراد من قوله تعالى: ﴿وَلَهُ أَخٌ أَوْ أخت﴾[١] يعني به الأخ والأخت من الأم فقط؛ لأن الأخوين من العصب قد بيّن حكمها في الآية الأخرى، قال تعالى: ﴿فلِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فإنْ كانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ فَهُمْ شُرَكاءُ فِي الثُّلُثِ﴾[٢] وهم إنما يأخذون فرض الأم فقط وهو إما السدس وإما الثلث، ومحصل القول أن الأخ من الأم يأخذ في الكلالة السدس وكذلك الأخت لا فرق فيه بين الذكر والأنثى؛ لأن كلاً منهما حلّ محلّ أمه فأخذ نصيبها، وإذا كانوا متعددين أخذوا الثلث وكانوا فيه سواء، لا فرق بين ذكرهم وأنثاهم لما ذكرناه من العلّة.

وأما الباقي من التركة بعد فرض هؤلاء فيجري على القاعدة التي بيّنها النبيّ ﷺ بقوله: «أَلْحِقُوا الفرائِضَ بأَهْلِها فما بقِيَ فلِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ».

رواه أحمد والشيخان وغيرهم من حديث ابن عبّاس ولم يذكر ذلك في القرآن لأن المخاطبين به في عصر التنزيل كانوا كما قدّمنا يعطون جميع التركة للرجال من عصبتهم دون النساء والصغار، ففرض الله سبحانه للنساء ما فرضه فكنّ شريكات للرجال، وجعل الصغار والكبار في الإرث سواء.

ثم قال: مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصي بِها أَوْ دَيْنٍ﴾[٣] كما تقدّم في نظيره ﴿غير مضار﴾ أي ذلك الحق في الورثة. وحدّد النبيّ الوصية الجائزة بثلث التركة فقال: «والثلث كثير» وهو حديث متّفق عليه، فما زاد على الثلث فهي ضرار لا يصح ولا ينفذ. ونقل عن ابن عبّاس، رضي الله عنه: أن الضرار في الوصية من الكبائر.

---

١) النساء، ٤ : ١٢.
٢) النساء ٤ : ١٢.
٣) النساء، ٤ : ١٢.

الفهرس

دار الغرب الإسلامي / الحبيب اللمسي

شارع الصوراتي (المعماري) ــ الحمراء ــ بناية الأسود
تلفون 340131 - 340132 ــ ص.ب. 5787-113 بيروت ــ لبنان

رقــم 70 / 3000 / 8 / 1985

التنضيد : مؤسسة الخدمات الطباعية (حسيب درغام وأبناؤه)
المكلس ــ ص. ب. 009 / 50 لبنــان

الطباعة: مؤسسة جواد ــ بيروت

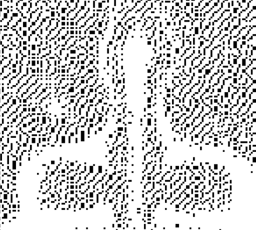
Abdelaziz Thaâlbi

Conférences

sur l'histoire des rites et des religions

Edition revue et corrigée par

Hamādi as-Sahilī



Dar al-Gharb al-Islami